الرقص على طبول مصرية

ملحمة نصر أكتوبر فى عيون محارب



رواية

فؤاد حجازى

دار الطلائع
للنشر والتوزيع والتصدير

الرقص على طبول مصرية

ملحمة نصر أكتوبر في عيون محارب

رواية

فؤاد حجازي

دار الطلائع

حجازي، فؤاد.
الرقص على طبول مصرية: رواية/ فؤاد حجازي.
ط١- القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع، ٢٠١٠ -
٣٦٨ص: ٢٠ سم.
تدمك ٣ ٦٥٢ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨ .
١- القصص العربية
ب- العنوان.

رقم الإيداع: ١٩٧٧٣/٢٠١٠
الترقيم الدولي: 978-977-277-652-3



للنشر والتوزيع والتصدير
٤٢ شارع علي أمين امتداد مصطفى النحاس - مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٤٠١٥٢٧٨ - ٢٤٠١٥٢٧٩ (٢٠٢)
فاكس: ٢٤٠٤٢٨٠٢ (٢٠٢)
E-mail . info@altalae.com
Web site: www.altalae com

اللوحة مهداة من الفنان: محمد حجي

مطابع العبور الحديثة - القاهرة
تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٦١٥٩٩



إهداء

إلى الدماء الشهيدة

التي أهدتنا معجزة النصر

من أجل الحرية والعدل

فؤاد حجازي

1

بعد ظهر السادس من أكتوبر البشير عام 1973، وبالتحديد فى تمام الساعة الثانية وخمس دقائق، كان جندي الشرطة العسكرية، ينظم المرور المتجه من الضفة الغربية لقناة السويس، إلى الضفة الشرقية، مشيراً بيمناه ناحية الشرق.

وظل هذا الجندي، يؤدي عمله، رغم زئير الطائرات فوقه، وصفير دانات المدافع، تمرق بجانبه وفوقه، ودويّ انفجارها، ورغم الغبار الذي تثيره الدبابات، وهى تدمدم في غضب مكتوم، حوله، بينما طلقات الرصاص تنطلق - حتى هذه الساعة - من الغرب بغزارة .

وحقيقة، لم أكن أدري، هل هو جندي واحد، ظل واقفًا على هذا النحو حتى بعد أن غابت الشمس، أم أن الجندي، كان يسقط، ويحل محله آخر، دون أن يلحظ أحد. تطلع من زجاج نافذة العربة . طالعته الرمال، بتموجاتها، حتى تماسها مع قوس الأفق، تنهد، وتساءل : هل حقا، تخلت الرمال عن هدوئها، وماجت بالحركة والغليان.

انحدرت الطريق . صعدت ثانية . فى المنخفض، إلى يساره، قبل مدخل العريش بقليل، طالعته مصاطب مقابر، ترتفع وتنخفض، تبعا لتموجات الأرض الرملية . وقد نمت بينها أعشاب قليلة، داكنة، لم تطغ

على لون الرمال التى بدت صفراء، مشبعة بلون رمادي، ولفتت نظره كثرة المقابر، مع أن العريش مدينة صغيرة .

ارتفعت العربة مع الطريق .. لمح على البعد، مياه البحر، هادئة، ترفرف فوقها النوارس البيضاء، بأجنحتها، هاشة .

كانت الطائرات، تحرك أجنحتها يميناً وشمالاً، كأنها تحييهم، فصاح الجنود مهللين، وقد غادرتهم لحظات القلق، التى عمتهم منذ دقائق، حين عبرت الطائرات القناة.. وسرعان ما دوت مدفعيتنا من الغرب .. باتجاه الساتر الترابي والحصون الحجرية لخط بارليف.

لكزه جندي، ليختبئ فى حفرة، أو خلف مصطبة، وهو المدني .. إلا أنه لم يفعل، وقد شده المشهد .. آلاف من الجنود، لا يدري كيف انشقت عنهم المصاطب الرملية، يحملون قوارب مطاطية، ألقوا بها على صفحة مياه القناة . سرت قشعريرة لطيفة فى الماء، وحين عملت المجاديف، رجف قلبه بفرحة مبهمة، وتعلقت عيناه، بقطرات الماء، تنساب من الحواف العريضة للمجاديف، كفراشات بيضاء شفيفة، ترقص وتتقافز فى الماء.

ألقاه أحدهم جانبًا فى قوة، وقع على ظهره، هالته السماء المغطاة بآلاف القذائف الحمراء، وقد استدارت الشمس، وأصبحت فى ظهر جنودنا، عندئذ قال فى نفسه : الشمس فى عين العدو.

دخلت العربة شارع العريش الرئيس، حيث مركز المدينة، وحيث تقوم بعد المنتصف تقريبًا، مبان جديدة للمحافظة، وللمصالح الحكومية المختلفة، ويتعامد الشارع فى نهايته مع الشارع الموازي للبحر .

قبل أن يصعدا فى الشارع، وحيث المقاهى البلدية، قال السائق :

- نركن قليلا .

كان ذراعه مطوحًا خلف مقعده، لامست أصابعه شتلات الخوخ، قال :

- لا وقت لدينا .

وأشار له، ليسلك الطريق الدائرة، حول العريش، طالعتهم أشجار الزيتون، بجذوعها التى تميل إلى القصر، وأوراقها النضرة، فى لونها الأقرب، لما نسميه أخضر زيتى .

ضغط السائق بقوة على دواسة الوقود . ولكنه اضطر لتخفيف الضغط، فقد التوت الطريق، وضاقت . على جانبيها نهضت أشجار اللوز القصيرة، الكستنائية، وأطول منها قليلا أشجار المانجو بأوراقها العريضة، واخضرارها البهيج، ولاحت على البعد أشجار البرقوق، وتفصل بين المساحات المزروعة بالأشجار، أسوجة من التين الشوكي، اختفت ثمراته الحمراء، بين أوراق غليظة، باهتة الاخضرار، تنفر منها أشواك متحدية.

لكم اشتقنا إلى زرع، يرطب هواء الصحراء الجاف اللاهب وقت الظهيرة، فقط ثلة من أشجار الخروع، كانت بالقرب من شريط السكة الحديدية للعريش، رأفت بحالنا، حين كنا نهرع إليها، في أية فرصة نقتنصها ونتسلل من معسكرنا القريب.

وفي هذا الصباح، من الخامس من يونيو 67، ولم نكن قد انتهينا من فطورنا، ولم تكن الشمس قد شحذت همتها، فى تسليط أشعتها، فكر بعضنا، الخالى من الخدمة، في تدخين سيجارة عند الخروع، وحيث يحلو الكلام، ولم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة، حين لمح جندي

المدفعية المضادة للطائرات، من حفرته جوارنا، طائرتي مستير، تحومان، استعد للضرب . عاجله ضابطه :

- لا تضرب

قال :

- إسرائيليتان

- لا توجد أوامر .

نقرت إحدى الطائرتين مخزن الوقود، والأخرى حملة السيارات . وبينما تصاعد الدخان أسود ناعقا، عادت الطائرتان، ونقرتا حفر المدفعية. التقطت جهازي اللاسلكى، وأسرعت إلى زملائى أفراد الإشارة، كان ضابطنا، يسأل فى بوق تليفونه الميداني :

- هل قامت الحرب .. ؟!

نزلت العربة بقوة، مع انحدار الطريق، حتى كادت جبهته تصطدم بزجاج العربة الأمامى، التفت إلى السائق فى ضيق . سرعان ما صعدت العربة، فأمسك كلماته الغاضبة.

تلفت إلى الخلف من نافذة العربة إلى يمينه . رأي أشجار الزيتون تتباعد . أحس، ولا يدري كيف، أنهما غادرا وادي العريش، وتحقق من صدق إحساسه، حين نبهه السائق :

- الوادي الأخضر .. نقف .. ؟

لم يرد . وقد أدهشته كثافة الأشجار، خاصة المانجو والخوخ، ولاح على البعد، سور عال من الأسلاك .

تفحص بعينيه الأرض على الجانبين . جُرفت طبقة رملية بعمق متر،

وأحيانًا بعمق مترين أو أكثر، ونمت فى الأغوار، المربعة، والمستطيلة أحيانًا، أشجار اليوسفي والخوخ والمانجو، والبرقوق، وبين الأغوار نهضت تلال رملية . حمل الهواء لهما رائحة البحر . وطالعا صفحته الزرقاء الفيروزية حين صعدت العربة الطريق . استوت الطريق، فأبطأ السائق من سرعته، ليعطيه فرصةً ليحدد وجهته، ولما لم يفعل، انحرف السائق بالعربة يمينا مع الطريق، متفادياً دخول رفح، ومبتعداً عن البحر . وكان ما زال يلوك في ذهنه ما تعنيه كثافة الأشجار التى ازدادت .

فجأة توقف السائق، انتبه، فإذا هما لا تفصلهما عن السور سوى أمتار قليلة، تتبع بناظريه امتداد السور، فاصلاً مصر عن فلسطين المحتلة . تأمل السور بأسلاكه الشبكية، كشباك العنكبوت، وعلوه الذي قدره بما يزيد على ثلاثة أمتار . ولفت انتباهه، خلف الأسلاك، أشجار متناثرة، رجح أن تكون أكاسيا وسيسبانًا .

كان برج المراقبة قريباً من هنا . لا يدري كيف وصل إلى هنا مع سرية الإشارة، بعد تدمير الحملة فى معسكره قرب العريش، كانت الأوامر أن تتقدم. تشعلق مع زملائه فى عربات «زل» مارة تارة، ومشوا تارة أخرى. طلب جندي البرج ماءً . حملته إليه . رأينا تجمعًا من العربات المدرعة. أسرع جندي المراقبة إلى تليفونه الميداني، وأبلغ عما يراه أمامه فى مستعمرة الدنجور .

رأينا دبابات، يبدو أنها خرجت من مرابض، مختفية بين الأشجار، حمل الهواء إلينا دخانها.

أسرع الجندي يصرخ فى البوق :

- تشكيل من الدبابات في وضع هجوم . الطابور يتجه ناحية الحدود.

نزلت مسرعًا . ضبطت جهازي اللاسلكي، على تردد قيادة اللواء، وشرعت فى إبلاغ إشارة جندي المراقبة . صرخ بى ضابط الإشارة :

- هل هذا عملك .. ؟

أُسقط فى يدي، فاستمر زاعقا :

اترك جهازك الآن، واذهب مع زميلك، لتتبع سلك التليفون ..للكشف عن أعطال.

أحضر زميلي بنسة وشريطًا لاصقًا، ولفةً من السلك، ولم نكد نغادر، حتى لاحقتنا القذائف . هرولنا وانبطحنا أرضًا، ثم نهضنا نبحث عن ملجأ، وفي اللهوجة، اختفى زميلي، لا أدري هل أصيب، أم وجد ملجًأ. كل ما أدريه، حين رفعت رأسى ذات مرة، وقد خف القصف قليلاً، هو تساؤلي فيما يتوجب عليَّ عمله، هل أنضم إلى الزملاء عند البرج، أم أستمر فى تتبع سلك التليفون . لم تطل حيرتي .. وفيما أقترب من البرج، لمحت جندي المراقبة معلقًا من قدمه، وجسده مدلَّى .. نظرت حولي . حجرة منخفضة على طريق فرعى، إلى خروبة . أسرعت إليها، تلاحقني القذائف، وأصوات المجنزرات .

التفت إليَّ السائق :

-استدر .

لماذا لم أتتبع السلك . أليس من الجائز أن عطبًا أصابه، تسبب فى

عدم وصول إشارة جندي المراقبة، وكيف أتتبعه وسط قذائف الدبابات، وطلقات الرصاص، كان عليك العودة إلى موقع البرج . لقد قصف الموقع . ربما كان هناك من ظل حيًّا، وفي حاجة إلى مساعدتك، وربما لقيت ضابط الإشارة، وعلمت منه الموقف . لا .. كان يجب أن أتتبع السلك، وأكشف عليه.

وقف السائق فجأة . ارتجت العربة، وارتج معها، تطلع فى غيظ إليه، فأشار أمامه. بوابة رفح، على بعد أمتار قليلة . طالع السور الممتد بحذائها من الجانبين، وقد علقت بأسلاكه، بعض طيور البلشون، أتراها لم تميز الأسلاك، بسبب سرعتها فى الطيران، أم بسبب إرهاقها، فلم تستطع أن تحيد عنها حين رأتها فى اللحظة الأخيرة ..؟!

كانت رقابها الطويلة، مائلة قليلاً إلى جانب . دون أن يفارقها كبرياؤها. وبانت ألوانها المتناغمة، التى تضاهي ألوان ريش الطاووس، أقل زهوا، ربما بفعل ما أصابها. وربما بفعل دكنة غير مرئية، تشيع فى الجو .

أشار للسائق، باتجاه مبني صغير، وسط الأغوار، بالقرب من البحر.

بينما يلف السائق عجلة القيادة، تعلقت عيناه، بطيور البلشون . استشعر وخزات الأسلاك الشائكة فى أجسادها، وقد تساقطت قطرات من دمها على الزوايا الحديدية المشدودة بينها الأسلاك . ومع ذلك بدت عفية، وخيل إليه أنها من الممكن أن تطير فى أية لحظة .



2

خرج من المبنى، يتبعه سيناويان . مشى باتجاه طريق ضيقة، موازية للبحر. تأمل التلال الرملية المرتفعة والمنخفضة، وقد نمت فى الأغوار بينها، أشجار الموالح . أبصر غورا متسعًا، قصده، وربت بيمينه، على ما يحمله من شتلات خوخ، وقد لفها في جريدة قديمة، حماية لجذورها من أشعة الشمس .

لحظ أن السائق يتبعه . التفت إليه، وأشار إلى المبني قائلا :

- تستطيع الانتظار هناك لو أردت .

نفي بهزة من رأسه . وفي مكان ظليل، جلسوا جميعا . شرع السيناويان يعدان الشاى . طاف بنظره على الأغوار من حوله . طالعته أشجار اليوسفي والمانجو والتفاح والخوخ، تلامس الساحل ،كأنها تغار من النخيل، التى اقتربت بعض أشجارها منه، ولمح على البعد أكوامًا خرسانية، بينها فجوات سوداء، كأنها رؤوس أشباح، ألهبتها سياط الشمس، وتجاهد فى الإفلات من قبضة الأنقاض .

وتذكر كلمة الرئيس السادات، حين أراد الإسرائيليون الاحتفاظ بمستعمرة ياميت، مع أنها تقع داخل حدودنا، فقال «يحرثوها» فنشروا الكلمة فى جرائدهم «يحرقوها» . استقرت عيناه على الغور الخالي من

الشجر، وأخذ يتصاعد ببصره على جوانبه، كأنه يقيس أطوالها . قال أحد السيناويين :

- ستطول المياه الجوفية .

أومأ برأسه ناحية البحر، فاستمر الرجل :

-عذبة

لم يعلق، وتساءل فى نفسه : قريبة من الشاطئ ولا تتأثر بملوحة مياه البحر ..!! ناوله الآخر، كوبًا من الشاي، أمسكه بين راحتيه، لسعته السخونة، وضعه بجانبه، وإذا امرأة في عباءة سوداء، فضفاضة، تخطو نحوهم . ثقلت قدماها، تبسم موزع الشاي وقال :

- أقدمي .. ليسا غريبين .

بان عليها التردد، وهي تستطلعهما، فاستمر الرجل :

- الباشمهندس حمدي ..

توقف وقد تعلقت عيناه به، فأكمل حمدي :

- أبو زيد

ظلت عينا الرجل معلقتين به، فاستدرك :

- آه .. الأخ سعد الدري .. معنا على «الجيب» .

أخذت كوب الشاي من اليد الممدودة، وجلست على استحياء بالقرب منهم . قال موزع الشاى :

- ندا ستساعد فى أرض الخوخ .

تبسم سعد الدري، وهو يتفحصها . تفادت وخز النظرات، مشيرة إلى الغور قائلة:

- الأرض جاهزة..

رجح حمدي بضاضة جسدها، رغم عدم إفصاح العباءة . قال :

- المهم الجذور تعض فى الأرض .

حانت منه التفاتة إلى سعد . وجده يضفر نظراته مع الخطوط الطولية الحمراء، المشغولة على صدرها، وعند الوسط خطوط عرضية مضفرة معها فتلة ذهبية . صعد بنظراته إلى أذنيها الدقيقتين، تدلى منهما قرط فى لون سن الفيل، وتلكأت نظراته نازلة على رقبتها الطويلة، فاستوقفها عقد من نفس اللون والخامة، عاقها عن التلكؤ فوق ما ظهر من نحرها العاجى الأبيض .

طالعته عيناها الواسعتان المتسائلتان، فسقط بصره على يدها الملتفة حول الكوب. لحظ بضاضة عقل الأصابع، فتيقن من ترجيحه، وأكد لنفسه أن العباءة، لن تخدعه عن حقيقتها . رفع رأسه ناحية سعد، فالتقت عيونهما في ومضة خاطفة، أفصحت له عن إدراكه لحقيقتها مثله . نهض حمدي فجأة وقال :

- شربنا الشاي وحمدنا الله .

حمل أحد السيناويين شتلات الخوخ، ووضع الآخر فأسًا على كتفه، وفى أثرهما ندا، بينما مال على بجذعه على شجرة خلفه، يلاحقها ببصره..

خطا حمدي وهو يتساءل .. هل يصح الغرس .. وتنمو الشتلات .. أم يصاب بالخزي ويكون مادة للتندر تلوكها أفواههم . الأفندي المتعلم، القادم من الوادي .. وهناك في محطة التجارب .. سوف تكون خيبته بجلاجل .

كان السؤال الذى يتردد على الألسنة فى محطة التجارب الزراعية . لماذا خوخ سيناء طرى، ملىء بالماء . إذا أمسكت حبةً منه نزعت نصفيها بسهولة عن نواتها، كحبة المشمس الناضجة، ويسمونه «خوخ فرك».أما خوخ الوادي فناشف، متخشب، تنزع لحمه عن نواته، بصعوبة تتعب الأسنان أحيانًا . ولكن رغم هذه الميزة المحببة فى خوخ سيناء، يفسد بسرعة ولا يتحمل النقل، أو الاحتفاظ به فى ثلاجة .

فكر حمدي أن يهجن الخوخ السيناوي مع الخوخ البلدي . يريد أن يحافظ على حلاوة السيناوي مع إكسابه شيئاً من صلابة البلدي ،فيخف ماؤه، ولا يعطب بسرعة. عرض مذكرة بذلك على رئيسه، لتكون موضوع بحثه .

تصفح الرئيس المذكرة بسرعة، وقال متهكمًا :

- بعد أن ينقشع الضباب .. !!

نشعت النكتة التى أومأ إليها رئيسه فى ذهنه .

كان السادات، قد وعد أن هذا العام عام تحرير سيناء من الإسرائيليين، وحين انقضي العام دون أن يفعل، تعلل فى حديث له، أن الضباب غطي قناة السويس فى موعد الهجوم، مما عاق قواتنا عن العمل، وشاعت على الألسنة نكتة تقول : ذهب السادات إلى منزله فسأل أحد أبنائه عن الذي حضر، فأجابه آخر : ضا بابا .

وحمدي ينصرف، حاول رئيسه التخفيف من وقع تهكمه .

- حتى لو وافقتك .. كيف نحضر خوخ سيناء .. ؟!

لم ينبس حمدي، ربما الرجل عنده حق، كيف يحصلون على شجيرات، أو شتلات من سيناء، والجنود الإسرائيليون يدلون بالسنانير

فى مياه قناة السويس، لاصطياد السمك. وقت الظهيرة، يرتدي بعضهم ألبسة الاستحمام، ويقفزون فى الماء، غير عابئين بنا على الضفة الغربية .

وبينما هو فى حيرته، طالعته عناوين الجرائد، قواتنا عبرت قناة السوس، على مستو ي كتيبة.استولت على موقع فى الضفة الشرقية، عدة ساعات، ورفعت العلم المصري . وأحضرت بعض الأسرى.

داخل محطة التجارب فى اليوم التالي . صاح فى زملائه :

- وجدتها .

أراهم مذكرة، يطلب فيها من رئيسه، رفعها لرئاسة الجيش، لكي تحضر القوات العابرة شتلات من الخوخ .

ضجوا ضاحكين وقال أحدهم :

- قابلني .. لو ردّ عليك أحد .

لم يأبه لكلامه، ودخل إلى رئيسه .

- تريد أن تضحك الناس علينا

- يا أفندم ..

- فكر فى بحث آخر .

ظل حمدي ساهمًا، طوال بعد الظهر فى بيته . نفسه عازفة عن الطعام. ألحت عليه شقيقته حمدية، حتى أخبرها . قالت :

- شقيق رئيستي فى الشغل، عبر مرة مع قوات الصاعقة .

- نعم .. !!

وبعد أن استوعب كلامها، قال :

- فكرك .. ؟

- أحاول

ود لو يتملص من مطاوعتها . لا شك تقصد الشاب الذى تحدثت عن زياراته، عرضًا، لرئيستها صفية صبور . اشتم من أحاديثها رائحة إعجاب . ولم يخف نفوره، عندما علم أنه ليس حاصلا على مؤهل عال مثلها .

هل تريد المباكرة، أن تحدثه بما أريد، لتحل مشكلتي، أم لتوثق علاقتي به فأقع فى حرج إذا ما طلب مني يدها .

بينما الأيام تمر وهو فى تساؤلاته، فوجئ بزيارة رئيستها ومعها شقيقها.

- الأستاذ صفوت .

سلم بيد حذرة .. ولم ينتبه للفة ورق جرائد يحملها معه . عندما رأي ما حوته، جرفه الحماس، وسلم ثانية بحرارة، ودَّ، معها لو يحتضنه، وسرعان ما ألجم نفسه.. وجلس غير مصدق .. على أيه حال يشكر، ولكنى لم ألتزم بشيء .

وفي الصباح لم يكد يخطو داخل المحطة، حتى صاح :

- أين أنتم يا أوغاد .. ؟!

تحلقوا جميعا حوله، وذهبوا فى زفة إلى المدير، ما أن رأى شتلات الخوخ، حتى قال :

- يشرع فى التنفيذ فورا

تأمل حمدي الشتلات وقد غرست فى الغور، دعا الله فى سره أن يشتد عودها. سأل:

- هل ما بقى يكفى غور خروبة .

ردت ندا :

- ويزيد

أشار إلى سعد الدري، ليحضر العربة، وقال :

- بنا

فى الطريق إلى غور خروبة، وبالقرب من مدرسة على الطريق، استشعر حمدي، ولا يدري كيف، رهبة شملت كيانه، أشار لسعد بالتمهل.. ثم ما لبث أن طلب منه التوقف أمام المدرسة . فى باحة أمامها، طالعته زهور قرنفلية حمراء، زادتها أشعة الشمس المسكوبة يناعة. رفع السلك العلوي الذى يحد الباحة، وانحني بجذعه إلى الداخل، محاذراً أن يمس السلك، تحت قدمه المرفوعة وهو يعبر .

عدة فصول، هي كل المدرسة، لحظ من طريقة بنائها، وحداثة طلائها، أنها أضيفت لحجرة أقدم، منخفضة قليلا .

لم أكد ألجأ إليها، حتى توافد بعض الزملاء من موقع برج المراقبة تلاحقهم دانات الدبابات، نتوقع انهيار الحجرة فى كل ثانية . خرج أحدنا إلى الباحة، عاجلته شظية فرقد مكانه . هذه الحجرة تقع على رأس باحة خلفها مبنى، أطلقوا عليه مركز الإمداد بالرجال . كانت أول مرة أسمع فيها هذا التعبير، أخبرني ضابط صف، أنه عندما تبدأ المعارك، تفقد الوحدات بعضًا من مقاتليها، فيتم استعواضهم من هذا المركز . وهكذا تظل الوحدة بكامل قوتها طوال الحرب .

وعندما لاح تساؤل فى عيني، أردف، طبعا فيه من كل الأسلحة، مدفعية وإشارة ومشاة .. تبادلت والزملاء، النظرات، وقد اقشعرت أجسادنا . ضابط الصف يتكلم، كأنهم يستعيضون ترابيزة بأخرى، أو كرسيًا بآخر .

بعد تدمير موقعنا القريب، أسرعنا نحتمي بالمركز، وجدنا الدبابات الإسرائيلية قد حاصرته بالقذائف من بعيد .

اقتربت أصوات الجنازير . وقف أحدنا بباب الحجرة، وأخذ يطلق الرصاص من رشاش بورسعيد، فجأة توقف عن إطلاق الرصاص . ظننت عطلا أصاب الرشاش، الذي كثيرا ما كنا نتندر عليه، ونسميه رشاش صيد العصافير، لقلة مداه، وكثرة أعطاله، وسقوط خزانته .

وجدته ينزف، سحبته إلى الداخل . لكزني زميل، فرفعت رأسي . وجدت ثلة من الإسرائيليين فى الطريق إلينا .

خرج بعضنا بالرشاشات . ومن كان تسليحهم بنادق، ساندوهم من الخلف .

انهال على زملائنا رصاص غزير، من مدافع مكنة سريعة الطلقات، فسقطوا فى الباحة، وأخذنا نطلق الرصاص من داخل الحجرة، فى مواجهة الراجلين، حاملى رشاشات عوزى القصيرة .

سرعان ما انسحبوا ونحن لا نصدق عيوننا .. ولم نهنأ لحظات .. حتى انهالت قذائف الدبابات . سقف الحجرة المتدنِّي، وبعض النخيل المنثور، عاقا وصول أى قذيفة مباشرة إلى مكمننا .

لم نكد ننتبه إلى حلول المساء، حتى سمعنا محركات الدبابات تدور . خمنا أنهم في طريقهم إلى السير .

وعندما سمعنا دوران الجنازير، تنفسنا براحة، عزت علينا طوال النهار.

صمت يغلف المدرسة، حيث التلاميذ ومدرسوهم فى إجازة الصيف، سارقًا منه الوقت، وعيناه لا تفارقان الزهور الحمراء . تسلقت إلى سطح الحجرة للتأكد، وجدت طابورًا من المدرعات، والجنود يغدون ويروحون حولها . هالني صغر سنهم، وتورد خدودهم، ولم يهتموا، حتى بوضع

الخوذات فوق رؤوسهم . وفي جانب من الطريق عربة تعيين ضخمة، وبعضهم يلتفون حولها ويتصايحون. وضابط سمين، أو مساعد، لم أفهم ما تعنيه علامتا كتفيه المعدنيتان، تشبهان فرعي شجرة . يهشهم عن العربة، ومجندات يقتربن، أخذن علب «سفن آب» و «بسكويت» وشيكولاتة. كثر صياح الجنود وتزايد عددهم . خلع السمين قايشه، ولوح به مطاردًا، فروا من جهة، وعادوا من جهة أخرى، وهم يتضاحكون ويتصاخبون.

كان طابور مدرع بريطاني، قد اصطف بحذاء قناة السويس، ومدافعه فى اتجاه بورسعيد . تقدمت دبابة ووقفت فى مقدمة أحد الشوارع، التي تصب على القناة . أطلقت عدة قذائف، فتوقفت الحركة فى الشارع كله .

كنا مجموعة من خمسة أفراد، تسللنا من بحيرة المنزلة، إبان حرب 56، فى زي الصيادين وبمعاونتهم، قال قائدنا .. لو أعطبنا واحدة فى أول الطابور، وأخرى فى نهايته لأصابهم الارتباك ونلنا منهم .

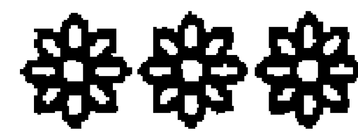
كانت معنا قنابل يدوية، وقنابل «أنارجه» إذا وضعتها بجوار أي جسم تلتصق به . اقترب أحدنا من الدبابة التى أطلقت القذائف، ونجح آخر، مستترًا بالبيوت، حتى اقترب من مؤخرة الطابور، وكمنا بأحد البيوت المطلة على الشارع الموازى للقناة.

خرج بعضهم من الدبابات، وتجمعوا حول أحد محال البقالة فى «الأفرنج». تخاطفوا المثلجات والشيكولاتة والبسكويت. زحف زميلنا بحذاء الرصيف، وتمكن من لصق «أنارجه» بجنزير الدبابة . واستطاع الآخر القفز فوق دبابة المؤخرة وألقى قنبلة يدوية فى فتحة البرج . دوت الانفجارات . تركوا المحل وهرولوا إلى الدبابات، ورصاصنا يلاحقهم،

حتى انضم زميلنا إلينا . أسرعنا نحتمي بحي المناخ، حيث البوص وعشش الصيادين، ومياه بحيرة المنزلة .

ارتد ببطء، إلى الخلف يتأمل المكان . لامس ظهره السلك الشائك يحد الباحة .. آه .. ليتنى تتبعت سلك التليفون الميداني، وهل كانت هناك جدوى.. ؟!

هبت ريح طرية، تمايلت معها أغصان الزهور . لم ينل حفيف الريح من الصمت الذي يغلف المدرسة، وأحس بجلال يملك عليه كيانه، وهو واقف تحفُّ به الزهور الحمراء .



3

خطرت فى عباءتها السوداء، انحنت على شجرة لوز . حين تمكن من تقدير عجيزتها طار لبه، وكأنما لسعتها نظراته، اعتدلت . قامة فارعة، ممشوقة، أبرزت العباءة رغم أنها فضفاضة، حجم ثدييها المتوسطين . شعرها الأسود الغزير، حول رأسها كالحواية . عصبته بمنديل أسود شفاف، تساقط منه ترتر ملون، يهزر مع جبينها عند كل لفتة . لم يطق صبرا:

- ردي يا بنت الحلال .

فرت من أمامه، وانحنت على شجيرات اللوز القصيرة، تجمع ثمراتها الطحينية اللون . فى المساء كعادته، جلس فى مقهاه، فى آخر الشارع الرئيس بالعريش، ناحية السوق، فى ركن بعيد عن دوشة التليفزيون، حيث الرواد ملتفون، يشاهدون أحد المسلسلات الأجنبية . أحضر له العامل البوري، وحجرين عامرين بالمعسل . لوح بمصفاة النار، يميناً ويساراً .

ثبت الحجر فوق فوهة البوري، كبس المعسل، وضع النار، ونفخ .

- شد يا أسطى .

شد الأسطي، فتأججت النار، وسُمعت طقطقتها . نظر إليه بعينيه، ففهم عنه، وصاح :

- قهوة مضبوط، لزوم الأسطى سعد

مع أنه يسمعه كل يوم، لم ينتبه إلى لهجته الممطوطة من قبل، وكل ما يعرفه عنه اسمه، العايدي . وهو يضع صينية القهوة على ترابيزته، أمسكه من ذراعه .

- من أين ..؟!

استمهله لحظات، لبّى طلبا، وعاد إليه .

- دمياط .. عزبة البرج .

لمح التساؤل على وجهه، ما الذى رماك هنا؟! أسرع يلبي بعض النداءات . شد سعد نفسًا عميقًا، اشتعلت معه الجمرات، وأطلق دخانًا أبيض، غزا المكان حوله . عاد إليه :

- كنت أعمل مع أبي على مركب صيد سردين، قل الطمي بعد السد العالي، فهرب السردين. باع أبي المركب سداداً لرهن، وسافر إلى اليونان. دلني أولاد الحلال على بحيرة البردويل. لمح العايدى الدهشة على وجه سعد . نزع الحجر، ووضع آخر مكانه، نفخ فى الجمرات حتى تأججت.

- ما الذي أتى بي إلى المقهي . عملت فى البحيرة فترة .. سمك الدنيس الممتاز، محصوله وفير، وثمنه معقول، ولا تنتظر الطريحة .. فى الحال يتم توزيعها .. حتى جاء الإسرائيليون .

- حضرت 67 .

- استولوا على البحيرة، كأنها ملك لهم من قديم الأزل . ومنعونا من الصيد إلا بتصاريح، وفي أوقات معينة، ومناطق معينة . أحضروا مراكب، وعملوا عبوات من سمك الدنيس .. وطائرات كارتر، تنقلها يومياً إلى مطاعم فرنسا وإيطاليا .

ضحك سعد، وقد أدرك الخلط الذي حدث له . فقد وردت أمريكا لمصر أيام الرئيس كارتر، بعض الباصات، سارت فى شوارع الإسكندرية، وكانت تحدث فرقعات انزعج منها الناس، وكلما رأوا واحداً حذر بعضهم بعضا : انتبهوا باص كارتر .

- تقصد شارتر .

- أنا عارف .. المهم .. لم أستطع العودة إلى دمياط بخيبتي .. فعملت فى هذا المقهى .

تصاعد تصفيق من جوانب المقهى، أسرع العامل .. وسعد يشير إلى البوري.

ليحضر له حجرين . عاد إليه، وقد انشغل أغلب الرواد، بمتابعة المسلسل الأجنبي . جذب سعد نفسًا عميقًا، قضي به على تردده فى مفاتحته، وقال :

- عاشرت السيناوية زمنًا ..

- أمرك .

- واحدة .. يعني ..

- سيناوية

أومأ برأسه، وهو يتغلب على حيائه، بضبط الحجر على فم البوري .

تفحصه العايدي، وقال :

- ناي .

نظر إليه متعجبا، بينما أسرع يلبي طلبا، وهو يقول :

- ثوان

طلعت علينا الشمس ونحن نتحرك باتجاه القناة .. إذا انحرفنا إلى جانب لا نرى السفن . إذا سرنا فى خط مستقيم برزت السفن، وكأنها تسير فى الرمال. فلم تكن المياه، تبين للسائرين من التباب الرملية . ضحك أحدنا معلقًا، وقد خيل إليه أنه سمع صوت ناي .

- السفن تظهر على نغمات الناي

قال آخر :

- ثعابين يعني

استرحنا قليلا فى حماية التباب الرملية، نمنا نومًا متقطعا على فترات،

ليلة العاشر من رمضان . تحركنا بعد الإفطار بساعة تقريباً . عند الكيلو عشرة، أحسسنا فى الجو شيئًا . لكن .. لم يتوقع أحد أن تقوم الحرب . ظننا الأمر لن يعدو إحدي العمليات. نعبر لعمل كمين ثم نعود . كعادتنا قبل كل عملية، تصافينا . تركنا عناوين بيوتنا مع جندي فى المؤخرة، وأكدنا عليه :

- إذا لم يعد أحدنا أبْلغْ أهله .

كنت سأقبض جمعية على العيد . تركت القسط مع الجندي، وكان يتولى الجمعية. قلت له :

- إذا مت لا تكون مدينا لى بشيء .. وإذا رجعت سلمني المبلغ .

نشعت عيناه بدمع خفيف، وعقب وقد هرب صوته :

- فأل الله ولا فألك .

انتابتنا حمى صرف ما بقي معنا من نقود . بعد قليل لن تصبح لها قيمة.

وتساوينا، من كان معه، مثل الذي لم يكن معه . هفت نفسى لبلح رطب .

- ما رأيكم يا أولاد؟

- موافقون .

لبس كل منا سترة الحرب الواسعة، ذات الجيوب الكثيرة، لوضع القنابل والرصاص والسلاح والألغام .

فى الصباح مر علينا قائد القطاع، وكان يركب عربة التعيين المحملة بالطعام، حتى لا يشك أحد فى شيء .

وكانت التعليمات ألا يظهر فى موقع المشاة، أكثر من العدد العادي، وأن يمارس المشاة حياتهم اليومية المعتادة، حتى لا يلحظ الإسرائيليون شيئًا .

فى الحادية عشرة، علمنا أن الطائرات ستعبر فى الثانية إلا خمس دقائق. بعدها ستقوم المدفعية بثلاث قصفات حتى الثانية وعشرين دقيقة . بعد ذلك نعبر . خلعنا سترات الحرب، ولبسنا سترات المياه، الفضفاضة، جيوبها محشوة بالفلين . لمحنا القوارب المطاطية مموهة، وشددوا علينا بمنع ظهورها قبل الساعة الثانية . قبل الموعد بساعة، اقترح زميل لنا أن نفتحها، وتساءل .. ماذا يكون الحل إذا فتحناها وقت الضرب، ووجدنا أحدها مخرومًا، وبالفعل وجدنا واحداً مخرومًا . استبعدناه، وأمرنى القائد، بإعداد قارب احتياطي كان معنا .

تطلع ناحية النصبة، وبه شوق لسماع باقي كلامه . وتعجب لتأخره، خاصة، وقد غرق الجميع تماما فى مشاهدة المسلسل .

وتساءل : هل سيكون له حظ مع ندا .. وهل من الأوفق إخبارها أنه اقترب من الأربعين أي فى مفترق طرق، أم أن هذا بدلا أن يقرب بينهما، يصدها عنه .

أخبرنا القائد بواجبنا القتالي : سنعبر القناة بسريتين من الصاعقة، نمر بجوار نقطة إسرائيلية فى الكيلو عشرة ونتفاداها نسير مسافة تسعة كيلو مترات، حيث سنجد مفترقًا للطرق، يؤدي إلى الموقع الإسرائيلي خلفنا .

علمنا من الاستطلاع، أن لهم خمس دبابات وثماني عربات مجنزرة فى الاحتياطي، تهب لنجدة هذا الموقع، إذا تعرض للخطر،واجبنا احتلال مفترق الطرق، وتدمير هذه الدبابات . هذا المفترق يؤدي إلى الكيلو التاسع عشر، ونقطة التينة والكيلو عشرة . وهذه الطرق مدقات عملتها إسرائيل بعد عام 1971 .

أومأ العايدي برأسه أنه حاضر .. هل سيفيد كلامه حقًا .. أم أنه يضيع وقته؟ هو جالس على أية حال . ولاحت له ندا بوجهها الصبوح، كلما

رآها، أحس برجفة، وأن الهواء الذي يتنسمه فى وجودها، يجعله خفيفا، قادراً على الطيران .

ما أن عبرنا، حتى أحسست بالهواء الداخل إلى صدري، يجعلني فى خفة الريشة، لم يستمر هذا معي طويلا .

لمحت قنبلة مضادة للدبابات، ملقاة بالقرب من القناة . تلفت حولي، لم أجد من انتبه لي أو لها . تجاوزتها وأنا فى عجب من هذا الجندي منعدم الضمير . تجاوزنا المكان . وقفت متردداً، وزملائى ينظرون إليَّ غير فاهمين . عدت مسرعا، التقطتها ووضعتها فى حزامي . أم تري زواجى من ندا، يغرزني هنا، ويجعل من الصعوبة الرحيل لو أردت العمل فى مكان آخر .

سرنا عدة كيلو مترات، غرزنا فى منطقة طينية .

ظللنا نعافر فى طينة صفراء، مشبعة بالماء، وصلت حتى صدورنا . لم نكد نستقبل الطريق، حتى رأينا الدبابات الخمسة . وزعنا أنفسا بحيث نحتضن الطريق.

أطلقنا مدافع ال– آر – ب – ج . دمرنا أربع دبابات . أصيبت الخامسة فى قطاعي فى الجنزير . رشقنا مدفعها نصف البوصة بالرصاص . احتمينا فى جانب من الطريق. انهالت علينا قذائف مدفع البرج . درجة ميل المدفع فوق الدبابة، جعلت القذائف تحيد عنا . حاولنا إعطاب جنزيرها تماما . استدارت الدبابة للخلف، لكن مدفعيها موجهان ناحية مجموعتي . مات أحدنا وجرح آخر.

زحفت لأحاول نسفها عن قرب. هممت باعتلائها وقد جهزت فى يدي قنبلة يدوية، فوجئت بمن يطل من فتحة البرج. ألقيت القنبلة وقفزت بعيدا، انبطحت، وطلقات الرصاص تلاحقني، لا أدري من أين. أحسست بتمزق فى وسطي من الخلف، وشلت إحدي يدي. أطل الإسرائيلي

برأسه، ألقيت عليه قنبله بيدي السليمة، يبدو أنها أخطأته، أحسست بعجزي تماما عن الحركة . كلما أطل ألقي عليه أحد الزملاء قنبلة يدوية . وفي كل مرة يختفي داخل الدبابة، التى بدا أنها عاجزة عن الحركة .

تذكرت القنبلة فى حزامي، الآن وأنا أجلس هادئًا أتساءل : هل كان الجندي معدوم الضمير، أم أنها سقطت منه فى اللهوجة ولم يتمكن أثناء الزحف من التقاطها . ناولتها لزميلي الذي زحف إليّ. أخبرته أني سأشغلهم من الأمام، وعليه أن يقفز على الدبابة من الخلف ويلقيها من فتحة البرج، وهو على وشك القفز، سقط تسيح منه الدماء، لكن القنبلة أصابت الجنزير من ناحيته، ناداني أحد الزملاء، فى اللاسلكى، شرحت له الموقف، تقدم، وتمكن من القفز على الدبابة، جاءني صوته يصيح من عزم ما به، وهو يلوح بقنبلة فى يده :

- سلموا يا أولاد الكلب .

خرج إسرائيليان، وقد وضعا أيديهما فوق رأسيهما، لم يكد يخطو بهما عدة خطوات، حتى زمجرت طائرات إسرائيلية فوقنا، حاولا الفرار، عاجلهما الزملاء بطلقات الرصاص، فخرا على الأرض . لففت رباط الميدان حول جرحي، بمساعدة أحد الزملاء، لوقف النزيف . حملني زميلان إلى المؤخرة .

نادي أحدهما على الزملاء فى الضفة الغربية، حتى لا يطلقوا علينا النار . فالتعليمات المبلغة لنا ونحن نركب القوارب : لا رجوع للوراء على الإطلاق. ومهما حدث فسوف نركب القوارب . إذا انفجر لغم فى أحدنا . ولو اضطررنا سندوسه، لكي يستمر العبور . لو طال الرصاص أحدنا فى القارب، سنتركه ونعبر .. لا رجوع للوراء مهما حدث.

تركاني على الأرض . أتحسس بيدي السليمة، خلف جنبي الأيسر، بعد أن تيقنت من مكان الجرح، أخذت أقدر حجم الإصابة، فتعثرت

أصابعي في دم متخثر، أخذت أتخلص منه، بفرك يدي بحبات الرمال .

غادر المقهي، وقد حط الليل .. هل يأخذ بنصيحة العايدي بشأن الناي. وإذا لم يفلح هل ستكون فضيحة بجلاجل .

طافت البقرة فى شوارع الحي، قبل ذبحها، وقد، زينوها بأزهار حمراء فى جانبى رأسها، ووضعوا حول رقبتها عقداً من الفل، تتدلى منه أجراس صغيرة، ومشي صبيان المعلم بطبول فى أيديهم . وأحدهم يصيح على قرع الطبول :

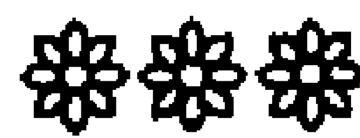
- بكم يا أولاد ..

فيرد الأولاد، الذين تجمعوا على الزيطة :

- بعشرة قروش

وغلب على ظنه أن ما رآه منقوشًا على حجارة معبد فرعوني قريب من بلدته، هو نفس الزفة، أبدى ملاحظته لمعلمه فى التأهيل المهني، حيث كان يدرس ميكانيكا السيارات، فأخبره أن ما رآه ليس زفة .. لكنهم كانوا يقدسونها . وإزاء دهشته، قال المعلم :

- ألا تقرأ الجرائد .. منذ أيام نشروا أن بقرة كانت تمر فى وسط عاصمة الهند نيودلهي، وتعطل المرور، ولم يجرؤ أحد على سحبها، حتى تعطفت، وتحركت بجلالة قدرها .



4

واربت حمدية باب الشرفة، وتطلعت إلى الأفق . سحاب رقيق أبيض، يفصح عن مساحات زرقاء حينًا بعد حين، سرعان ما تخللته أشعة شمس واهنة فأخذ يشف ويرق، سابحًا ببطء، تعلوه زرقة لبنية . وبان سموق برج كنيسة مارجرجس، وبدت في موازاتها، غير بعيدة عنها، مئذنة جامع السنيين، مع أنها خلفها بشارع عريض .

تلاشت أصداء جرس الكنيسة، وهو ما جعلها تنهض مبكرة، وهي تتساءل.. ياساتر .. ليس اليوم يوم الأحد .. فلماذا دق الجرس . هل مات أحد.. وهل يفعلها أحد في هذا الجو البارد ؟!

جاءتها أصوات عربات أجرة مبكرة، من شارع سندوب، الذي ترى جزءًا منه، من فوق البيوت غير العالية، هل تستقل عربة، وتقف بعد كوبري سندوب، على الطريق الزراعية، وتستلقط عربة متجهة إلى الشرقية . وربما صادفها الحظ، ولحقت بباص العريش . المحادثة مع حمدي تليفونياً لم تعد تجدي . لابد من مواجهته، ليفهم أنني لست متعلقة بصديقه الرائد عبد السلام، ولن أستبدله بـ «صفوت» .

حانت منها التفاتة إلى البرج . بدا لها أن الجرس يترنح في هوادة، مستهلكا ما بقي من حركته، ورجحت أن يكون الدق إعلانًا عن عيد أحد القديسين. كثيرًا مالعبت في الباحة أمام الكنيسة، بين الأشجار، يحدها سور كانت بجواره طريق ترابية في جانب منها، عند اقترابها من الشارع المسفلت مقام شيخ، خلفه مقابر المسلمين . الآن نقلوا المقابر في آخر شارع سندوب، وتوارت قبة المقام، حيث نهض جامع كبير لجماعة

السنين . وعجبت من أم [illegible] مدي، هل هو حقًا شقيقها الذى تعرفه . ولماذا لا [illegible] لها [illegible] سكر، وهو يحكي لها عن مساعدته له فى مشروعه، أنها قدرته، وعندما التقته، أعجبتها شخصيته . لكن هذا شيء، وذلك شيء. عزمه حمدي، بعد حرب 73، وأخذا يستعيدان ذكرياتهما، كأنهما يمحوان الأيام التى فصلت بينهما . أوصاها أخوها بإعداد كعكة بالبرتقال التى تجيدها، وكانت تضحك بينها وبين نفسها من حماس أخيها، كأنه أحد المشاركين فى العبور، مع أنه بقي فى الخلف، بل واضطر إلى التقهقر حين حدثت «الثغرة».

قال أخوها:

-كان القائد موفقًا، حين عبر بقواته من موقع فيه أكثر من خمس مئة حفرة، أحدثتها الدانات الإسرائيلية، زنة ألف رطل، ردًّا على إحدى عمليات العبور، قبل الحرب، ورغم صعوبة تحرك الأفراد والمعدات والمركبات بين الحفر، أصر القائد، فالإسرائيليون لن يتوقعوا العبور من هذه المكان بالذات . وهكذا عبرت قوات الفرقة الثامنة عشرة دون خسائر تقريبًا .

- لا تنس، موقعنا فى أرض زراعية منخفضة، وموقع العدو مرتفع فوق منصات رملية، تطولنا نيرانه بسهولة، وحصونه في هذه الجهة من أقوى تحصيناته .

كادت تفلت منها ضحكة مدوية، وهى تغلق باب الفرن، للهجة التى يتكلم بها، وكأنه القائد الذي فتح القنطرة غرب .

- هاجم القائد المصري معظم التحصينات من الأمام، والتحصينات البعيدة من الخلف والأجناب، وبنى خطته، كما لا حظت، على مواجهة سريعة جدا، بكل القوة الضاربة دفعة واحدة، مع محاصرة المدينة بنفس السرعة، وباندفاع بقوته الرئيسية.

قاطعه أخوها :

- بالتأكيد كان مشكل القائد المدنيين فى القنطرة .

- بالضبط ..

قالها ممطوطة، ثم وهو يضحك :

- كما كان مشكلي تأمين مزرعتك .

وانفجرا ضاحكين .

- وهذا صعب من مهمته، كيف يقتحم المدينة، دون أن يمس سكانها بسوء، وكان أمامه كما تعلم سبعة حصون من خط بارليف، ومسافة المواجهة حوالي أربعين كيلو مترًا، ركز قواته وهجومه على حوالي عشرين كيلو مترا، أمام الحصون الأربعة الرئيسية، واقتصر بضرب النيران على النقاط المتطرفة شمالاً وجنوباً .

بدا لحمدية أن نضج الكعكة سيتأخر، فأجلت صنع الشاي، واعتزمت أن تقدم لهما القهوة أولاً . دخلت بالصينية، لحظت صديقه منفعلاً، وقد اشتعلت عيناه ببريق، كأنه يرى ما يتكلم عنه.

- هاجم النقطة الأولي والرابعة، وأحاطهما بدرع من قواته خلفهما، حتى يكون فى وضع يتصدى فيه لاحتياطات العدو .

وجدت نفسها تهتف :

- شاطر .

- وجعل لدعمه، أعماقًا متتالية، يصعب اختراقها .

أومأت لأخيها، ليقدم القهوة . لكنه كان مشغولاً عنها، فأمسكت الطبق بيد، وسندت بالأخرى الفنجان فوقه، وناولت الضيف . حدق فى عينيها برهة، ولا تدري لماذا أحست برعشة .

- تم احتلال النقطة الأولى والنقطة الرابعة، بعد خمس وعشرين دقيقة بالضبط، من العبور بالمشاة والأسلحة الخفيفة . ورفعت الأعلام المصرية .

انطلق أخوها، وقد تألقت عيناه :
- هذا هو الكلام .
- وبدأ حصار القنطرة بعد خمس وثلاثين دقيقة بالضبط .
تطلعت إليه، وقد عجبت من دقته فى تذكر ما تم بالدقيقة . تفهم نظرتها، وعقب:
- لأن بعدها بخمس وعشرين دقيقة، يحين دوري فى العبور، وبعد أن كنت مع وحدتى مقدمة لقواتنا بالقرب من القناة، سأكون نظراً لمعرفتى الجيدة بالمنطقة، مؤخرة لقواتنا العابرة لتأمين عودة الجرحى، وتأمين عبور المهمات والإمدادات، والتفت إلى أخيها، بينما يحدق فى عينيها :
- وتأمين المزرعة .
أفلتت منها ضحكة خافتة، جاوبها بابتسامة، ووجدت نفسها مشدودة، ولا تريد أن تطاوعها خشية احتراق الكعكة .
-هاجم النقطة الثانية واحتلها، وفي الثامنة من مساء نفس اليوم، السادس من أكتوبر بعد مقاومة شديدة، امتد الحصار من منطقة الشمال، وكان الجانب الأيسر منطقة الحرش .
تناول فنجانه، ورشف رشفات سريعة، قدرت معها أن القهوة بردت، انتبه أخوها فتناول فنجانه، بينما سرحت عيناه إلى بعيد، فخمنت أنه لاشك، يستكمل ما نقص من الصورة، التى رآها، ولم يكن يستطيع أن يلم بكل أبعادها، من موقعه فى الخلف، وجاءهما صوته، بطيئا، متهدجاً :
- بدأ الهجوم الإسرائيلى فى الثالثة إلا ربعًا، واستمرت الهجمات المضادة، حتى الغروب فى السادسة مساء تقريبًا .
هاجم العدو من اليمين واليسار والمنتصف لفك الحصار، وركز ضربة شديدة فى السادسة إلا ربعًا على الجانب الأيمن، واخترق الحصار بالفعل .

وضع الطبق بيد متوترة، والفنجان يهتز فوقه . نهضت مسرعة وقد خيل إليها أنها شمت رائحة شياط، وصوته يلاحقها :

تراجعت القوة المصرية، حوالى ثلاثة كيلو مترات، نظم القائد دفاعاته بسرعة، وعلى أعماق متتالية، حتى إذا اخترق العدو، وقع فى مصيدة نيران فى مساحة عمليات تقرب من ثمانية كيلو مترات .

استمرت المعارك طوال الليل ، عطل الاختراق قدرتنا على عبور الدبابات، وركز العدو على ضرب المعديات، فكان عدد محدود من الدبابات يعبر كل ساعة تقريبًا.

أحست بصهد حارق وهي تفتح باب الفرن، وكادت تنسى وتمد يدها دون بطانة لتسحب الصينية .

– لم يفلح الاختراق من الجانب الأيمن، لكن الإسرائيليين استعادوا حصن شمال البلاح، ثم استعدناه، واستمر الموقع مناصفة بيننا طوال الليل. وفي السادسة من صباح اليوم التالي، هجمة مصرية مضادة، واستعادت قواتنا الموقع تمامًا، وتقدمت ثلاثة كيلو مترات بعد أن دمرت ما يقرب من أربعين دبابة، وهرب بعض الناجين بأربع دبابات، لكن القذائف لحقت بها، وفجرتها . لم نكد نهنأ، حتى وجهوا ضربة للجانب الأيمن لقواتنا من اتجاه حوض «أبو سمادة» جنوب رمانة.

– آى ..

نهض حمدى مسرعاً . وقف بباب المطبخ . بنظرة سريعة أدرك ما حدث . انفلتت منها البطانة، فلسعتها صينية الكعكة . عاد بهدوء وأومأ له برأسه أن يستمر.

– وعند الظهر تمكن العدو من اختراق جزء من مواقعنا، لكن الدبابات

التي عبرت طوال الليل أمكنها استعادة الموقف، حتى صباح اليوم التالي، ولم أكن نمت بالمعنى.

قال حمدي :

- ولا أنا

وقال فى صوت يجاهد في الوصول :

- ولا نحن

وجاءتها ضحكاتهما . وقد فهمت ما تبطنه، ففرق بين نوم ونوم .

- وجه الإسرائيليون ضربة فى خطين . وحذر قائد الجيش الثاني قائد القنطرة: لواء مدرع إسرائيلى يتقدم إليك مع أول ضوء . رجونا أن يكون الاستطلاع قد تمكن حقا من معرفة نوايا العدو . على أية حال انتظرناه عند نقطة معينة، بحيث نفاجئه بقصفة نيران مركزة. وطلب منى القائد أن أكون مع جنودي بالقرب من القناة، متوقعًا ترحيل جرحي كثيرين، وأن أكون مستعدًّا بنقطة إسعاف سريعة . واختار القائد موقع قيادته فى مكان مرتفع يطل منه على الجبهة . ويستطيع أن يراقب الموقف، ويقدر المسافات .

دخلت حمدية، وهي تؤكد، أن الشاى والكعك، في طريقه إليهما حالاً، بينما كان يؤكد لأخيها :

- آه .. المعركة الناجحة تقدير مسافات مع تقدير موقف .

افتر فمه عن ابتسامة، وركز عينيه على وجهها، كأنه يخصها بها، وقال:

- فوجئ اللواء المدرع بالقصف الشديد فارتبك . ظهرت الطائرات المصرية، وأعتقد تم تدمير ثلثي المدرعات، وكنت من موقعي على حافة القناة، أري الطيار المصري، يدور ثلاث مرات، كأنما يتأكد من مواقعهم، ويقصف، ويقصف. علق أخوها :

- طبعا طائراتهم لم تشترك بفاعلية فى هذه المعركة للخسائر العالية فى بداية الهجوم.

أومأ برأسه وهو يقول :

- بالتأكيد . فشل الهجوم على الجانب الأيمن، ولكن العدو ما زال يهاجم الجانب الأيسر ونجح فى تحقيق اختراق جزئى .

رفع ناظريه إليها واستمر :

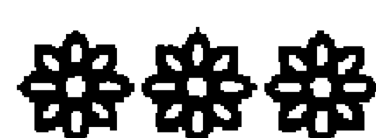
- وحياتك .. ماهى إلا خمس وأربعون دقيقة، حتى طهرنا هذا الاختراق .

تنهد، كأنه عائد من مشوار، وأخذ راحته فى الجلسة، وشملهما بعينيه، وعاد صوته هادئًا رزينًا :

- بعدها، يئس العدو من استعادة القنطرة، وفي مساء الثامن من أكتوبر، كان جنودنا يسيرون بين الأهالى فى الشوارع، يتبادلون الأحضان، وقد اطمأنوا إلى سلامة الناس .

أسرعت إلى المطبخ، أخرجت الصينية . تأملت وجه الكعكة المضيء، وتمتمت:

- صنعة يدي وحياة عينى .



5

اضطجع صفوت بظهره على كرسي الشاطئ، ومدد رجليه . أحس بعدم راحة. نهض ونزع عارضة الكرسي الخلفية، من تعشيقتها فى قائمي ظهر الكرسي، ووضعها فى تعشيقتين أخريين إلى أسفل . وجرب الاضطجاع . استراح ظهره مع تقوس قماش الكرسى ذي الخطوط الطولية العريضة، زرقاء وحمراء . مدد رجليه فى استرخاء، وتطلع إلى مياه بحيرة التمساح الوادعة، الممتدة، عن يمين وشمال، وفي الأمام، تمسح صفحاتها موجات، كقطيطات، لطيفة، مداعبة . وتساءل : هل ستأتي حمدية ..؟!

على البعد، زورق منساب من طرفيه، يشبه انسياب خرطة المحوجة من طرفيها. وعكس لونه الأبيض، شمس الضحي، فرأى من خلال زغللة عينيه، فتى وفتاة، والزورق ينزلق فى خفة، فهو بالكاد، شريحة من الخشب، لا بطن تذكر لها. وضحك في نفسه، حين تخيل منظره، وهو يسقط من القارب المطاطي، فوق بحيرة قارون. كانت الشدة تعوقه، لكن لابد من التدريب على العبور بها، وإلا بماذا سيلاقى العدو . كان يحمل حزامين، واحد به زمزميتان وقنبلتان يدويتان دفاعيتان، وأخريان هجوميتان، الدفاعية مقسمة إلى مربعات، تتحول إلى شظايا، كأنها طلقات الرصاص. والأخرى ملساء، ويمكن للمرء أن يلقيها وهو يجري، أو من خلف ساتر. وكان معه كوريك ، وأزميل لزوم جماعته.

قالت حمدية :

- ليتنى كنت معك .

أغرق فى الضحك، ولم يستطع أن يتصورها، تحمل حقيبة المهمات، بقامتها المتوسطة، تميل إلى القصر، مع استعداد للسمنة . وهذا عيبها، كما يرى. فإذا تزوجت وجاءت لوازم الزواج من حمل وخلافه، هل تبعجر .. ؟! .

كانت الحقيبة محملة بالذخيرة . قذائف مدفع آر - ب - ج . وهذا المدفع

أسطوانتان، تركب الواحدة فى الأخرى، وتوضعان على ما يشبه مجرى، ويوجد تتك لإطلاق المقذوف . وفى الحقيبة ذخيرة رشاش خفيف، وطلقات بندقية آلية، وطلقات لمسدس يعلقه فى أحد جانبيه . هل كان جذعها البسيط، بثدييها الرهيفين، يتحمل هذا الثقل . أم كانت تضعها فوق عجيزتها وتسندها إلى ظهرها بيديها، وأين عجيزتها ..؟! ..

كانت المصالح الحكومية، وطلبة الجامعات والمدارس، يقومون برحلات لمشاهدة خط بارليف، بعد الحرب .

انتدبته وحدته ليرافق بعض الرحلات، التى تزور قطاع السويس، لخبرته في هذه المنطقة . وعندما أخبرته شقيقته، أن مصلحتها، في طريقها للزيارة، استأذن قائده، ليكون فى رفقتهم، مع أنها لم تكن ورديته . فصفية قالت للزملاء والزميلات: إنه سيكون معهم، وتوقعوا أن يأخذوا راحتهم فى التجول والمشاهدة .

أخذهم إلى موقع أبي جاموس . هذا المدفع الضخم، الذي كان يقذف حممه على مدينة السويس .

تحلقوا حول المدفع وتطلعوا إلى ماسورته .. ونقلوا أنظارهم إلى صفوت .. فى ضعف قامته الطويلة .. وهو الذي من فرط إحساسه بها، قد انحنت رأسه قليلا إلى الأمام، وبانت رقبته منحنية بين كتفيه البارزتين. وقاعدة المدفع ضخمة تتحرك على عجلات .

- كيف لم يستطيعوا اصطياده .. ؟!

أشار صفوت إلى باب ضخم من الفولاذ، انبعجت إحدى ضلفتيه، من قذيفة مباشرة على ما يبدو . ووجه نظرهم إلى أسفل حيث مجرى حديدي، يسمح بحركة الباب، يمينا وشمالا، وقال :

- حين يطلق المدفع، وقذيفته ضخمة، تشع نارا، من السهل أن نلمحها على بعد عدة كيلو مترات، ونحدد موقعه، وندمره . لكن الذى كان يحدث أنه فور الإطلاق، تنغلق ضلفتا الفولاذ ذاتيا بالكهرباء فلا يلمح أحد وهج القذيفة، ونفس الأسلوب تقريبًا اتبعوه معنا فى حرب الاستنزاف .

علقت حمدية :

- بوابات أيضا .

أمسك، وقد أخذته القفشة، وخفة الدم، والعفوية فى الكلام، ضحكوا جميعًا.

كشفت الملاحظة عدة مصاطب ترابية، على ارتفاعات مختلفة، مختفية خلف المصطبة الترابية العالية، المواجهة لنا على شط القناة . تطلق الدبابة، وسرعان ماتهرب على منحدر إلى المستوي الأقل ارتفاعاً، وتختفي عن أعيننا .

أشار لهم بيده، ليشاهدوا الأجزاء الأخرى من الحصن . كاد يخبط فى حمدية، وقد انثنت، تتفحص مجري الباب الفولاذي، كأنما تتأكد من كيفية غلقه بسرعة البرق، وقد التوت فوقها ماسورة المدفع الضخمة، طالعته مؤخرتها، قال: «ياما هنا ياما هناك» وعندما رآها معتدلة، حدث نفسه ضاحكًا : خُدعت ،أم خدعنى الفستان المحبوك.

صعد بنظره إلى أعلى.. شعرها قصير، خفيف، ملتف فى أنصاف دوائر للخارج، حول رقبتها القمحية، وقد تسرب نمل من الزغب، من طوق فستانها. رفعت ناظريها إلى ماسورة المدفع الضخمة، المعوجة، التفتت إليه فجأة، فلاقى عينيها الدهشتين.

قالت أو بالأجرى، دارت ارتباكاً خفيفاً، وهي فى مشروع ضحك :

- أبو جاموس ..!

أسرع صفوت يمسك إحدى يديها، حيث كادت تتعثر فى الرمال غير المستوية والحجارة، وهي لا تمكنه منها، وقد علا وجهها عبوس خفيف، لم يحدث أثره، لإطلالة خفة الدم من عينيها العسليتين الصغيرتين .

قال :

- هذا المدفع، كاد يصيب أهل السويس بالجنون، كان يطلق قذائفه طوال حرب الاستنزاف قبل حرب 73 فتسقط فوق البيوت، وفى الشوارع، لذلك أسموه أبا جاموس.

قالت ضاحكة من حنجرة حشوها ملبن :

- أبو جاموس فعلا .

وهي تعبر، مجرى بوابة المدفع، تركت له يدها، وقد أخذه صوتها، المبطن بحنان مستتر، لا يدري من أين ظهرت صفية . أخذت يدها من يده وقالت :

- أبو جاموس .. ولا أبو جلامبو .. !

سرح ببصره فوق الماء، آخذاً فى عمق شهيقًا أنعشه .

ينظرون حولهم، فلا يجدون غير الماء . عبروا خليج السويس . لحظ قائد الطائرة صمتهم . فتح باب قمرة القيادة، وقال :

- لماذا الوجوم .. قواتنا التى اقتحمت القناة، حققت انتصارات كثيرة .

زال عنهم الخوف، بعض الشيء، لكن لم يتبادلوا أي كلام.

خلال الباب المفتوح رأوا الملاح الذي يساعده . تقدم فني الطائرة عدة خطوات، كانوا قبل آخر ضوء من يوم السادس من أكتوبر، وقال :

- هيا يا رجال

وفتح بابا فى مؤخرة الطائرة . وقف الرقيب مترددا . صاح الفني:

- هيا يا رجل .. هل تخاف .. ؟!

قفز الرقيب، وكان صفوت التالي له، لتأمين مكان الإنزال .

سمع حفيفًا، تلفت . وجد فتى وفتاة يتقافزان، وبينهما لوح خشبي أبيض، مطوى الشراع . تنهد .. قالت حمدية بصوت مندى بالأنوثة :

- لو كنت في الطائرة .. ؟!

غاص فى عينيها، عميقتي الغور . هل هذا الغور هو الذي أغرقه فى بحورها . أم هى النظرة الدهشة التى طالعها فى عينيها ،عندما أخبرها، أنه قبل أن يقفز من الطائرة سمعوا جميعاً صدمة فى طائرة على يمينهم، لكنها كانت دهشة معززة بالإشفاق. كانت الطائرة فوق الخليج، وسرعان ما اختفت عن أعينهم، ولمحوا فى الأفق طائرتين إسرائيليتين . أغلب الظن من طراز مستير 17 . أغلق الفنى باب الطائرة . اقتربت إحداهما وأطلقت قذيفة، تفاداها الطيار بالانحراف قليلا، ثم ارتفع بسرعة، فلم تصبنا طلقات الفيكرز، التى أطلقتها الطائرة الأخرى.

امتلأنا ثقة بقائد الطائرة، وشعرنا أننا فى مأمن معه . كدنا نتخطى مكان الإنزال بالقرب من جبال سدر متوسطة الارتفاع، أعلى قمة فيها فى ارتفاع عمارة من أربعة أو خمسة طوابق . توقفت الطائرتان عن ملاحقتنا، طرنا إلى نقطة التجمع، وبينما عجلات الطائرة تلامس الأرض، فوجئنا بخمس طائرات تطلق القذائف، وتصيب بالفيكرز الأفراد الذين قفزوا .

قالت حمدية فى جزع :

- كنت قفزت .

- لا .. سبقتنا عدة طائرات، كنا كتيبة صاعقة من أربعمائة فرد، وكل ثمانية فى طائرة هليكوبتر .

استردت أنفاسها .. تسير بخطوات وئيدة . فصل الزحام بينهما . تلفتت حولها وقد انعقد جبينها، اقتربت منها إحدى الزميلات :

- مال القمر ماله ..

رفعت حاجبيها الرفيعين، وعلقت :
- بلاهِمّ
ضحكت زميلتها، وقالت فى دلال:
- اتركيه لى
عقصت مابين حاجبيها وعاجلتها :
- «اتلمِّى» يا بنت
أوصلتهم أقدامهم، وقد تعبوا من التجوال في الحصن وما حوله، إلى كشك قريب فى وسط الصحراء . وجدت صفوت فى انتظارها وقد أمسك فى يده زجاجة مياه غازية، وإلى جواره على حافة الكشك علبتان من البسكويت، تطلعت بامتنان إلى عينيه السوداوين، جفناهما العلويان منتفخان قليلا، في وجهه المدبب الذقن، والذي يشبه وجه تحتمُس الثالث، كما يقول شقيقها حمدي . ويعطي سواد عينيه مع شعره القصير الغزير، الأسود، المتدرج فى الانخفاض من الجبهة حتى الخلف .. إحساساً بالألفة لمن يراه . تناولت الزجاجة باسمة :
- جاءت فى وقتها .
تناول زجاجة أخرى من فتحة في الكشك، يقف فيها جندي، يلبي طلبات من تكاثروا عليه . نضحت حبات من العرق على شفتها العليا، جففتها بمنديل ورقي وقالت :
- وعدتني بالغداء عند عيون موسي .
سمعها جندي المقصف، وقال :
- لا تذهبا .. فالإسرائيليون ليسوا بعيدين .
أحس صفوت بقلقها، وهي تتململ فى وقفتها، طمأنها بصوته الخفيض المتأني، وقد حدبت عليها قامته النحيفة .
أتراها، أخفقت فى الحضور .. ؟! لا يدري لماذا وافقها على الذهاب إلى شقتهم في «عرايشية مصر».

حقا، الشارع واسع، لكن منظر البيوت على جانبيه، بألوانها الكالحة، يشبه منظر المساكن الشعبية، فى مداخل المدن، يوحي بالفقر، ولا يخلو الأمر من امرأة تفترش مدخل سلم بيت تنقي أرزا، أو أخري تبيع حلوي رخيصة، وأطفال فى حال لا يسر، يصخبون حولها، أو بالقرب منها.

هل استخف حمدي بحجتها، عرض بعض الأوراق على رئيستها المريضة، ومنعها، وقد استشف أنها تسعى للقائى، أو أن هذا سيحدث لا محالة .

لو علمت ما بي .. لركبت طائرة .

كانت الطائرة لا تقف تمامًا. ما أن تمس عجلاتها الأرض، أو تقترب منها، حتى يسارع بعضهم إلى القفز، وتحلق الطائرة ثانية وتعود، سقطت عدة طائرات على الأرض، كأنما رشقها عملاق بقوة . علموا أن قائد التشكيل مات . كان مصابًا بانزلاق غضروفي، وممنوع من القيادة الميدانية، لكنه أصر على الاشتراك .

وحين حطت الطائرة بقوة، تأثر عموده الفقري، حيث كان فى المقدمة، يشجع الأفراد على القفز .

فتح باب الطوارئ، فى جانب بالقرب من المقدمة، وظل الطيار محتفظا بمسافة بسيطة بينه وبين الأرض، لا يطمسها ولا يرتفع عنها. يميل يميناً وشمالاً ، حتى يفوت على الطائرات المهاجمة دقة الإصابة . ترددت وأنا قرب الباب . صاح الفني :

- اقفز يا وحش.

لم أدر بنفسى إلا وأنا فى الهواء .

يبدو أن الطائرة كانت فى حالة تحليق بسيط، فاختل توازنى، لست أعي بالضبط ما حدث .. كل ما أعيه، سقطتي بقوة على أحد جنبيَّ، وشيئا، انفجر تحتى بصوت مكتوم، وإحساسى بالبلل .

ضحكت حمدية، وقد مالت زجاجتها، فتساقط بعض الشراب على

البنطلون. كان فخذاهما ملتصقين، تقريبًا، وهو يستمرئ، إحساساً بالدفء والحنان، وقد استندا بظهريهما إلى خلفية الكشك، وبحث بعينيه عن صفية، فحمد الله أنها غائبة وسط أفراد الرحلة .

- قم يا رجل الماء سال من زمزميتك .

ومد يده لي .

- ظننت ضلعًا كُسر.

نهضت حمدية، وقد احمر وجهها، حين لاح وجه صفية تبحث عنهما، وترددت فى شده من يده الممدودة .

تجمعت فصيلتنا، وسرنا لنأخذ أماكننا .

نجا نصف القوة تقريبًا، وتولت أقدم رتبة القيادة، وكان رقيبنا قد أصيب، فتوليت مكانه . وأعيد تشكيل الكتيبة من جديد، احتللنا قمة جبال سدر، وقُسمنا إلى مجموعات، تحتل طوال الليل، وتذهب للراحة نهارا، مع ترك نقطة ملاحظة. وكان معنا تعيين يومين فقط . وظللنا على هذه الحال ستة أيام .

نظر وراءه، لم يلمح أحدا، وحجب عنه الشارع المبنى ذو الطابقين، حيث تؤجر حجراته للمصطافين، والطلبات تخرج من مقصف على يمين الداخل، وقد بدأت تتوافد بعض العائلات إلى الشاطئ .

هل وقع حادث فى الطريق؟ طلبت منها ركوب الباص، ولا داعي لاستخدام البيجو، التى تغرى سائقيها بسرعة غير مأمونة . طبعا نفذت ما في رأسها، ركبت الأسرع، وغير المقيدة بمواعيد .

أم تراها صفية، وهي تعرف بحسها، ولابد، أني فى انتظارها، قد أخرتها، تشفيًا بي، لأني لم أصارحها .

هل تستعذب الآن رؤيتها لحمدية، تفلفص، وتبالغ فى إكرامها، مدعية عدم الفهم لتعبيراتها غير المفصحة، عقاباً لها هي الأخرى، لأنها لم تخبرها بموعدنا، وإحساسها أن شيئا يتم من خلف ظهرها .

أم ترى حمدية أخبرتها، فلا أحد يستطيع أن يتكهن بالضبط ما يدور بين امرأتين، وأن الأمر لا يعدو، قيام صفية بواجب الضيافة، مستكثرة، أن تكون رئيستها، ولا تحتفي بها كما يجب .

هل علاقة صفية، غير المستتبة مع حمدي، قد انعكست علينا، وهي تعلم مابيننا . لا .. لا أظنها تتصرف بوحى من ذلك .

هل أذهب إلى البيت .

لن تتركنا صفية، ننعم بالحديث فى خلوة، ليس تطفلاً منها . سوف تجد من غير اللائق أن تترك مضيفتها .

وإذا طلبت منها إعداد طعام الغداء، ستغضب، لأني لم أطلب مبكرًا. وساعتها سأذهب .. وأشترى من أي مطعم، وتكون النتيجة أن تختلى هى بها .

اصبر .. لعلها فى الطريق ..

صبرنا، وفي اليوم السابع، بعد الفجر بقليل، لم نكد نذهب إلى مغارتنا، حتى أنبأت الملاحظة، بقدوم تشكيل إسرائيلى، عربة جيب وعربتان مدرعتان، محملتان بالجنود ودبابتان .

صاح القائد :

- كما كنت .

رجعوا جميعًا، وأخذوا مواقعهم أعلى الجبال، واستعدوا بالرشاشات طويلة المدى، ومدافع الـ آر - ب - ج، المضادة للدبابات، ومدافع الهاون .

قال رئيس العمليات :

- تشكيل لجس النبض، لا داعي للتعامل معه .

قال القائد :

- الأوامر، ألّا تمر نملة من المضيق .

- نحن فى انتظار طابور مدرع من الاحتياطى التعبوي، لنجدة حصون بارليف على شط القناة .

- استعد .

- أمر سعادتك .

جلس كل منهم خلف مدفعه، وأصابعهم على الزناد، فى انتظار الأمر بالضرب. كانت الأوامر تقضي، أن يتركوا التشكيل يمر دون أن تفارق أول عربة مدي مرمى سلاح أول جندي فى المقدمة، وأن يكون آخر جندي، فى متناوله آخر التشكيل، وأن يضرب هو على المقدمة، ويضرب جندي المقدمة على المؤخرة، وهكذا يحاصرون التشكيل فلا يستطيع أن يتقدم أو ينسحب .

تسرع جندي المؤخرة، وضرب أول عربة مارة . فتحوا علينا النار، ففتحنا عليهم نيران جميع الأسلحة . تمكنا منهم، عدا الدبابة الأخيرة، استدارت هاربة.

أحس بجوع خفيف، وسئم رواح ومجيء عامل المقصف أمامه .

أحد الضباط يمر على مواقعنا، يختلس من الطعام، ويشرب مما بقي من الماء، تدبرت الأمر، وقسمت التعيين على أكبر فترة ممكنة، وكنا قبل المهمة، نعرف بوجود بئر على بعد ستة كيلو مترات من مواقعنا . نجمع الزمزميات، وأذهب لملئها يوميًا. عاتبت الضابط فمنعنى فى اليوم التالى من الذهاب إلى البئر . ذهبت فاشتكاني للقائد. صارحته بما حدث، فلم يجازني، وعلمت فيما بعد أنه وبخه، وكلفه بمهمة لا يتحرك فيها من مكانه .

التفت، حين خيل إليه أنه سمع وقع كعب حذائها العالى، على بلاط المشاية، المؤدية إلى الشاطئ .. مدد ساقيه فى استرخاء . لم نكد نهنأ بانتصارنا، حتى فوجئنا بالطائرات تدك مواقعنا بكثافة . ليست معنا مدفعية

مضادة للطائرات . تكفلت نتوء الصخور بحمايتنا، ولم يصب منا سوى فردين . كنا نحس بالقذائف تئز فى الصخور، ثم تخمد كمدا . أما قنابل الطائرات، فكانت الجبال تمتص عنفوانها، وتفتت النتوءات شظاياها .

أنبأت الملاحظة عن تشكيل من الدبابات الإسرائيلية قادم من بعيد. وسرعان مازامت طائراتهم وألقت ما فى جعبتها من قنابل، وأمطرتنا بطلقات مدافع الفيكرز .

أتراهم يريدون العبور، أثناء انشغالنا بالطائرات . حددنا مواقعنا وموقع دبابات الإسرائيليين، ونوع الطائرات المغيرة . هلل الجنود، عندما حضرت مقاتلاتنا، معرضين أنفسهم للقتل . نهرهم القائد .

انتظرنا إفادة الملاحظة، التى جاءت، بعد أن التهمنا القلق . دُمرت بعض الدبابات، وهربت بعضها، واشتبكت طائراتنا مع طائراتهم، ظللنا فى انتظار نتيجة المعركة، حتى خلت السماء من جميع الطائرات .

أمر القائد بسرعة إخلاء مواقعنا، فلا شك أنهم رصدوها بدقة . وأن نحتل فى سلسلة الجبال من الجانب الثاني للمر . جهزنا مواقع جديدة فى الصخر بالأزاميل . حلقت هيلكوبتر إسرائيلية على ارتفاع منخفض. طلب قائد فصيلتنا التعامل معها، رفض القائد حتى لا نكشف أماكننا الجديدة . ألقت الطائرة قنابل دخان فوق مواقعنا القديمة، وانشقت السماء عن مقاتلات إسرائيلية، قصفت المواقع القديمة بالقنابل، وبعد قليل حومت طائرات أخرى وألقت بالمظليين فوق المواقع، وأخذوا يطهرونها بالرشاشات . أنبأت الملاحظة أن مظليين آخرين سقطوا عن يميننا . أيقن القائد أنهم يريدون تطويقنا .

هل أخطأت لأنني تركت حمدية تقابل صفية أولاً . أردت أن تخلص من مهمتها، ويروق لنا الجو .. وهاهى آخرتها .

أغارت الطائرات على مواقعنا الجديدة، ولم تلتفت إلى أمكنة

قنابل الدخان. أحسسنا من مرارة صوت القائد فى اللاسلكي وهو يلقي بتعليمات جديدة، إحساسه بالخطأ لعدم مطاوعتنا فى ضرب الهليكوبتر، وأنها خدعتنا بقنابل الدخان، ورصدت مواقعنا وأبلغتها لقيادتها . أمر القائد بتركيز نيراننا على من بيميننا، حتى لا ينجح التطويق . وحين تراجعوا، وجهنا نيراننا إلى من احتلوا مواقعنا القديمة . أخبرت الملاحظة عن مدرعتين آتيتين من الشمال .. آه .. فشلوا في تطويقنا بالمظليين، يحاولون بالمدرعات . أمر قائد فصيلة الـ آر - ب - ج بالتسلل إلى أسفل والتعامل مع الدبابات . وأخذ يؤكد على ما سبق أن تعلموه :

تذكروا .. مدى ثلاثمئة متر تكون القذيفة مؤثرة، وخمسمئة متر تبقي طوبة.

كان القائد، يخشي لو تعاملوا مع الدبابات من أعلى، أن تنكشف مصادر النيران للمظليين فى المواقع القديمة فى مواجهتهم .

فوجئت الفصيلة المتسللة بثلاث دبابات أخرى، تسير بحذر فى جانب من الوادي. دمرت العربتين المدرعتين ودباباتين، وفرت الثالثة، تتعرج فى مشيتها، ولا تبتعد عن الحد الصخري فى جانب الوادي، حتى لا تطولها قذائفنا .

أمر القائد، باللاسلكى، وحدة رشاشات، أن تبتعد قليلا عن باقي المواقع، حتى لا تكشفها عندما تفتح نيرانها . وأمرها بالتدخل، إذا أطلق المظليون النار لنجدة زملائهم،وأمر الفصيلة المتسللة أن تبقى فى أماكنها بعض الوقت، حتى يتأكدوا من عدم ورود دبابات أخرى .

وعندما يتأكد لهم ذلك، يبثون ألغامًا مضادة للدبابات فى الجانب الأيسر، الذي أتوا منه، حتى لا يستطـيعون التطويق ثانية .

فتحنا النار على المظليين أمامنا . وأُمرت فصيلتنا بالتسلل إلى مواقعهم.

عندما اقتربنا من نقطة ملاحظتهم، لاح لنا جنديان فى متناول اليد . أطبقنا عليهما فجأة. وأمرني قائد الفصيلة أن أعود بالأسيرين .

زعق قائد الكتيبة :

- من أين أطعمهما .. ؟!

وفجأة صاح :

- أنت ..؟!

عندما سقط زميلٌ من فصيلتنا جريحًا، عند الهبوط، لم أتركه كما تقضي الأوامر، كان زميلي الذي أنهضني حين تعثرت . وكانت النتيجة أن تأخرت فصيلتنا عن باقي الكتيبة، ولولا أننى تذكرت السبورة الرملية، والمواقع مجسمة عليها، ما أمكننا الوصول . لكنهم حين رأونا نتقدم نحوهم أطلقوا النار باتجاهنا . صاح قائد الفصيلة:

- يا أولاد الكلب .. نحن مصريون ..

استمر إطلاق الرصاص .

- نحن مصريون ..

وظل يزعق، حتى نبههم، قائد الكتيبة، كما علمنا فيما بعد، فكفوا عن الإطلاق، ولحظنا لم يصب أحد .

صاح قائد الكتيبة :

- اسمع ..

تطلعت إليه، متوقعًا توبيخًا، لكنه استمر :

- أمن عليهما فى إحدى المغارات .

هبط المساء فوضعوا أجهزة الرؤية الليلية، فى مقدمة البنادق الآلية . وأفادت الملاحظة بانسحاب المظليين . تعجبوا . هل يريدونهم فى مكان آخر .. هل حدثت خسائر عالية بينهم، فآثروا سحب من بقى حيًا؟ على أية حال، لم يضيِّع القائد وقته، وأمر ببث الألغام المضادة للدبابات فى الجانب الأيمن من وادي سدر .

لابد من تصبيرة، منك لله يا حمدية، أو ياصفية، التفت ناحية المقصف..

حضرت هليكوبتر مصرية، وألقت بالطعام . وأخبروهم لاسلكيًا، أن عربة محملة بالطعام والذخائر، كانت في الطريق إليهم، تعاملت معها طائرة إسرائيلية، فدفنوا الطعام والذخائر في مكان حددوه لهم .

مرت عدة أيام، دون أن يروا أية دبابة إسرائيلية . استخفهم شعور بالفرح، لنجاح مهمتهم، وأن القوات التي تتقدم في عمق سيناء برؤوس كبار، لا تهددها أي هجمات إسرائيلية مضادة، من ناحية مضيق سدر . ومع ذلك .. كانت عيونهم طوال الوقت تمسح الوادي ومدخله الشرقي، والجبال حوله خشية أية مباغتة .

انبعثت نظرات حمدية، قلقة، وإن تظاهرت بالاطمئنان، عندما احتدم النقاش مع أخيها.

فجأة ضحك حمدي مسترسلاً، فأشعت عيناها بالرضا، قال حمدي:

- وهل ننسى ما قاله بيجن .

جاراه صفوت في الضحك، وقد تذكر ما نشرته الجرائد، عن عرض الرئيس السادات بفتح قناة السويس، خدمة للملاحة العالمية، نظير انسحاب جزئي من سيناء. وصرح عضو الكنيست وقتها بيجن : الأفضل له أن يأخذ « ذكرى»، ونطق اللفظ الأخير بالبولندية، لغته .

همس حمدي في أذنه :

- أعطاهم السادات « ذكره» .

انفجرا ضاحكين، وعيونهما على حمدية.

واسترسل صفوت في الضحك، فقد كان بيجن، رئيس الوزراء، هو الذي وافق على الانسحاب من سيناء كلها .

أحس بعبق يتخلل الهواء . نفس الرائحة التى أسكرته فى موقع أبي جاموس.

عطر الفل الممزوج برائحة عرقها، ماذا فى رائحة عرق الأنثى يجذب المرء..؟! وأحس بيديها المنداتين، فأدرك أنها أسرعت فى المشى لتلحق به . أحاطت براحتيها جانبي جبهته، وامتدت الأصابع المضمومة جوار عينيه، حتى لا تتحول نظرته، وأحس بجذعها اللدن خلف رأسه .. والرائحة تدخله أكثر فأكثر .. يحاول التملص دون جدية .. فلا تمكنه يداها .



6

صعد حمدي الطريق المؤدية إلى البحر، لتفقد بعض الأغوار . عند التقاطع، إلى يمينه حيث الشارع المؤدي إلى بوابة رفح الحدودية. طالعته عربات محملة بالبطيخ وجوز الهند واللوز . من أحجام البطيخ الصغيرة، قدر أنه بطيخ سيناوى . وحين تذكر أن ندا، استأذنت ولن تحضر اليوم، عرج إلى مقهى فى بداية الشارع ليشرب الشاى . ويستريح قليلا. لفت نظره، أرضية المقهى المنخفضة. وخشب ترابيزاته وكراسيه وبابه ونوافذه، تشي بالقدم، تقشر عنها طلاؤها، وحبب فى بعض المواضع، وتغير لونه، بفعل الشمس.

أحضر له رجل عجوز «معمم» ما طلب من شاي، قلب بملعقة رفيعة متآكلة الحواف فى كفها . لم يخرط الشاي، وبقى الماء عكرا، أومأ للعجوز، وحين اقترب منه سأله :

- ألا يوجد شاي أكياس ؟

نفى الشيخ بهزة من رأسه .

- أي نوع هذا

- سوزكى

- نعم ..؟

- من إسرائيل

- أعوذ بالله .. هات قهوة أحسن .

ضحك العجوز، وانفرجت شفتاه عن أسنان مهشمة، سود ما بقي منها دخان المعسل.

- بورسعيد ملأى بالبضاعة .. وهناك شاي جيد .
- رد العجوز، وهو يتحاشي عينيه :
- الأولاد يستقربون .
وأشار ناحية البوابة ..

خمن حمدي ما يحدث . فهذه البوابة لا تعبر منها العربات . يعبر منها الراجلون من أبناء رفح سيناء خاصة، إلى رفح فلسطين .. حيث يعملون هناك نهاراً، ويبيتون عندنا ليلاً .. وكثير من العائلات مقسمة بين الجانبين.. وأثناء عودتهم .. يكونون محملين ببضائع مختلفة .

أدار ظهره للشارع، ولم يكد يخطو فى الطريق الرئيسية، حتى مرت به عربة جيب كالسهم، فوقف مكانه مرعوبًا، وكاد يفقد توازنه . لحظه صاحب عربة يد بالقرب منه، فقال :
- أمريكان .. دائماً هكذا ..

لم يعلق، ولاك في خاطره .. الجيب غالبًا تابعة لمحطة الإنذار المبكر.. ينذرون الإسرائيليين من ماذا .. ؟!

وطفا إلى ذهنه، ما سمعه من أولاد، في إحدى حارات شبرا، حين كان فى زيارة لصديق له :

«كنت ماشى فى شارع النجاشي قابلت بنت حلوة، قالت لى :
رايح فين ..
قلت لها :
رايح سينا .. أحرر أراضينا».

صعد فى الشارع، إلى يساره، بيوت من دور واحد، ترتفع وتنخفض، تبعًا لارتفاع التباب الرملية، التى تحف بالطريق . وعبقته روائح أشجار الكروم والنخيل الطالة من أحواشها، والمعرشة على بعض جدرانها .

مختلطة بهواء البحر الرطب، وأحس ناحية هذه البيوت بدفء وحنان غريب .. آه .. لو توافقني صفية، وتأتي لنعيش هنا.

طالعته صفحة مياه البحر، شديدة الزرقة، أحس لها عمقا ورهبة، وكلما أوغل النظر في البحر، خال صفحة المياه ترتفع . وأخذ شاطئ البحر زاوية قائمة، ضلعها الأيمن شاطئ فلسطين .

لاحت رُبى عالية، أُقيمت فوقها، وعلى المنحدرات، بيوت متناثرة، تقترب في خطي وئيدة حتى تكاد تلامس خط حدودنا . وانتصبت أشجار في المناطق الخالية. فروعها ملتفة حول بعضها بعضًا . أقنعنا الإنجليز ردحًا من الزمن، أن سيناء لاتصح فيها سوى أشجار الخروع ؟ أين هم الآن ليروا البرقوق والمانجو واللوز والتفاح وما تبعثه من شذا، أنعش جو سيناء الجاف . وتساءل : ترى.. هل هذه بيوت إسرائيليين أم فلسطينيين.. ولماذا تقترب حتى تكاد تقتحم حدودنا .. بينما بيوتنا تبتعد .. ؟!

وأحس بالألفة نحو البيوت إلى يساره، مع أنه لم ير إنسانًا يطل منها، فليست لها نوافذ على الطريق، وأبواب الأحواش، لم ير أحداً يخرج أو يدخل منها . فقط فروع أشجار تطل من فوق حافة باب، أو جدار . لو يلبى دعوة تلك الأشجار الطالة، ويطرق أحد الأبواب .

سار بحذاء البحر، ارتقى ربوة، ،مطلة على غور إلى يساره . تمعن في شتلات الخوخ جيدًا .. أكثر نضارة .. وفي طريقها لأن يشتد عودها .. عمت نفسه بهجة . ود لو يشاركه فيها أحد .. وبتلقائية تحسس بإبهامه موضع الدبلة في إصبعه .. عندما جاءته دفعة أخرى من شتلات الخوخ، قبل حرب 73، أخبره محمد عايش، أنها مهجنة على برقوق .

– ولماذا برقوق وهو ناعم مثل الخوخ، ومليء بالماء مثله .. ؟

رد عايش :

– جذور البرقوق أطول، حتى يطول الخوخ المياه الجوفية .

لكن حمدي خشى، إذا هجن، هذه الشتلة على خوخ الوادي، أن يفقد

بعض مميزات الخوخ السيناوي، التى يود الاحتفاظ بها . لذلك طلب شتلات غير مهجنة . وقام بزرع شتلة لوز ووضع عليها فرع خوخ سيناوي غير مهجن . وحينما نمت الشتلة، قص باقي الفروع، وترك العود السيناوي على الساق اللوزي، وبعدها، أخذ فرعًا من الناتج الجديد، ووضعه على شتلة من خوخ الوادي، وحين نما، فعل الشيء نفسه وأخذ الجديد، وأكثر منه، وهكذا أفاد من الجذور الطويلة لشجرة اللوز، وخشونة ثمرها .

وكثيراً ما تساءل.. متى تعبر قواتنا القناة .. يطول الانتظار .. هل يذهب تعبه هباء.. تحتدم مظاهرات طلبة الجامعة .. تتعجل طرد الإسرائيليين من سيناء . فتنتعش نفسه بالأمل .. آه .. طول العمر يبلغ الأمل .. هل يجدي هذا مع صفية .. أم أن طول العمر فى حالتنا .. يوهن العزم ويضعف القدرة والرغبة..

أيام الأسر، كان يحلو له ساعة العصاري، أن يسحب صفيحة قديمة من المطبخ.. يضعها مقلوبة، بالقرب من الخط الأبيض، المحظور عليهم تجاوزه، فى حذاء الأسلاك الشائكة التى تسور المعسكر . ويسرح فيما وراء التباب الصخرية، التى نمت بينها حشاش ونباتات برية . ومع الوقت مهد قطعة أرض بحذاء الخط الأبيض، وقسمها إلى أحواض صغيرة، وضع فيها هياكل من عيدان الكبريت والورق، تمثل فلاحين .

من يركب حماراً ..ومن يضع غبيطًا فوق ظهر الحمار .. ومن انحني وقد أمسك بفأس .. وشق ترعة رفيعة حول الأرض . صب فيها الماء بكوب بلاستيكي . تعود الحراس منه رعاية الأرض كل يوم فتركوه . واعتاد زملاؤه أن يسألوه :

- كيف حال الزرعة .. ؟

- متى الرية الشتوية .. ؟

يرد عليهم، بما يريحهم، وعيناه لا تغفلان عن الخبثاء منهم، خشية أن

يغافله أحدهم ويلقي بماء مضمضة الأسنان، المخلوط بالمعجون، فى قناته، فيتلف الزرع. كان الصليب الأحمر، بعد طول غياب، قد أحضر هدية من مصر، لكل أسير حقيبة ورقية، بها غيارات داخلية، وعطر، وصابون، ومعجون أسنان وفرشاة . وكان من المألوف أن ترى الأسرى، وقد انتشروا فى باحة أمام العنابر الخشبية، وإلى جوار سور الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر، مزهوّين أمام الحراس بالغيارات الجديدة، وقد أمسك كل منهم كوبا بلاستيكياً مملوءًا بالماء وفرشاة أسنان، محاولاً إزالة ما تراكم طوال عدة شهور. لم يتخلف عن ملاحظة المزرعة إلا يوم أذاعوا فى مكبرات الصوت تسجيلاً، التقطوه، لمحادثة هاتفية بين الرئيس المصري عبد الناصر والملك الأردنى حسين . يقول عبد الناصر : أنت تعمل بيانًا .. ونحن سنذيع بيانًا أن الطائرات الأمريكية قصفت مطاراتنا. ظلوا يذيعون التسجيل عدة مرات فى اليوم الواحد .. لما يقرب من أسبوع.

ولم يفارق الطنين آذاننا، حتى عند النوم « أنت تعمل بيانا ..ونحن سنذيع بياناً» كانت إسرائيل قد دفعت بكل طائراتها، لمهاجمة الطائرات المصرية على الأرض، في المطارات شمالا وجنوباً فى وقت واحد . ولم يصدق أحد أن تدفع إسرائيل بكل طائراتها، تاركة مجالها الجوي دون حماية . لكن حاملات الطائرات الأمريكية كانت على مقربة، وأعلنت حالة الاستعداد القصوي فى القاعدة البريطانية فى قبرص .

تلفت أعصابنا، وأهملت الأرض والزراعة .. ثم وجدت نفسى، ولا أدري كيف، أعاود العناية بهما .

عاد حمدي ثانية، ولحظ أن عينيه لا تفارقان البيوت على يمينه . وخيل إليه أنه سَبَر كنُه ما يشده نحوها . يحس على نحو ما، أنها موغلة فى الزمن، وأنها تصله على نحو ما بالقدم .

تجاوز الشارع المؤدي إلى البوابة .. واقترب من ميدان تعامدت عليه طريقان. أحدهما يؤدي إلى العريش، والآخر يؤدي إلى منفذ رفح البري، حيث تعبر السيارات والمسافرون إلى غزة .

هنا في هذا الميدان، أو بالقرب منه، كان مقهى فوقه برج خشبى، وكانت أمامه تلك الباحة . أقام الإسرائيليون فيها معسكراً مؤقتا لتجمع الأسرى، أوقفوهم ووجوههم لصق الحائط، وشرعوا يفتشون عن أسلحة فى طيات ملابسهم، بينما تدوي طلقات الرصاص .

اقترب منه أحد العسكر . جرده من ساعته وحافظته، وحين حاول سلت دبلة زميل بجواره عصلجت، دق قلبه بعنف . منذ قليل فعلت دبلة خطوبة الشيء نفسه مع عسكرى آخر، فما كان منه إلا أن أحضر السونكى وأطار الإصبع بما حملت. انبثق الدم غزيراً . أخذوه بعيداً وسمعنا دوي رصاص .

طلبوا منهم الانبطاح على بطونهم، بينما طلقات الرصاص تدوي فوق رؤوسهم. طارت الحمائم من البرج الخشبى مذعورة . أطلق بعضهم النار عليها. تهاوت إحداها، فتعالى صخبهم، وهم يرطنون بالعبرية .



7

ما ذنبي .. ؟!

أظل واقفًا، حتى ينتهي من فحص الشتلات. ألم يفعل قبل أن يأتي بها، وكأنما قرأ حمدي ما جال في خاطره، قال :

- حالاً .

واستمر في فحص جذور الشتلات، ذات الجذر الضعيف يستبعدها . ويضع الشتلات المتجانسة معًا .

لاحت ندا من بعيد، أشار لها حمدي، فقدمت لمساعدته .

لاحظها حمدي برهة، وحين ارتاح لسلامة عملها، تركها وانصرف يفحص التربة، ويتحقق من وجود ماء، أو رطوبة، من عمق ثلاثين إلى خمسين سنتيمترا .

- قعدت .. ؟!

لم يعلق سعد . وأخذ يتأمل ندا وهي تمسك الشتلات في رقة . وضعت بعضها في التربة، وضغطت في رفق الرمال حولها .

أحس بنفسه تهفو لها، وأخذ يتأكد من صدق شعوره، وهو يعجب من أمره، من فترة وجيزة، كان سيذهب إلى السعودية برفقة امرأة، حصلت على عمل هناك، ولما كان يلزمها رجل، يعصمها من الفتنة كما يقضي قانونهم، لتحصل على تأشيرة الدخول، فتد اقترحت عليه الزواج . وإزاء تردده، لحداثة معرفته بها، سهلت له الأمر.. ليكن زواجًا صوريًا، أنا أشوف شغلي، وأنت ربنا يسهل لك .

حين أخذ رأي حمدى، فزع .

- ليكن صوريا ..

عجز عن كبح غضبه، وقال :

- أما كفانا من الصوري ..

لم يفهم سعد سر اشتعال غضبه بهذه الصورة . قال حمدي :

- الفلسطينيون باعوا أرضهم .

رد سعد بتلقائية :

- يستاهلوا ما جرى لهم .

كأنما داس له على طرف، انتفض :

- ها أنت قلتها .. أيام العثمانيين، كان الفلاحون الفلسطينيون، تهربًا من الضرائب الباهظة، ينسبون أراضيهم إلى أسماء عائلات مشهورة مثل سرسق وسلام، وحين جاء الصهاينة إلى فلسطين وجدوا الأرض مقيدة فى السجلات باسم هذه العائلات.. وأغلبها مقيم فى لبنان، ولا يعلمون شيئًا عن هذه الأراضي .. فاشتروها .. صوريًا .

ثم ساخرا :

- ماذا لو قرطستك هذه المرأة .. ؟!

انصرف إلى عمله، بينما أطرق سعد صامتًا، وهو يقول فى نفسه : لا تخف ياباشمهندس .. لن يعطش النبات .

كان أمام القناة، وقد شعر بالعطش . فى الحقيقة ليس عطشًا، لكن جفافًا فى الحلق. فجأة عرف أنهم على وشك الاقتحام . جرعة واحدة من الزمزمية، ولم تمتد يده إلى حزامه الممتلئ بالأدوات والقنابل وطلقات

الرصاص، فقد انطلق الصوت فجأة، فى مكبرات الصوت، دون أي اتفاق أو تعليمات :

- الله أكبر .

طغت على صوت تحرك المركبات، وأزيز الطائرات .

- الله أكبر .

و كأن قوى سحرية، قد ركبت الجنود والمعدات، يقتحمون، غير عابئين بشىء، كأنهم يحملون رقيات ضد الموت ..

- الله أكبر ..

وفي اليوم الثانى أو الثالث، لم يكن أحد منهم قد أدرك حقيقة ما حدث .

- الله أكبر ..

قال له حمدي مرة :

اقشعر جسدي، ونسيت، زرعى وسنينه .. مليون جندي .. أكثر .. على طول القناة من السويس إلى بورسعيد .

- الله أكبر ..

وبعد أن أفقت، تعجبت، فلم يصب زرعى بسوء.

فعلاً، لحظات غريبة . كنت أنتظر مع كتيبتى دورنا فى العبور . جندي، بعلامة حمراء على ذراعه ينظم مرور المركبات إلى المعابر . يشير بهدوء إلى هذا الطابور أن انتظر، ولهذا أن اعبر، ولذاك أن تنحى إلى جانب، بينما القذائف تحول مياه القناة إلى نافورات فى الهواء، وعندما عبرت إلى الضفة الغربية، وجدت زميلاً له ينظم المرور، أيضا، أمام فتحة فى الساتر الترابى، والطائرات تحوم من حوله، وطلقات الرصاص تئز فى الهواء .

واختلط عليَّ الأمر . هل هو نفس الجندي الذي كان ينظم المرور فى الضفة الغربية .

اعتدلت نداء، وذهبت لتأخذ حزمة أخرى من الشتلات. تعثرت، وقد لحظت أن هناك من يرقبها . أفلتت منها بعض الشتلات. انحنت فى لهوجة، تلتقطها، قبل أن تصل إلى الأرض . وفى لهوجتها، كادت تسقط باقي الشتلات .

نظرت إلى سعد، الذي لم يسقط عينيه عنها . تصاعد الدم إلى وجنتيها، والتفتت إلى الناحية الأخرى.

وتشاغل سعد بالنظر إلى بعض السيناوية، على مقربة، وقد شمروا عن سيقانهم وسواعدهم، وانحنوا على الأرض .

على الطرق الزراعية فى بحري، خاصة فى الشرقية والدقهلية، رآهم بملابسهم الفضفاضة فوق أجسادهم، سوداء وحمراء، تتدلى أقراط مستديرة، كبيرة الحجم من آذان نسائهم، وتحيط رقابهن مشغولات نحاسية شبكية، تحدها أهلة صغيرة متجاورة، تتدلى منها حبات من الخرز اللبني، فى الغالب. ويعلقن فى خرم من أحد جانبى أنوفهن أقراطًا نحاسية صغيرة . يتسولون حبات من البرتقال والخوخ، رآهم يبيعونها فى بعض الأسواق. وفى مداخل المنصورة والزقاريق، كثيرا ما اعترضت سيارته، قطعان أغنامهم ومعيزهم، وهم آحاد فى وسطها، يحفزونها على الإسراع، اتقاءً لأصوات أبواق السيارات.

عاد بناظريه إليها .. أتراها عششت داخله .

أمسكت الشتلات بيد، وبالأخرى تحبك طرحة ،سوداء حول رأسها . شئ ما علق بكمها الواسع . رفعت يدها إلى أعلى، وهزتها لتتخلص مما علق .

رفعت يدي في جنبي السليم إلى أعلى . في محاولة لدفع الدم إلى قلبي . هل أغمي عليَّ فترة . لم أنتبه إلا على صوت دبابة تقترب . لابد أن يقترب منها أحدنا لمسافة عشرة أمتار . وإلا فإن طلقة الـ آر - ب - ج، ستنزلق عن درعها (تعمل سكترما) .

لم تصبني الدبابة لأنها كانت في المنخفض من جانب الطريق، وأنا في المنخفض من الناحية الأخرى . اقترب أحدنا، وألقي عليها قنبلة مضادة للدبابات، لم تنفجر، فمن لهوجته لم ينزع صمام الأمان . زعقت عليه. التقطها وأعاد المحاولة، أصاب الجنزير، وظللنا نضرب بالأسلحة الخفيفة التى معنا للمناوشة، حتى لا يخرج أحد لإصلاح الجنزير، خاصة وموتورها ما زال يعمل .

أشار حمدي له، ليمضيا . وأخذ يعطي تعليماته للعمال بخصوص التسميد وكيفية وضعه، وكان قد أوصي به بلديًا قديمًا، وطمأنهم أنه قد مضي ما يقرب من العام على تزرير الشتلة (تطعيمها) وأن هذا الجو البارد، يقلل جريان العصارة في النبات وهذا أصلح للغرس .

أعطوني محلولاً ملحياً ودمًا، وإبرة مصل، وكورامين ونوفالجين . ولم أشعر بشيء حتى صباح اليوم التالي . عندما فتحت عيني، أحاط بي بعض الجنود وهم يضحكون، زادوا من ضحكهم، وتريقتهم . وتعطف على أحدهم :

- كنت مُهوَساً في نومك .

الساتر الترابي ارتفاعه عشرون مترا . هاتوا المجاديف لنوسع الفتحة . الإسرائيليون هربوا . الإسرائيليون أغلقوا عليهم أبواب الحصون . القنبلة «م د» لم تنفجر .

الدبابة الباتون عاطلة . لا .. ستدوسنا.. حاسب .. ما زالت تدور . لا .. نحن فى رمضان .

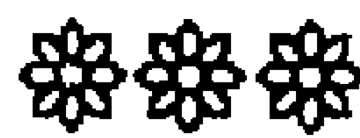
يا بنى هذا أمر . الإفطار فى الحادية عشرة صباحاً، والضابط أول من يفطر، الاقتحام في الثانية وعشرين دقيقة ،القوارب تُفتح في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة، الطائرات فى الواحدة وخمس وخمسين دقيقة، المدفعية فى الثانية وخمس دقائق . لا .. لم نشاهد الطائرات وهى ذاهبة . شاهدناها فقط وهى عائدة . ثمانية فى القارب ثلاثة فى كل جانب، واحد بالرشاش حراسة من الأمام، وواحد فى الخلف. كل واحد يعرف مكانه.

وانفجر الجندي ضاحكا .

- ما الذي يضحك .. ؟!

- في هوسك لم تنس المواعيد .

وحين انتبه إلى أنه فى مستشفى ميدانى بالغرب، تلفت حوله باضطراب، لا يدري كيف يلحق بوحدته فى الشرق . وانتهز فرصة استشهاد سائق دبابة، وتأخر وصول الاستعواض، وقد حان موعد العبور . شفعت له خبرته كسائق جرار، وركب معهم.



8

فى غبشة المساء، تذكر حمدي أنه علي لحم بطنه، مر بجوار الجامع العباسى . خُيل إليه أنه لمح سعداً عند الأعمدة القصيرة. أتراه فى انتظار ندا؟ هَم بالاستدارة ليتيقن، لكنه خشي أن يفسد عليه أمراً، يكون قد دبره، وأكد لنفسه، أنه لا يمكن أن يخطئه بوقفته المتراخية وقد تقوس ظهره قليلا فبدا أكثر نحافة مما هو، وأكثر طولاً مما هو، وأومأت رأسه المائلة إلى الأمام بالانكسار . ولكن .. لماذا الانكسار.. ؟! .. أتراها كعادة البنات اللعوب فى الحضر، لا ترسيه على بر، فأصبح لا يعرف رأسه من قدميه؟

لا .. هى بدوية .. وأغلب الظن صريحة، ومباشرة . والانكسار من داخله هو، لأنه غير واثق بما هو مقدم عليه، أو غير واثق بحبها له .

أيًا ما كان، لم يكن هناك داع، لتلك الوقفة الضائعة، عند تلك الأعمدة من قلعة سليمان . وأين يواعدها إذن .. ؟! على أحد المقاهى السياحية على شاطئ العريش، ذات النفقة العالية، وتعرض نفسها لأن يراها أحد يعرفها، ويلوك سيرتها العرايشية. وربما منعوها من العمل .

لا ينقصه فى وقفته هذه، إلا أن يمسك عريضة، أو التماسًا، ويقدمه لها حين حضورها . قدم فيثاغورث طلبًا إلى كهنة معبد عين شمس، ليتعلم فى معبدهم، تركوه عدة أيام أمام الباب . وفى كل يوم يكرر المحاولة، دون أن ييأس، حتى سمحوا له بالدخول .

لماذا تركوه واقفاً طوال هذه الأيام، وهم يعلمون أنهم سيوافقون فى النهاية؟!

هل أرادوا إعلامه أن الأمر ليس سهلا، وأن عليه أن يعرف قيمة ما هو مقبل عليه، فإذا عانى من الذل والرجاء، لن يفرط بسهولة فيما يحصل عليه .

أم أرادوا اختبار درجة احتماله جو الصحراء، شديد الحرارة نهارًا، شديد البرودة ليلاً . أتراهم أرادوا تلقينه أول درس، وهو التعود على إيقاع الصحراء الهادئ، وتعلم التأمل. فلا شك أن من يبيت وحده فى الصحراء عدة ليالٍ، سوف يتعلم التأمل وروية الفكر، وهذا ما يريده المعلمون فى الداخل، حتى إذا ما استوي على دكة الدرس، استخدم عقله، وقد اعتاد على الإيقاع الهادئ المتأني، فيفكر جيداً وينتج الحكمة .

لقد أثمر التعليم مع فيثاغورث، فلم يكد يعود إلى بلاده اليونان، حتى أبدع نظريته الهندسية الشهيرة .

وأنت يا ندا، ماذا تريدين أن تعلميه؟ إنه رغم وضوحك ،وتلقائيتك، لستِ سهلة.

ولماذا لا تصدقينه على الفور؟ نيته الصادقة تنطق بها سمرة دقيق السن فى وجهه المتناسق الملامح وشعره القصير المفلفل، ونظراته الهادئة من عينيه السوداوين..

زادت زقزقة عصافير بطنه، فعرج على أول مطعم صادفه . فول وطعمية. وراءنا وراءنا . يارب أين المفر .. ؟! المهم أن تكون الطعمية ساخنة . جس قرصاً ولا حتى هذه «لا» لن أصبر على هذا وإلا انتهيت . غداً آخذ « الجيب» وأذهب إلى البردويل وأحضر أكلة سمك معتبرة .

وقفت أضراسه عن المضغ، وقد صك أذنيه بيان مهم . قامت مجموعة إسلامية متطرفة، بتفجير عبوة ناسفة فى مقهى بميدان التحرير بالقاهرة . وقد ظهر من التحريات الأولي وجود عناصر أجنبية وراءه ..

جلالتك تصدرون بياناً، ونحن سنصدر بياناً . فعلها عبد الناصر، ولكن لم نسمع أن الحسين بن طلال فعلها، أتراه استحى، وقد علم أن الإسرائيليين التقطوا محادثته مع عبد الناصر .

سار صاعداً باتجاه الشاطئ، حيث أغلب الشوارع تصب عليه. وقبل أن يصل إلى الشارع المحاذي للشاطئ الممتلىء بالفنادق السياحية، ذات الشواطئ الخاصة، عرج يميناً حيث تفريعة مسفلتة، تؤدي إلى ثلة حديثة من البيوت ذات الدور والدورين، أقيمت في مدخل العريش الشرقي، على جزء من الشاطئ العريض في هذه الناحية . استأجر حمدى شقة مفروشة، مع أنها خالية من أي فرش . راغبًا في خصوصية . لا تتيحها له الإقامة في استراحة الزراعة، ومقتفيًا شعاعات مرتعشة لشمعة صغيرة فى أحد دهاليز نفسه .. ها .. من يدري .. ربما تخلت صفية عن عنادها .. وتحول الإيجار المفروش إلى دائم .. وهو على أي حال، حتى وهو مفروش، أرخص من الإيجار العادي فى أى مدينة أخرى.

مشى بين أشجار الكافور الباسقة بين البيوت، وقد أطلت من بعض أحواشها أشجار النخيل .

ينزل المنحدر المؤدي إلى بيته، فى آخر البيوت، وبعدها مساحة تمرح فيها الخيل تفصله عن البحر .

هل هذه بقع داكنة، أم خاننى النظر، أولى بيته ظهره ولوح بإحدى يديه، لم يلحظ حركة ولم يسمع صوتًا . دقق أكثر .

طيور نائمة فيما أحسب، من تعب الرحلة . وهو يدلف من الباب، انبثق في ذهنه.. خيبة أن تكون طيور العجاج .

عليه أن يقوم مبكراً، ويحضر أنفاراً لحراسة الأغوار، حقا العجاج ليس له في الزرع ،ولكن .. من يدري .. ماذا سيفعل، وهو الجائع بعد طول السفر من أوربا، حين يجد البردويل خالية من السمك .. ؟! بالطبع لن يجلس على الشاطئ، مثل الصيادين، وقواربهم، إما مقلوبة على الرمال، أو ساكنة، تترك نفسها، لتلاعب الموج بها، وهو لن يذهب مثلهم إلى المسئولين في العريش، للبحث عن حل .. والمسئولون ينهونهم عن صيد الزريعة الصغيرة..ولابد من الانتظار..وهل سينتظر العجاج .. ؟!

فتح حمدي النافذة المواجهة للبحر، طالعته مياه البحر المعتمة على البعد، وظلمة مبهمة . صحا مبكراً أكثر مما أراد . ولكنه لم يركن إلى الكسل ويعاود النوم، وقرر أن يستقبل النهار في جلسته أمام الشباك .. وحتى يقتل الوقت صنع لنفسه كوبًا من الشاى، أخذ يرتشفه على مهل .. وفي غفلة منه تسلل الضياء .. وحين لم يجد أثراً لأي طائر، أدرك مدى إجهاده، كيف لعبت به الهواجس . وأي عجاج والشتاء لم يهل بعد .

لم يكد أول ضوء يفرش شعاعه على الدنيا . على قناة السويس وأشجار الكافور والأكاسيا والنخيل، والأرض الرملية الرطبة بفعل ندي الليل . وبور فؤاد الساجية في أحضان الرمال، الممتدة خلفها على مدى الشوف . ولا تكاد تظهر، ملاحاتها البيضاء، التى جفت مياهها بفعل التهاب الحرارة نهارا، وتلك التى لم تزل المياه تشف عن بلوراتها .

وما زال الضباب القادم من الشمال يتصل بالبحر المتوسط، فيما أطلت رؤوس الأشجار المتناثرة، من طيات الضباب، تنفض عنها نعاسها،

وينحسر الضباب رويداً رويدًا، وتظهر الأشجار بجذوعها وأغصانها المورقة عند التقاء المدينة بخط القناة، وتتسرب شعاعات الصباح. تأمل حمدي مياه القناة الزرقاء، خط رفيع في الملكوت حولها.

وتابع بعينيه أسراب العجاج الرمادية، المائلة إلى السواد. لا يزعج طيرانها شيء. وما زالت حركة الملاحة فى القناة هادئة والمراكب تنتظر فى اتساع البحر أمام بورسعيد. وكلما أسفرت الشمس عن وجودها، برزت من البعد والضباب، أكثر فأكثر، ملامح السفن. وظهرت أخرى لم تشاهد من قبل، ويصبح من الممكن، ملاحظة موجات الماء الخضراء الرمادية، يضرب زبدها حواف السفن القريبة من مدخل القناة .

أحس حمدي رعشة غير محسوسة . لماذا لم يذهب العجاج إلى البردويل وهى قريبة منه، والسمك يتقافز فوق الماء . هل تحط تلك الأسراب فوق الشتلات بالقرب من الإسماعيلية . عليه أن يسرع إليها، ويؤجل التسوق من بورسعيد إلى وقت آخر .

طرد الخاطر المزعج، حاول إقناع نفسه أن العجاج فى طريقه إلى المزارع السمكية فى العبابدة وأم خلف، جنوب الحسينية . لو كنت مكانه.. فلماذا أترك وجبة سهلة، فى متناول اليد، كأنما أعدت خصيصًا له . فالمياه فى المزارع ضحلة، ويمكن رؤية السمك سابحا بسهولة، وبأعداد وفيرة .

أم أن هذه الأسراب، غيرت خط سيرها، وفى طريقها لبحيرة المنزلة، بعد أن سهلنا لها مأموريتها، والتى لمستها بأنفسها فى أعوام سابقة . لقد أزلنا الحامول، وكثيراً من النباتات المائية، كان يختبئ بينها السمك. وجففنا أجزاءً من البحيرة، وعملنا مزارع سمكية عند بحر البقر شمال

القنطرة غرب، حتى لا يعانى العجاج من الجوع وهو فى طريقه إلى بحيرة المنزلة .

وعاودته قشعريرة .. هل بعد أن يشبع من السمك يحلي بالخوخ والموالح فى طريق عودته للمبيت فى سيناء .. ؟!

والشتاء يغري بالسكريات .

لا .. فهى لا تزهر ولا تثمر إلا فى الربيع، وبالتالى لن تجذبه رائحتها.

ولكن .. لعل بعضها لم تسد جوعتها، فما المانع أن تحط على الزرع. دارى قلقه، فهى عند عودتها، سيكون الليل قد شمل الكون وطيور العجاج لا ترى فى الليل .

وماذا بعد أن يقضى على أسماك المزارع السمكية، وهذا أغلب الظن سيتم بسرعة، تحدثنى نفسي أنه لن يستريح لسمك بحيرة المنزلة . وإذا صدق هذا فلن تفوته الأشجار من تحته . كان حمدي يعتزم، بعد التسوق، الذهاب إلى العريش، للاتفاق على الأرض التى ستخصص للشتلات الجديدة . ما فائدة أن يذهب، ولاتكون هناك شتلات .

احتمال بعيد .. ولكنه قائم .. عليه بالإسراع إلى الإسماعيلية، وتكليف العمال بإحداث ضجيج عند أرض الشتلات، إذا طار العجاج فوقها .

أحتاج بنادق صوت . أكتب مذكرة . وحتى نكتب، وحتى يوافقوا، يكون العجاج قد قضى على الزرع .

استخدم ما لديك . الدق على قعور الصفائح القديمة . تشغيل عربات الجيب، وعمل دوريات فى غُدو ورواح .

فَتْح أجهزة الراديو على الآخر .

فى الطريق إلى الاسماعيلية، استشعر ضيقًا . سيقابل بسخرية، واتهام أنه يحبكها أكثر من اللازم. عليه أن يتحمل .

فى مديرية الزراعة فوجئ بما لم يكن فى حسبانه :

– هذا عمل المعنيين بالبحيرات والسمك، أنت مهندس زراعى .

تذرع بما وطن عليه النفس من هدوء . ولِحَظه وجد استجابة من العمال، فأوصاهم بما ينبغى عمله، وقرر أن يذهب إلى العريش قبل انتهاء النهار، حتى لو تأخر عن الموعد الذى حدده لهم فى الإشارة التليفونية .

فضل عبور القناة من المعبر، عند الصالحية اختصاراً للوقت . وجد صفًّا من العربات أمام المعدية . نزل، ليشرب شيئًا مثلجاً، يطري على معدته . رفع الزجاجة إلى فمه . طالعته سماء لبنية صافية، سرعان ما ظهرت عليها بقع رمادية وسوداء .

أسراب من العجاج . تحركت المعدية، وقد أخذت كفايتها من العربات. خمن أن الدور سيصيب عربته فى المرة القادمة . أبطأت المعدية فى عرض القناة، متيحة لناقلة نفط قادمة من الجنوب، المرور، أطلقت الناقلة صفارتها، تنبيهاً وتحيةً .

أسقط سرب من العجاج، كان يعبر فوق القناة، أكياساً جوار معدته يخزن فيها السمك . سقطت قذائف العجاج، فوق المعدية، وحولها فى الماء، والناس يتصايحون. تساءل حمدي . هل سقطت الأكياس، وقد انزعج السرب من صفارة الناقلة، أم أن طعم السمك فى بحيرة المنزلة لم يعجبه، حيث يصرفون فيها ماء المجاري . وتطلع السرب إلى وجبة نقية من بحيرة البردويل، حيث لا صرف صحي، أو زراعى .

أم أن الحمل الزائد يعوقه عن الطيران بسرعة، وخشى أن يدهمه

الظلام، قبل أن يصل إلى بغيته . لكن .. لماذا عادت طيور العجاج مبكرا، ولماذا لم تلق باقى الأسراب حمولتها.لعل الأسراب الأخرى لم تقرب أسماك بحيرة المنزلة، وهنأت بأسماك المزارع السمكية .

مرقت الناقلة باتجاه البحر الواسع . وانسابت المعدية فوق الماء إلى الشط الآخر.

أكمل حمدي زجاجته . وأنعشت وجهه نسمات طرية، من فوق مياه القناة، بها نقاء، لاشك قادمة من فوق رمال سيناء .

صعد الباص الذى يستقله حمدي إلى المعدية . هل يلتزم العمال بوعدهم، ولايغادرون الأرض حتى أعود .

على أية حال، لا داعى للانزعاج، العجاج أدى مهمته، وفى طريقه إلى سيناء. ولكن .. إذا لم يفعلها اليوم .. قد يفعلها غدا .. مع أول ضوء، يطير عائداً، إذا كانت المزارع السمكية قد نفد ما بها، وسمك بحيرة المنزلة لا يروقه ..

أزاح ستارة النافذة، التماسًا لضوء الأشعة الغاربة، لمح أسراب العجاج. تسابق العربة .



9

عزمه على الغداء .

هل حدث منها شيء، أعطاه انطباعًا باهتمامها بهذا الشاب . هل صدر عنها مالم تنتبه له . هل تمادت بحسن نية، وظن أحدهما، أو كلاهما، أنها تعنى شيئًا.

بنت .. تلعبين على من .. ؟! .. لا والله .. لا يكون قصدي . ربما .. جزء فى النفس عابث، و لا يعني أكثر من التدلل . ربما يحكم المزاح، وأتمادي .. ولكن .. هل يصدقني أحد .. دون تعمد منى، فإذا ما لمحت ظلًا، يوحى أن الآخر، أخذ الأمر على محمل الجد، يتوقف، تلقائيًا، كل شيء. وكثيراً ما لمت نفسى، ووعدتها بعدم الرجوع إلى ذلك ثانية .. لكن، يحدث، أن أجدني متلبسة، مرة بعد أخرى.

قال : رفعنا العلم . تلاقت كفى بكفه، انتشاءً، لكنني لم أقصد .. لا تقصدين. هل لمسه الكف الدافئ، وإزالة الكلفة بسرعة، تركا أثرًا فى نفسه. أم هي نظراتى دون أن أعي. عندما سمعت الإطراء، فور رؤيته للكعكة، عرفت مما انعكس فى عينيه، تجاوبه مع نظراتى الفرحة، المنتشية، لكن هذه النظرات، شيء طبيعى بالنسبة لي، حين يمتدح أحد عملاً لي. فإذا كان هو، أو أخي، قد فهم شيئا لا أعنيه، فهذا شأن كل منهما.

لكن .. لماذا عزمه على الغداء.. ؟ .. هل ليتيح لهما فرصة تكرار اللقاء، أم توثيقًا لعلاقته به. وأين ذهب كرهه للضباط . كثيراً ما صرح لها أن الغباء أنواع، أشده ضررا: غباء العسكر .

وفجأة انبثق خاطر فى ذهنها، وقد استعادت لون الكعكة النحاسى، المضىء، يشبه ما يحدث لجسد الإنسان فى المصيف، حين يتعرى للشمس، ويلفحه الهواء النقي المشبع باليود، وقد تحرر من الرداء، وانطلق على سجيته فوق الرمال، وقد تفتحت المسام للنشوة . ولعل هذا سبب قصص الحب الكثيرة، التى تنشأ فى المصيف، وتنتهي بانتهائه، وقد زال الأثر الساحر . وما هو بالحب لكنه الإعجاب، وتوق الجسد للتماس فى رحاب الطبيعة . هل يكون ما حدث في حرب 73، ترك أثراً مشابها فى النفوس . الإعجاب بما صنعه الجنود، يجعل النفس تتوق لحب أي شخص تلاقيه منهم، فما بالها وهي التى تابعت ما فعله هذا الضابط لأخيها، وسماعها من شخصه لما فعله فى المعركة. ولعل هذا ما جعل أخاها، يتناسى رأيه القديم فى العسكر، ويدعوه إلى بيته . أم تراه غض الطرف عما يعتقده، وقد وجد فيه عريسًا لقطةً، خاصة وهو لايميل إلى صفوت . أو لعل حفاوتها به، فعلت فعلها فى نفسه، وأمل أن تتطور لما هو أكثر .

كانا، ما زالا، يتحدثان عما حدث فى القنطرة . وتساءلت فى نفسها.. هل كلما تقابلا لا تغادرهما هذه السيرة . وهل سيحكم عليها بسماعها (عمَّال على بطال)، دون الحديث فى أمور أخرى.

قال عبد السلام :

– لم يتركنا الإسرائيليون نستريح لحظة واحدة بعد فتح القنطرة، كما تعلم، شنوا هجوما فى الشمال من الإسماعيلية . هاجموا من اليمين واليسار، واخترقوا من الوسط، وحدث نتوء أمام كوبري الفردان، وتمكنت دبابة من الوصول إلى مسافة كيلو متر واحد منه .وجد قائد الجيش الثانى الموقف خطيراً . لو نجحوا سيصلون إلى الإسماعيلية.

دفع بقوات جديدة من الغرب وطلب من قوات القنطرة شرق التقدم وتوجيه ضربة إلى جنب وظهر الدبابات التى تقوم بالهجوم على الجانب الأيسر للفرقة الثانية. ثلاثة أيام كاملة .. كادت أرواحنا فيها تطلع .. حتى أمكن وقفهم .

قال حمدي :

- هم استردوا أرواحهم، وأنت بدأت تفقد روحك .

- تقول فيها .. أعطيت جنودي طباشير أبيض، وأمرتهم بوضع علامة x على الدبابة التى يفرغوها من الجثث، وطلبت قوارب إضافية لنقل المصابين إلى الغرب، وكنت أمسك قلبي بيدي، خشية مزيد من الجرحى.

- لماذا وقد توقفت المعركة .

- يا سيدي .. دمروا موقع القيادة فى القنطرة، ورفض القائد تغييره، رغم أنه خطأ عسكري . وأصر على الوجود به، لرفع روح الجنود المعنوية، غير آبه لظهور صواريخ جديدة، لم نرها من بداية القتال . صواريخ سمارت، ومافريك جو أرض، والصاروخ الأخير، لم يستخدم، من قبل، ويخترق دروع الدبابة مهما كان سمكها .

ضحك حمدي .. واسترسل فى الضحك .. ولم تجد إشارات عبد السلام بيديه لإيقافه .. ولكن زغرات حمدية قطعت استرساله .. ووجد نفسه، ملزما، بالتوضيح:

- فى الوقت الذي لم تخفت فيه أصداء المعارك، والأمريكيون يزودونهم بآخر جيل من الصواريخ، خرج السادات بعد أول لقاء مع كسينجر، إلى المؤتمر الصحفى، مبتسما بادئاً كلامه بـ « صديقى هنري »فأصاب الناس بالدهشة والذهول .

ضحك عبد السلام، واسترسلت معه حمدية، وقالت مغيظة أخاها :

- هو صديقه .. لماذا أنت زعلان .. ؟!

تجاهل عبد السلام ملاحظتها، واستمر :

- ورغم ذلك تمكنا من الوصول إلى الطالية، وطوقناها، وسيطرنا على ثلاثة مواقع، والتحمنا مع قوات الفرقة الثانية، وكونا رأس كوبري الجيش .

قال حمدي بنبرة تقريرية :

- وحق عليكم التقاط أنفاسكم .

- أبداً .. فمعركة الطالية ظلت تتجدد حتى يوم اثنين وعشرين من أكتوبر . هل تتصور أن قائد القنطرة كان يقوم بجولات استطلاعية بنفسه، ومعه طواقم صواريخ، ولا يترك ذلك لضابط صغير، وفي إحدى هذه الجولات، استولى على دبابة أمريكية الصنع، اتضح من عدادها أن المسافة التى قطعتها، لا تتجاوز المسافة من العريش إلى القنطرة غرب.. ومعنى ذلك أن الأمريكيين أحضروها من إحدي قواعدهم وأسقطوها مباشرة فى أرض المعركة .

جهم وجه حمدي .. لماذا لم تتجدد معركة العريش.

وصلت القوات الإسرائيلية بسرعة إلى العريش فى أول أيام الحرب .. منتهزة ما ساد من هرجلة فى الأيام الأولى من يونيو 67 .. قوات تتقدم إلى الأمام .. مدرعات تنسحب إلى الخلف .. إقامة حفر، تم تركها والتقدم إلى مواقع أخرى، تحميل المعدات وفك أجزاء المدافع ووضعها على العربات، وصعود الجنود فى لهوجة معها .

كان المعتقد أن إسرائيل ستضع مجهودها الرئيسى على المحور الجنوبي، الكونتيلا العريش، فحشدت مصر أغلب قواتها على هذا

المحور. ثم جاءت معلومات أن إسرائيل ستركز مجهودها الرئيسي على المحور الأوسط، الحسنة سدر الحيطان، حتى لا تكرر ما فعلته في عام 56. وكانت تقارير المخابرات تؤكد اهتمام إسرائيل بمنطقة إيلات والجنوب. وتوالت تقارير تفيد عن نشاط إسرائيلي في النقب الجنوبي. وأكدت مخابرات العريش، عزم العدو على الهجوم من الاتجاه الجنوبي.

ارتبكت القيادة المصرية .

وفي الخامس من يونيو، كانت أرتال الدبابات تقتحم المحور الشمالي، وتزحف على الطريق الساحلي إلى العريش، غير ملقية بالاً لتصريح الرئيس الأمريكي بضرورة ضبط النفس .

- ها .. أين سرحت ..

قال بصوت مفعم بالمرارة :

- دباباتنا حملناها على قطار العريش من رفح إلى الخلف قبل بداية الحرب مباشرة. وبعد قليل، كأنه يحدث نفسه :

- لو احتفظنا بالممرات، حيث الطريق ضيقة، ملتوية، تحيط بها جبال صخرية وعرة .

قال عبد السلام :

- تقصد لو وصلنا إلى الممرات .. طبعا لتغير الوضع .. من يسيطر عليها، تنفتح أمامه الطريق حتى تركيا .

سمعوا دمدمة جرافة . أسرعت حمدية إلى الشرفة، وعادت :

- يبدو أن عساكر شرطة المرور يزيحون عربات من ميدان الشيخ حسنين ..

غطى حمدي وشقيقته آذانهما بأكفهما، وحين أصبح ممكنا الكلام، قال عبدالسلام ضاحكاً :

-لا صوت أحلى من صوت الدبابات العابرة .

وقال حمدي :

- لماذا لا يحضرون ونشاً بدلاً من هذه الجرافة المزعجة .

ضحكت حمدية :

- قال يعنى الونش أخف

رد حمدي :

- على الأقل .. صوته مكتوم .

قال عبد السلام :

- لعنة الله على الصوت المكتوم . دبابتان برمائيتان غرقتا فى الماء، لم ننتبه لارتطامهما المكتوم، لولا أن نبهنا أحد جنود الحراسة على حافة القناة، فأسرعنا نبحث عن ونش ينشلهما .

قالت حمدية :

- اوع .. يكون ونش البلدية .

ضحكوا جميعا، واستمر عبد السلام :

- لم يكد الونش يعبر فوق الكوبري، حتى أصابت الوصلة أمامه، قذيفة مباشرة، حمدنا الله أن الونش عدى منها، لكن .. لابد من تبديل الوصلة . احتياطى قطع الكبري مخبأ على الشاطئ الغربى . أرسلت إشارة لتحويل سير الونش إلى الكوبري الخاص بالفرقة، بينهما خمسة كيلو مترات .

واستدعيت المهندسين لإصلاح مرساة الكوبري المعطوب، عند شاطئ سيناء، حيث غرقت الدبابتان . وكان قائد القنطرة، قد طلب جنوداً من الفلاحين، لتسوية الأرض أمام المرساة، وأن يكونوا تحت مباشرتى .

رد عليه قائد الفرقة :

- تريد عمل تنظيم خاص بك، يتولاه النقيب عبد السلام فاروق ..

نطقها ونظر إلى حمدي، وعلت ضحكاتهما، وشاركت حمدية متأخرة.

قال حمدى :

- الحمد لله .. ليست لى صلة بقائد القنطرة .

رد عبد السلام :

- ولكن .. لك صلة بى

أغرق حمدي فى الضحك، وهو يقول :

-وسرعان ما يربطون المسألة .

قال عبد السلام :

- خَبرهم قائد القنطرة بنفسه . كنت معه أثناء حرب الاستنزاف «ملازم أول» مرة استمر الضرب على مواقعنا أسبوعين متواصلين، وسرت معه نتفقد الجنود. سأل أحدهم :

- ألست خائفًا؟!

- الرب واحد والعمر واحد .

وعند اقتحام أحد الحصون، انفجر لغم فى فرد من المهندسين، لو تراجعوا سيكونون هدفاً سهلاً لمدافع الحصن . فوجئ بالجنود الفلاحين ينامون على الأسلاك الشائكة، وزملاؤهم يعبرون فوقهم، ويقتحمون حقول الألغام، والقذائف تسقط حولهم.

خرجت حمدية، في خفة، لتطمئن على أمها فى الشرفة، وهي تردد فى خاطرها سيظلان يقولان ويعيدان . تطلعت إلى الأفق . لاح لها برج كنيسة مارجرجس المخروطى، المضلع فى انسياب، وتلاشت ملامح قمة الصليب المعدني فى وهج ضوء الضحى، وبانت شرفة مئذنة جامع

السنيين متكئة عليها، وقد علتها شرفة ثانية، والمئذنة، عودها يستدق، كأنها مسلة فرعونية، كلما ارتفعت، حتى أصبحت قمتها نقطة، فوقها هلال أخضر كاد لونه يضيع فى الزرقة خلفه .

- جهزت الأكل .

لم تلتفت إليها .

- اسمعى يا ست ماما، حمدي يجلس مثل الباشا يسمع حكايات، وأنا يطلع عيني في المطبخ .

- يا بنت خلي عندك خشية .. عندنا ضيف

ردت في عصبية:

- ضيفه هو .

وتركتها، دون أن تلتفت . نزلت إلى الشارع . تخطت ميدان الشيخ حسنين، وتركت سوق الخضراوات عن يمينها، وسارت قدماً .

لن أقرف نفسي بإحضار لحم وخضراوات، وأظل طوال النهار، أجهز.. كفتة، ومحشياً من ورق العنب والكوسة والفلفل .. لا .. كيلوان من السمك، أشويهما في أى فرن، وينفض المولد . وسبق أن نبهت أخي إلى ذلك، استنكر، لأن ضيفه مقيم الآن في بورسعيد، والسمك أسهل أكلة عندهم، وزمانه قرفان منه .. لا شأن لي بهذا. ولتكن بورسعيد، والسمك أسهل أكلة عندهم، وزمانه قرفان منه .. لا شأن لي بهذا. ولتكن هذه رسالة إلى أخي، حتى لا يعزمه ثانيةً.. وإذا أراد .. فعنده المطاعم . ورسالة له، حتى يعرف أنني لست مهتمة به بشكل شخصي .

وصلت إلى شارع بورسعيد، حيث المحال التجارية، تواجه كنيسة مارجرجس، وتجاور جامع السنيين، بامتداد الشارع، وتعرض مقتنياتها من الملابس الرجالي والحريمي وأدوات الزينة والأقمشة.

ماريوكا .. أراهن بديني وأيماني، أن يدلني أحد على معني لهذا الاسم، ربما كانت مايوركا .. يخيل إلى أنها اسم مدينة أو ما شابه . فري ستيل .. ستيل وعرفناها .. أسلوب .. وفري .. هل بمعني حر .. الأسلوب الحر يعني .. أم أن المقصود بمعني جداً .. فتكون تجاوزاً الأسلوب الذي على آخر طراز .. أى طراز هذا وكلها من ألياف صناعية، تسبب حساسية للجلد، وتصفر كلما نزعها الإنسان عن جسده .

نوفوتيه .. بوتيك . هل سينشكون في ألسنتهم لو قالوا .. محل كذا ومحل كذا .. سنتر آسيا .. يعني .. لو قالوا مركز آسيا .. ماذا سيجري. وهل اختفت الحروف العربية، أو عز الحصول عليها حتي يكتبوها بحروف إنجليزية . وهل في استطاعة كل العابرين قراءتها .. حكم . . .

ترى جوليه .. خلاص .. أصبحنا فرنسيين .. كم سائراً في الطريق سيعرف أن معناها حلو جداً، أم أن المعنى ليس مهمًا، المهم وقع الكلمة الأجنبية، عند ترديدها .. لا .. لا يصح .. ستكون العزومة في وجوهنا غير لائقة .

عرجت إلى شارع ترابي بجوار الكنيسة، يفضي إلى سوق الخضراوات من الخلف، وعلى ناصية السوق جزار . سارت عدة خطوات .. رجحت أن تكون فري بمعني حر . وعادت، لتلف خلف عمارة الشيخ حسنين، في وسط الميدان، في طريقها إلى سوق السمك .

وضحكت وهي تردد .. خيبة لو كان يحب السمك .

عندها تكون الرسالة موجهة إلى أخي، ويستطيع هو أن يُفَهمه بصنعة لطافة . تريد محشياً . حاضر، عندنا باق منذ الأمس محشي كرنب . يا خبر. لقد نسيته في حلته على البوتاجاز، ولم تسك عليه في النملية . وخشيت أن تكون أمها عثرت عليه، وبدأت البلبعة غير عابئة بنظامها

الغذائى . وتذكرت يوم صنعت الكعكة، وكان هذا الضيف موجوداً أيضاً، ونزلت لشراء فاكهة، وحين عادت أحست بجو غريب في المطبخ، وفجأة تنبهت.. الكعكة .. أسرعت إلى الشرفة، حيث جلست أمها في الشمس ترمم عظمها، وحين هربت بعينيها منها، تيقنت من صدق ما توقعته .

- هاتِ

وكأنها لم تسمعها، سرحت بعينيها إلى الأفق.

بلهجة منذرة :

- ماما ..

بنصف ضحكة :

- مالك يابنت .

- لا تعمليها عليَّ

كأنها تنفض ملابسها :

- فتشينى .

تطلعت حولها فى الشرفة، لا أثر لشيء، ومع ذلك هى متأكدة من فعلتها. فجأة صاح بائع جوال :

- الله أكبر .

نظرت، فوجدت الرجل قد أمسك بكيس بلاستيكي، وفى يده قطعة من الكعك. تجمع حوله بعض المارة، أخذ قضمة، وأعطى كلاً منهم على قد ما قسم، وهم يضحكون.

أدركت حمدية ما حدث، أخذت الأم قطعة من الصينية، وتسللت إلى مكانها فى الشرفة، وحين أحست بوقع قدميها، ألقت المشابك من كيسها البلاستيكي ووضعت فيه ما بقى منها.وفى لهوجتها وهى تعلقه، على حبل الغسيل، أفلت من المشبك.

تطلعت أسفل كرسيها فوجدت المشابك، تداريها بقدميها . أرادت أن تزعق فيها حتى لا تكررها . ولكنها توقفت أمام نظراتها المنكسرة. محرومة من معظم الأطعمة .. هذا للسكر .. وهذا للضغط، وهذا لا تتحمله المعدة . حتى أصبحت جلداً على عظم، اكتفت بإنذارها.

- أنت حرة .. مضاعفات السكر .. صعبة .

- يا ستى ..

اغتاظت، وأردفت، ملمحة إلى شغفها بالمسلسلات التليفزيونية :

- تؤدي إلى العمى .

تحيرت حمدية .. هل تسرع إلى البيت لتلحق بأمها، خشية وقوع المحشى بين يديها، أم تذهب لشراء السمك وشيه أولاً؟ تطلعت إلى ساعة يدها، وأسرعت لتلحق بالسمك طازجًا، وهى تدعو الله أن يسترها مع هذه الست المتعبة .



10

اقتعد حمدي الأرض . وركن بظهره على جذع شجرة أكاسيا، ومدد ساقيه . سرح ببصره إلى زرقة البحر العميقة . هل يزرع باقي الأغوار المخصصة للخوخ الآن. أم ينتظر نتيجة ما غرسه . فضل الانتظار .

وضع أحدهم حمارًا من طين، فى حوض من مزرعته، التى أسموها مزرعة ديدي، تدليلاً لاسم حمدي، أو تشبهاً بأسماء الحراس التى يتنادون بها، دون أن يعوا، وسأله لماذا لم تزرع باقي الأحواض، كان قد أحضر أعشابًا وجدها جوار الأسلاك الشائكة، زرع بعضها، وتريث حتى يرى النتيجة، فأجابه : لو صبرت لرأيت.

فوجئ بسعد الدري جواره . أخذ قليلا . قال :

- مئة مرة قلت لك .. اجعلني أحس بك .. تحمحم .. اعمل أي صوت.

رد سعد وقد اعتراه الخجل :

- صدقني .. لا أقصد ..

قال حمدي :

- لا جدوى من الكلام معك .

لمح ندا على البعد، أومأ برأسه ناحيتها وقال :

- عربن لنا على شاي .

- لا يوجد شاي ناشف .

- ألست قادمًا لتوك من العريش.

- لم أكن أعلم .

اطلع على رفح أقرب .. واسأل الجماعة إذا كانوا في حاجة إلى شيء.

تردد سعد وهو يسير .. ابتلع ريقه وقال :

- موضوع .. أود الحديث معك عنه .

سرح حمدي ببصره .. اصطدم بمستعمرة ياميت، لم يبق فيها حجر فوق حجر. لم يتركوا منتصبًا سوى المعبد، كشاهد على تلك الخربة وسط الصحراء، وتساءل في نفسه ما الذي يجعل الإنسان يدمر بهذه الطريقة .

- عندما تعود

إذن ما رآه بالأمس، له ما وراءه . حاول أن يقنع نفسه، أنه استلطاف وتسلية لقطع الوقت، لا يدري لماذا أسرعت دقات قلبه . أراد أن يعطى نفسه مهلة للتفكير. غادر سعد بتثاقل، وكلمات حمدي تشيعه :

- على الله تحضر كل شيء، وتنسى الشاي .

وأتبع بضحكة ممطوطة، لم تجد استجابة من سعد، فباخ، وطوح بذراعيه إلى الخلف، محيطًا جذع الشجرة، وضاماً ظهره لها . كان يجلس عند الأسلاك الشائكة، بالقرب من مزرعة ديدي يسمع وشوشة البحر ولا يراه . فرش أمامه ورقة مأخوذة من شيكارة أسمنت . فرد فوقها تفل الشاى، المتبقي في القزان، بعد توزيع شاي الصباح . آملا عندما يجف أن يستخدمه مرة أخري في ليل العنبر الطويل، وضع ثقالات من الحجارة الصغيرة على أطراف الورقة الأربعة، مخافة أن يعبث بها الهواء، وعيناه لا تغفلان عن حركة الزملاء، حتى لا يغافله أحدهم، ويأخذ حفنة من الشاى .

خُيل إليه أنه سمع دبيباً، تلفت حواليه، واستغيب سعدًا.

أمس، فى الظهيرة، بينما يستريح في ظل شجرة، سمع صوتًا لناي يعزف لحنًا شجيا . اقترب من مصدر الصوت، لدهشته، لمح سعدًا خلف سور من فروع الأشجار المتشابكة يعزف على الناى . متى .. وأين تعلم هذا السعد، هذا اللحن الجميل .

هل اختلط بالناس هنا، وتعلم منهم عادة المغازلة بين السينا وية، وأنا الذي ظننته يعيش على الها مش .

لم يظهر حمدي نفسه، وسرعان ما سمع من خص فى الجهة الأخرى، لحنًا، كأنما هو رجع الصدى للحن سعد، ولم يصعب عليه التخمين . ففي هذا الخص تستريح ندا ساعة القيلولة .

ظنها مداعبة من ندا ولا تقصد شيئاً . ولكن عندما زغلل عينيه شعاع، عكسته مرآة صغيرة، أدرك أن سعداً حاز رضا ندا، وها هى ترسل إشارةكالمألوف عن الفتاة هنا، ليحضر إليها، لو صدق ظني فقد تحادثا، واتفقا، وها هو سعد يود مفاتحتى في الأمر. إذن فالأمر جاد . كيف بالله فات عليك يا سعد، أنهم لا يسمحون للفتاة بالزواج من خارج قبيلتها، فما بالك وأنت صعيدي من المنيا ..؟!

وكيف طاوعت ندا نفسها، ودعته للقائها، وهي تعلم أن أهلها لا يأمنون غريبًا على بناتهم . هل سيطر عليهما الحب، فضربا عرض البحر، بأي محظور .. ؟!

ولماذا صفيتي، لم تستجب لى، وهي تعلم علم اليقين، صدق مشاعري نحوها..؟

أتراها، تغيظني لأنني لم أوافق، على زواج شقيقها صفوت من شقيقتى

حمدية. كثيرا ما أوضحت لها : هذه نقرة .. وهذه نقرة . أتراه الكبرياء يمنعها من الموافقة على الاقتران بمن يعترض على شقيقها .

- الشاي .

انتفض حمدي .. وحين رآه، تكلم وهو يصطنع البكاء :

- نفسى .. أحس بك .. ؟!

مد يده بكيس شاي .

أتراه، معذوراً هذه المرة . استمر فى تصنعه، وإن تصدعت سخريته، وأطل حنان كان مستتراً :

- لي .. أنا .. ؟!

استدار سعد، ليعطيه ندا . استوقفه حمدي بإشارة من يده، وغطس فى عينيه:

- اوع .. تكون ندا ..

ظل سعد محتفظاً به فى عينيه، وأومأت رأسه بالإيجاب .

آه .. لابد من مخرج، قبل أن تصبح سيرتهما على ألسنة السينا وية . ومن نظرات سعد، وضح له أنه لن يمكن إثناؤه عن الفتاة . تذكر صديقه محمد عايش، ودعا الله أن تكون ندا من قبيلة الفواخرة مثله .

حمل إليه سعد صينية، عليها كوبان من الشاى، وحين رأى كوب ماء أيضًا، أدرك أنها لمسة من ندا . سأله بغتة :

- فواخرية

- نعم

هدأ وجيب صدره . تناول كوب شاى، ونفخ سطحه مبردًا، ومتحاشيًا نظراته المتسائلة.

اقتربت ندا . هل لتأخذ الصينية، أم متلهفة لتسمع ما يقولان .

أحس حمدي أن الفتاة الواقفة أمامه، لم يرها من قبل، أو لم يتمكن من رؤيتها جيدًا كما تلوح له الآن . خداها خوخة وانشطرت نصفين . بياضهما مورد، واحمرارهما فى نعومة وسخونة الزغب تحت جناح الطائر . شفتاها نصفا برقوقة.. احمرارهما من احمرار العقيق مشعتان، متقدتان . نظرت إلى سعد، وانبعثت ابتسامة . أحس حمدي أن الابتسامة تكاثرت إلى مئات الابتسامات، تمامًا، كما يحدث حين تلامس ريح الصباح الهادئة، صفحة ماء البحر الزرقاء الهائئة بملاطفة شمس هينة، فترتعش صفحة البحر بابتسامة، سرعان ما تتولد عنها آلاف الابتسامات، تومض أشعة ذهبية، يمس سناها أغوار النفس فتسبح فى حلم يقظة.. آملة.. واعدة .. طفولية .

أحس بحنين طاغ إلى صفية . وتعجب لأمرها معه . لماذا كانت تضيق عليه الخناق إذا ضبطته ينظر لامرأة عابرة، أو تلكأ نظره فى المقهى، عند فتاة جالسة . مع أنه كلما تملى الفتنة، امتلأت نفسه بالوجد، وهاجت جوانحه، وأقبل عليها بشوق لا يصد .

آه .. لو تعرفين يا صفية ..!!



11

تردد صفوت .. هل يتبع نصيحة حمدية، ولا يذهب إلى حمدي، أم يجازف ويذهب إليه . لاحت له نظرة الخوف في عينيها، خشية أن يتطور النقاش بينهما، وتحدث جفوة . جره حمدي في الكلام . قال صفوت :

- بعد التاسع من أكتوبر، جاءت الأوامر أن مهمتنا انتهت، وعلينا العودة . انتفض حمدي :

- بعد أن سيطرتم على الجبال والمضيق .. ؟!

خفض صفوت نظراته، فتابع حمدي :

- السادات فى حسابه حرب محدودة فقط، ليبدأ التفاوض .

رد صفوت :

- ربما قدراتنا، لم تسمح بأكثر مما فعلنا .

قال حمدي :

- لتكن حربا محدودة، ولكن كخطوة على الطريق إلى فلسطين عربية، ومما اتضح فإنها الخطوة الأولي والأخيرة .

أفصحت نظرات صفوت عدم استيعابه لكلماته، فتابع :

- قوات الثغرة كانت فى أيدينا، فلماذا تركناها تفلت .. ؟!

- أمريكا ستتدخل .

- كسينجر ضحك عليه .

ضحك صفوت، وردد فى نفسه : كان معجبا بالسادات .. خدعهم وأعطاهم..

- سأجاريك .. أكلها السادات بمزاجه، لأن عينيه على المفاوضات.

حتى لو كانت عيناي على التفاوض، فلماذا لا أقوي موقفي، وأضعف العدو مستقبلا . أدمر ثلاث فرق مدرعة، قلب الجيش الإسرائيلي، كانت فى غرب القناة، وأكسر نفوسهم.

رافق بعض حاخامات اليهود، ومعهم بعض الجنود الإسرائيليون وعدة كلاب، جاءوا بعد الحرب للبحث عن قتلاهم . كانت معهم صور لدباباتهم المدمرة التقطت جواً . حددوا لهم مئة متر حول الدبابة المدمرة، ليفتشوا فيها . تتشمم الكلاب الدبابة، وتنطلق .. إذا توقفت ونبشت، أسرع الجنود إلى الحفر، وأخرجوا الجثث .

وقف أحد الحاخامات مصعوقا : جثة ضابط وذكره فى فمه ..!!

جاء القائد للاطمئنان على سير العمل . أخبره صفوت أن المهمة كان ممكن الانتهاء منها فى ساعة زمن، ويحملون قتلاهم وينصرفون . لكنهم جلسوا، وتناولوا الطعام والمثلجات . وأقاموا احتفالاً، وعزفوا موسيقى جنائزية .

جاء أحدهم إلى القائد، وأبدى رغبته فى التقاط صور له معهم . تأملهم القائد مليًا، وقال :

- مع الكلاب فقط .

قال صفوت :

- كانوا على وشك محاصرة السويس والجيش الثالث .

قال حمدي :

- وكنا نحاصرهم أيضاً .. أنت نفسك قلت لى أن الكتيبة 143، احتلت جبل عتاقة لتمنع القوات الإسرائيلية من الاتجاه إلى محور السويس القاهرة .

قال صفوت فى صوت خفيض، كأنه يفكر بصوت مسموع :

- من يحاصر من .. ؟!

- حين يندلع القتال .. يُحسم الأمر .

جاء صوت حمدية :

- ألم تجوعا .. ؟!

قال حمدي :

- تأخرت رئيستك ..

أطرق صفوت، وقد عضه الجوع بغتة . أحضروا لنا علب خضراوات باللحم. وكلما ظننا أننا شبعنا، عاودنا الجوع ثانية . أمرنا القائد، أن نكف، وإلا انفجرت بطوننا . طلبنا ماءً، وكنا قد طرحنا من الشدة أنابيب بلاستيكية، بها ماء معقم.

لمح على وجه حمدي، نفس السؤال، الذي كاد ينطلق من ألسنتهم، وهم في طريق العودة، إلى رأس كوبري الجيش الثالث عند عيون موسى، يسيطر عليهم الأسي: لماذا لم نستمر .. ؟!

لابد من الذهاب إلى العريش وحسم الأمر . يعلم أنها مهمة بغيضة، خاصة وقد عرف رأيه فيه، مما انتثر من كلام حمدية . أخذ عليه أنه عسكري مستبقي . هذا العسكري المستبقى وصل إلى رتبة رقيب، وهذا نادر الحدوث بين المجندين . لا ألومك، فالمجند الذي يتطوع بعد انتهاء فترة تجنيده، ينظر له المجندون، على أنه لا أهل له، وإلا ما قبل المرار وتطوع في الجيش، وهم ما يصدقون أن تنتهي مدة خدمتهم . كان يعمل في ورشة لحام أكسجين، بعد حصوله على الدبلوم، حتى طلب للتجنيد، ظل ست سنوات كاملة مجنداً قبل الحرب . وفي أثنائها توفيت أمه . هل كان يترك نفسه عالة على صفية، بعد تركه الجيش، حتى يوفق إلى عمل، خاصة والتعيين في الحكومة موقوف، وكانت صفية خارجة وقتها من

زيجة فاشلة، ولم يرد أن يحملها همه . هل كان يذهب إلى أخيهما الأكبر، المقيم في بورسعيد، وعنده أولاد في الجامعة .

على أية حال، ها هي السبعة سنوات، مدة التطوع، قاربت النفاد . ولعله بالمكافأة، وبما أدخره، يستقل بنفسه، ويفتح ورشة للحام بالأكسجين، في المنصورة، حيث علم من حمدية أن صناعة قطع غيار السيارات، مزدهرة منذ توقف الاستيراد أيام الحرب العالمية الثانية، والآن ازدهرت بجوارها صناعة ماكينات ضرب الأرز وعصارات القصب، ومناشير الخشب، وكل هذا يحتاج لحامًا بالأكسجين .

لا يحق لك أن تعايرني، ولا يحق لصفية، التى تعايرنى لأني لم أنتهز فرصة وجودي في الجيش وأذاكر ثانوية عامة، كما فعل كثير من زملائى، وألتحق بالجامعة، وأكون جامعيًا مثلها ومثل أخي الأكبر .

ماذا ستجدينى الشهادة الجامعية، وأنا أرى أخي يستجدي طوب الأرض ليكمل تعليم أولاده .. ؟! عِدة أيام عمل فى أية ورشة تساوي مرتب السيد خريج الجامعة . ولماذا أُجبر نفسى على دراسة نظرية وأنا لا أحب إلا الأشياء العملية.

فعلا يا سيد حمدي، تليق بك هذه الصفية، كلاكما قلبه حجر، وهل أنسي موقفها فى أيام أمى الأخيرة، وهي فى حاجة لمن يسندها إلى الحمام، ولمن يطعمها، وهى تصر على إرسالها إلى أخي فى بورسعيد، ليتحمل نصيبه من تعبها، كما تقول.

- البنت أولى بأمها
- هو أيضا ابنها
- تُكشف على غريبة .. زوجته ..

هزت كتفيها، وخرجت .

ولست أدري، هل سمعتها أمنا أم لا . لكني وجدتها ولم تملك نفسها، هل تعرف هذه الغبية ماذا ألم بي، وماذا أحست به الأم، وأنا أنظف عورتها، بينما تهرب بعينيها. يجب المواجهة، دون أن تهرب عيناي من عينيه، ويجب أن يسمع كلامي .. ربما غير رأيه .. حتى الآن لم أعلن فكري بوضوح عن الشقة، فلن أتزوج فى شقتهم المتداعية.

قبل تركه الجيش، قدم طلباً للحصول على شقة في المنصورة، مكافأته من الجيش، وما ادخره أثناء تطوعه، طبعاً لن يكفيا للحصول على شقة ومحل في وقت واحد . كانوا حاجزين فى مجلس المدينة عمارتين للقوات المسلحة . أعطوا الضباط، ولم يصب ضباط الصف من الحب جانبًا . على أية حال . المحل يحضر عشرين شقة . سوف تدبر، المهم أن يكون لي عمود أرتكز إليه .

أيام حرب الاستنزاف، جاء فريق من الصاعقة على طريق أبي عمود، إلى موقعنا . عبروا القناة ورفعوا العلم . التقط الإسرائيليون، تهليلهم بعد عودتهم. في الصباح بدأت المدفعية الإسرائيلية فى القصف . كانوا قد احتاطوا للأمر، بعمل حفر أسطوانية . وحفروا تحت الدبابات خنادق صغيرة، غطست فيها أثناء القصف، الذي استمر طوال النهار . وفي اليوم التالي أشعلت الطائرات الموقع كله بالنابالم. غطوا الفتحات الأسطوانية حتى لا تطولهم النيران . استمر القصف عدة أيام . فقرر القائد تغيير الموقع، مع عدم إغفال حراسة العلم المرفوع قبالتهم على الضفة الشرقية، أحاطته النيران المصرية كالسياج طوال أسبوعين، دون أن يتمكن الإسرائيليون من إنزاله . تقدمت وحدة من الدبابات إلى موقع العلم . ركزوا القصف عليها من الضفة الغربية . قصفهم الإسرائيليون بمدافع الهاون ذات الأعيرة

الثقيلة. أصبح قضاؤهم لحاجتهم لا يتم إلا كل بضعة أيام . بين غارة وأخرى للطائرات أو خلال هدوء نسبي لقصف المدفعية، يتسلل بعضهم إلى الجبل، والغريب أنهم أثناء اشتداد القصف، لم يشعروا برغبة فى ذلك . حاول القائد عمل أدبخانة (مراحيض) فى الموقع، لكن توالى القصف، لم يمكنهم من ذلك .

أغلب طعامهم جاف . معهم أقراص من كحول بيضاء، لتسخين الطعام. ومعهم أكياس لبن جاف .

مرة اشترى أحدهم موقد كيروسيني، ولكن القصف لم يمكنهم من استخدامه .

رأوا الدبابات، تكاد تطبق على العلم . تقدمت وحدة إلى موقع قرب مياه القناة، وقصفتهم . سرعان ما حومت الطائرات الإسرائيلية، وأحرقت الموقع بالنابالم . خلع قائد المجموعة سترته، وعبأها بالرمال، وعمل به ممرا وسط النار، سار عليه جنوده.

لا داعى لذهابي، لتذهب حمدية، لعلها تمهد لي الطريق، وأخطف رجلي، لمنطقة الورش بحي الحسينية بالمنصورة، أتفقد محلا يصلح، وأسأل عن الأسعار .

حضرت طواقم من الورش المختلفة، تممت على المعدات، وأصلحت الأعطال، أحسوا باقتراب موعد اقتحام قناة السويس، إلى سيناء . اشتروا طعامًا إضافيًا. وضعوه فى أجناب الدبابات . كانوا يعزمون على المشاة من طعامهم وشرابهم . وعندما كانت تحترق أية دبابة، كان كل همهم إنقاذ جراكن الماء .

وبعد أن كان صفوت وزملاؤه من رجال الصاعقة، يحمدون رجال المدرعات، على تحصنهم فى قلاعهم الفولاذية، أصبحوا يشفقون عليهم

من نيرانها، حين تدمر، وحين عبرت القناة وحدة دبابات على الـG.S أيقنوا أن العبور للجيش كله بات وشيكًا.

نزلت وحدة من الـG.S إلى الماء . وقد فردت كل منها جناحيها . كل جناح تقف عليه دبابة . ما أن وصلت إلى البر الغربى، حتى انطلقت الدبابات، وضمت الـG.S أجنحتها .

أخذت الدبابات فى قصف حصون خط بارليف . توقفت طويلاً أمام تبة استعصت عليها، رغم تعزيز المدفعية، من الشاطئ الغربي، ورغم كذا طلعة طيران .

عادت الدبابات، بين تهليل الجنود، والقادة يحذرونهم . سرعان ما جاءت الطائرات الإسرائيلية، وأفسدت فرحة عبور وحدة ثقيلة، وعودتهم بثلاثة من الأسرى. أخذوا يستجوبونهم، لمعرفة سر التبة الحصينة . أخذ كل منهم يردد:

- لا أعرف شيئًا .

رأى أحدهم المنظر .. الطائرات التى عبرت من دقائق عادت سالمة، صاح غير مصدق :

- الله أكبر .

ورأى آخر شاطئ القناة الغربى، وقد ظهر فجأة مكتظًا بالجنود والمعدات والمركبات، فصاح :

- الله أكبر .

وانتبه آخرون لما يحدث، والمدرعات تدمدم، وفوهات أكثر من ألف مدفع، تتوهج، فانطلقت من الحناجر، وأصبحت صيحة القتال :

- الله أكبر .

تذكر موعده مع فوج، لمشاهدة أحد حصون خط بارليف، لماذا لم

تنسفها قواتنا كلها، نسفت أغلبها، خشية أن يعود إليها الإسرائيليون، أثناء الحرب، عند أية هجمة مضادة، وتركت بعضها شاهداً على ما كان، ولتعبي، ولأظل أعيد : ليست هذه الشبكة الحديدية كعيون نسيج العنكبوت، وما بها من حجارة جيرية بيضاء، كل شيء. خلفها عربات سكك حديدية . نعم.. عربات قطار العريش.

صبوا فى داخلها، خرسانة، ووضعوا فوقها قضبان السكك الحديدية، وفوقها دشم من كسر الحجارة والرمال، تحيط حجرات الحصن، بينها ممرات ضيقة كما ترون، مبطنة بألواح الصاج المضلعة .

أثناء حرب الاستنزاف قصفت قواتنا حصون خط بارليف بالمدافع الثقيلة، فلم تنل منها . قال بعض الخبراء إنه لا يمكن هدمها إلا بقنبلة ذرية، وعندئذ لابد من رجوع القوات المصرية إلى الوراء . كيف نعود إلى الخلف ونحن نريد أن نتقدم إلى الأمام ..؟!

ينظر له الزوار في تساؤل . وكأنما يترقب هذه اللحظة، يبتسم ويقول:

- فى حرب 73 حاصرتها قواتنا بالنيران من الخلف والأجناب لمنع أية نجدة، وتقدم المهندسون ومعهم قنابل البنجالور .

- أفندم .. ؟!

- متفجرات فى ماسورة طويلة، تشبه ماسورة المياه، ويمكن توصيل المواسير ببعضها، ودفعها فى الرمال، من تحت الأسلاك الشائكة، لفتح طريق إلى الحصن، الذي تحيط به الألغام .

تبادلوا النظرات، فعاجلهم :

- فى الحال تم فتح الطريق، وتقدم المشاة واستولوا على الحصن يدًا بيد، وطهروه من الإسرائيليين . بعضهم هرب، وبعضهم اختبأ فى هذه الممرات الضيقة المتعرجة، التى نقف فيها الآن، وتم أسرهم .

وغلب الضحك صفوت، تذكر ما رواه له أحد أصدقائه من المشاة، حين دخل الحصن فوجد جندى الملاحظة مشوشاً، وقد سقط من ارتفاع ستة وثلاثين متراً، وتعثر في دلو بلاستيكي بجواره صابونة، وفي الحجرات وجدوا علب الشيكولاته، والثلاجات عامرة، وسخانات وأسِرَّة مريحة، وعثر أحدهم على ملابس داخلية نسائية، فصاحوا جميعا فى نفس واحد . يا أولاد الأبالسة، وقد زال عنهم التعب فجأة .

أشار أحدهم إلى حائط، قائم وسط الصحراء .

- تركناه أثراً يدل على حصن كان موجوداً

تنقلت أنظارهم بين الحائط، والحصن الذي يشاهدونه، غير مصدقين أنه كان هناك حصن ضخم مثل الذي يقفون جواره، وأدركوا المغزي من ترك الحائط .

وقال صفوت فى نفسه : هذا هو حائط المبكى الحقيقي، لو أراد اليهود البكاء ، وليس حائط المبكى فى القدس .

صحح له ضابط التوجيه المعنوي :

- حائط البراق .. وهناك قضايا رفعت بشأنه وحكم فيها بملكية العرب له .

لكن نظراً لتعود اليهود الحضور وتلاوة الصلوات، والبكاء، حيث المكان هادئ، والحائط ذو التواء يبعث فى النفس الخشوع، ونظراً لأنهم كانوا لاجئين، مطرودين من أسبانيا المسيحية بعد سقوط الأندلس ونزوح العرب منها، فقد تركهم العرب .

وأنا أريدهم أن يبكوا هنا . وماذا لو قالوا بعد حين .. الحائط ملكنا، وقناة السويس التى يطل عليها لنا .. ؟! أحقا هم بنوا الحائط.

- حائط البراق، بناه السلطان سليمان العثماني، وهو جزء من سور بناه حول مدينة القدس لحمايتها، وسرعان ما روجوا أن هذا هو الحائط الغربي لهيكل سليمان .

إذا كانوا قد فعلوا هذا بشأن حائط لم يبنوه، فماذا هم فاعلون بشأن حائط بنوه فعلا.. ؟! خاصة وبكاؤهم هنا سوف يكون حقيقيًا .. أما بكاؤهم هناك فهو «على فشوش». سأل أحد الدارسين :

- هذا عن حائط فماذا عن المستعمرات التى يسمونها مستوطنات يبنونها فى الضفة الغربية..؟!

انبري لسان صفوت منه :

- يستاهل العرب .. قبل حرب 67 كانت القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة فى أيديهم فلماذا لم يقيموا دولة للفلسطينيين .. ؟!

قال الضابط، ساخرا :

- آخرة فرقة التوجيه المعنوي .. ؟!



12

سأل عنها في المجلس المحلي. أخبروه أنها لا تحضر مبكراً. نصحوه، إن كان يريدها في أمر مهم، أن يذهب إلى منزلها، وتطوع أحدهم ووصف له مكان بيتها، ولم يكن حمدي بحاجة لذلك. طلب من سعد أن يقود العربة، إلى مزرعة الزيتون خلف العريش. وقبلها بقليل، عند شارع جانبي، قال :

- أعتقد أنه شارعها.

تمهلت العربة، وهو يتطلع إلى البيوت.. أشار إلى بيت انفرد بعيداً عنها، تحيط به النخيل. طرق الباب. قادته امرأة عجوز، إلى حجرة فسيحة، تركت بابها المطل على صحن الدار مفتوحاً. فبانت له أبواب الحجرات من كل جانب.وفي الوسط أشجار النخيل. واستوقفت نظره شرفة، اعترضتها نخلة، بدلاً من قطعها لف البناء حولها، وبدت كأنها مطلة من داخل البيت، فأدرك أن صاحبته عريشية أصيلة.

أحضرت العجوز صينية عليها فنجانان صغيران. صبت القهوة من إبريق فضي رقبته طويلة، دقيقة عند العنق، تحيط بها وعند قاعدة الإبريق نقط صغيرة مدقوقة، وبزبوزه منحن صريح كإبهام المرء عندما يثنيه إلى الخارج.

غادرت العجوز، وطالعته قامة امرأة، متينة البنيان، فارعة، لم يفلح جرح فى خط مائل على خدها الأيمن، أن ينال من بقايا ملاحة متشبثة. لمت شعرها تحت غطاء رأس حديث مما تستعمله نساء المدن في الوادي. ووضعت عباءة سوداء فوق جلباب داكن، أغلب الظن أزرق اللون. حواف

العباءة مطرزة بزجزاج أحمر، حبكت العباءة حول جسدها، جلست على كنبة قبالة كنبته واتكأت بكوعيها على مسند خلفها ،وأطلت ذراعاها من كمي العباءة الفضفاضين القصيرين.

تحمحمت وقالت:

- يا مرحبا
- مرحبا بك يا ست هانم..
- التقينا من قبل..

ظنها نسيت، أو تشكك أنها ما زالت تذكره، فلم يلتقيا أكثر من لحظة خاطفة. وصل مديرية الزراعة، فلم يجد أحدا فى استقباله. حقًا.. الوقت متأخر.. ولكننا أرسلنا إشارة.. نفى عامل التليفون علمه بذلك. هل كان هناك عطل، فلم يستطع عاملنا إبلاغها؟ ليتنى تفحصت سلك التليفون الميدانى. لحظ العامل حيرته، فنصحه بالذهاب للست حميدة.. لم تكد تعرف مأموريته، حتى دبرت له مبيتًا فى استراحة المحافظة، وفوجئ بعد أن دخل الليل برجل من طرفها يطرق بابه، حاملا طعام الكرماء.

- لم تُتَح لي فرصة لأقدم شكري.
- العفو.. أنت وغيرك على الرحب والسعة.

لحظت تردد، فى الحديث فيما جاء من أجله. فأومأت إلى القهوة وابتسمت.. تناول رشفة، أذابت جمود لسانه، وقال :

سمعت أن المجلس المحلى فى سبيله لتقديم مشروع لبيع الأراضى الصالحة للزراعة من العريش إلى رفح.

- تقدم كثيرون للشراء بالفعل.
- الأرض المعروضة للبيع صالحة جدًا لزراعة الخوخ.. فهلا أرجأنا الأمر.. حتى نتأكد من صحة ما زرعناه منه.. فإذا أعطى ناتجا جيداً أرشدنا الناس إلى زراعته.

تناولت السيدة فنجان قهوتها. رشفت بتؤدة، معطية نفسها مهلة للتفكير، وقالت:

- لكن الموالح صحت..

- لحظت انتشار زراعة اللوز.. ورأيت حباته صغيرة وخشنة..وبعضها ليست به ثمرة.

أتت السيدة على فنجانها، وضعته على الصينية ونظرت مباشرة فى عينيه وقالت:

- لا أعدك بوقف البيع.. فلا نريد أن يفتر حماس الأهالى للزراعة.. لكننا سنطلب منهم الاسترشاد بما تقوله مديرية الزراعة.

وضع فنجانه على طقطوقة لصق الكنبة، كأنما خشى أن ينحنى إلى الأمام ويضعه فى الصينية قبالتها. وقال حتى لا يحط الصمت :

- كيف حال محمد عايش.. ؟

- مُقعد ولا يغادر بيته.. صَبَّحه الله بالخير.

اعتزم زيارته فى بيته، ناحية الساحل غرب العريش، قبالة الفندق الذى تعمل فيه بنتها، ولحظ أنها ذكرت العبارة الأخيرة بزهو وقد تألقت عيناها، المتماوجتان بين الأخضر ولمعة صفراء بنية، أورثتهما بنتها. أول أمس كان فى فندق مارينا العريش على الشاطئ.. لفتت نظره مضيفة جميلة. من نتف الكلام، كلما أحضرت شيئا لمائدته، علم أنها حاصلة على بكالوريوس تجارة. وحين استفسر عنها من أحد العمال، أجابه ضاحكا :

- أمامك المضيفات كلهن.. إلا هذه..

رفع حاجبيه دهشةً، فأردف العامل :

- بنت حميدة جلبانة.

نهض مستأذناً، وشكرها لحسن استقبالها، وهو يغادر لام نفسه.. هل حقًّا زارها من أجل زراعة الخوخ.. مع علمه أن كثيرا من الموا لح أعطت

نتاجاً عاليًا. وهل يتوقع حقًا أن يكون الخوخ أفضل.. أم هو عود من الريحان، نما خلسة فى ظل شجرة ويتلمس بعضا من الضوء..

هل لقاء عابر مع تلك المضيفة، يجعلك تتعلق بها؟ وأين حبك لصفية إذن؟ وهل أصبح من الضعف بحيث يزيحه لقاء عابر. أم هو الزمن؟ وعدم التيقن من التحقق.. جعل النفس تهفو لرائحة الريحان.. حينما عبقت فى الجو.. قدرها فى الثلاثين من عمرها.. فلماذا تأخر عنها الزواج.. هل هي ظروف الحرب.. ربما كانت فى القاهرة تدرس في الجامعة ولم تستطع العودة إبان احتلال سيناء لمدة اثني عشر عاما.. أم الناس يترددون فى الاقتراب منها خوفًا من صلابة ونفوذ أمها، الذي سمع عنه.. لكنها قابلته اليوم برقة.. ولم ير منها سوى دماثة وإجابة معقولة لما طلب.. هل في الأمر سر لا أعرفه.. ؟!

صعد إلى العربة، وعينا سعد عالقتان به :

- فندق مارينا

- ليس وقته..؟!

- يا بنى آدم.. قلت فندق مارينا..

وأخذ يتخيل منظره، عندما يوليان ظهرهما للفندق، ويذهبان إلى الجهة الأخرى. مرت العربة بمطب، فنظر إليه فى غيظ.. قدر وقد سلكا فى شارع البحر.. أن توتره، سوف يذهب بعد قليل.. ناغشتهما النسمات المنعشة.. وإلى يمينهما صفحة الماء هادئة.. ولحظ حمدي أنها هادئة جدا.. كماء بحيرة.. فلا موج ولازبد..

أحس لهذا الهدوء رجفة، سرت فى أعطافه.

في وقت بين العصر والمغرب، توقفت العربة، وكانت قد وصلت إلى مشارف بحيرة البردويل. نزل بعض الركاب يبحثون، عن كوب من الشاى، أو مشروب مثلج، ونزل حمدي، ليفك عقدتى ركبتيه، ويمشي الدم فى أوصالهما.

ترامت مياه البحيرة هادئة تدغدغها أشعة الشمس، وتنساب فى تعرج متداخل مع ألسنة الصحراء.

حلقت أسراب العجاج، بحذاء الأفق المواجه للشاطئ. انحرفت قليلا فحجبت ضوء الشمس. وعمت الجو رمادية منذرة. مال لون مياه البردويل إلى اللون الرصاصي. وبدا أن أسماك موسى والقاروص والدنيس، قد أصابها الاضطراب، فقد تعكر الأديم الرصاصي. منذ ظهور العجاج، تعطلت «الخارجة»، تلك الطوابير من الدنيس الخارجة من البحيرة، فى مطلع الشتاء من كل عام، لتضع بيضها فى عرض البحر.

أقام العجاج جداراً صلدا عند البواغيز، والمخارج. ما أن تلوح الطلائع، حتى ينقض عليها موجة فى إثر أخري.

ولما كانت الأسماك لا تستطيع الانتظار، وقد ناءت بطونها بما تحمل، وخشية أن يفوتها موعد الوضع، فقد جازفت بالخروج، معرضةً نفسها لمناقير العجاج، التى أخذت تلتقطها، ملتهمة إياها فى سرعة ويسر. وتسرع بعيداً، متيحة المجال لسرب آخر للانقضاض.. ولتتيح لأنفسها فرصة أخرى للمعاودة.

زادت عكارة الماء. أحست الأسماك أنها محاصرة، فغاصت إلى الأعماق. ولكن العجاج لم تخدعه المناورة. انقضت أسرابه تحت الماء، وسرعان ما عادت طائرة، وقد تدلت من مناقيرها أسماك الدنيس، تومض قشورها الفضية المشربة بالحمرة، من أشعة شمس، تلوح حينًا، وتختفي حينًا.

ويبدو أن أسماك القاروص وثعبان البحر، ظنت أن هناك فرصة للسباحة، والبحث عما يرد جوعتها. لكن العجاج، الذي انتهي لتوه من وجبة الدنيس الشهية، تاركًا من أفلت من حصاره، إلى عرض البحر، عمل جداراً دائريًا، ساعده فى ذلك الهدوء المريب الذي عم البحيرة، وعدم

خروج أي مراكب للصيد فى هذا الوقت، حيث البحيرة مغلقة، لتطهير البواغيز، ولعمل صيانة فى المعدات والمراكب، وحيث موسم التزاوج والتفريخ.

انقضت أسراب العجاج، وظهرت فجوات بين أسرابه، أطلت منها أشعة الشمس مرتعشة. طارت أسراب العجاج تحمل فى مناقيرها سمك القاروص. ويبدو أن ثعبان البحر قد زاغ إلى الأعماق. وحلقت أسراب العجاج نشوي، ترقب الماء من أعلي، وكلما لحظت تغير لون الماء، حددت البقع الدسمة، وصنعت جداراً دائريًا، وانقضت تلتهم الأسماك المذعورة.

أوشكت الشمس على الرحيل. وبات من المتعذر على العجاج، تحديد بقع الماء الغامقة، فأخذ ينتظم فى أسراب للانسحاب، ولم يشأ وهو ينسحب، أن يمر الأمر بسلام، فكان يهبط ويرتفع، ملتقطا زريعة السمك.

عبث حمدي بمؤشر الراديو، ليسمع موجز أنباء الشرق الأوسط، التى تذيعه كل ساعة. بيان عن جماعة من الإسلاميين المتطرفين اقتحموا محل ذهب فى شبرا وقتلوا أصحابه، ويؤكد البيان وجود عناصر غريبة مدسوسة.

أغلق الراديو. أنتم تصدرون بياناً.. ونحن نصدر بيانًا.. ولم يصدر الإسرائيليون بيانا.. علقوا على باب المعسكر من الداخل، مقتطفا من حديث لديان وزير الدفاع الإسرائيلى مع جريدة أمريكية.

سأله الصحفي الأمريكى :

- كيف أمكن أن تكرروا فى حرب 67، ما فعلتموه فى حرب 56، وتضربوا الطائرات المصرية على الأرض.

أجابه ديان :

- العرب لا يقرأون.

الأمريكى :

- هل يمكن أن يفعل المصريون مثلكم ويضربون الطائرات الإسرائيلية على الأرض.

ضحك ديان وقال :

- بالرغم أننا نعلم أن هذا ليس فى إمكانهم، إلا أننا نتخذ احتياطات كأنهم يستطيعون ذلك.

وأثنت الصحيفة، على اختيار ساعة الهجوم الجوي، فى التاسعة من صباح الخامس من يونيو 67، ساعة وجود الضباط المصريين فى الحمامات.

احتل الإسرائيليون سيناء فى حرب 1956، بعد انسحاب الجيش المصري وقد أعلن أنه اضطر لذلك بعد أن اكتشف تواطؤ إنجلترا وفرنسا مع إسرائيل، لضربه من الأمام والخلف. لكن في حرب 1967، القوات الإسرائيلية وحدها.. ولن ينسحب من أمامها.

وكان أن أوهموا بوجود عدوان ثلاثى، على غرار ما حدث في 56 واتضح فيما بعد أن العدوان في 56 كان رباعياً، وأن أمريكا شاركت فيه، وبالفعل كان وجود الأسطولين، البريطاني، والأمريكي السادس، في مواقع قريبة من ساحة المعركة. وزودت أمريكا الطائرات البريطانية بجزء من موتوراتها، يمكنها من الطيران من قبرص إلى مصر، حوالى 400 كيلومتر، والعودة، دون أن تحترق، كما وقفت الطائرات الأمريكية فوق البحر المتوسط لتزويد الطائرات العائدة بالوقود فى الجو.

وتفتقت أذهانهم، عن سبب لاندلاع الحرب، والفرصة سانحة لأن ثلث الجيش المصري في اليمن. أذاعوا في وسائل الإعلام المختلفة عن وجود حشود إسرائيلية على الحدود السورية، خاصة والتوتر كان حاداً

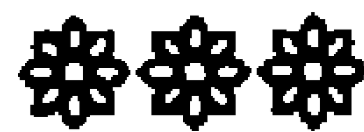
معها ومع الأردن. وتم تسريب هذه المعلومات إلى مخابرات الدول الصديقة لمصر، خاصة روسيا.

وأرسل الرئيس عبد الناصر رئيس أركان الجيش المصري إلى سوريا ولم يجد شيئًا غير عادي على حدودها مع إسرائيل، وأنبأت صور الاستطلاع الجوي يومى 12 و 13 مايو عام 67 عدم وجود أية حشود عسكرية. ونفت الاستخبارات فى القيادة العربية الموحدة هذه المعلومات.

- إذن، فلابد من استفزاز جمال عبد الناصر..

نسبوا تصريحاً لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية أننا (فى مصر) سوف نلقي باليهود فى البحر.

وأخذت وسائل الإعلام المختلفة، تتهم ناصر بالتقاعس، عن نجدة سوريا والأردن، وأنه يتخفى خلف قوات الطوارئ الدولية.وكان أن طالب بسحبها، ودفع بالجيش إلى سيناء.



13

أخرج سعد العربة من الحظيرة. رفع الغطاء الأمامى. صب بعض الماء. وضع إصبعًا بين الأسلاك، وتملى من أحدها، وضع الغطاء وأمسك ببطانة، وأخذ يطوق العربة، وهو يدعو فى سره، ألا يجد عامل التموين بالوقود فى هذه الساعة.

كثيراً ما قال للباشمهندس حمدي، لا داعى للتردد على بيت النائبة. أنت لم تحسم أمرك بعد، وهذه لا يجدي معها مقالك، يقهقه مهوناً، وتلمع عيناه الرماديتان، فيظهر اخضرارهما، بلون المغات، وقد نشع على بياض عينيه ويردد: السر فى بئر، الآبار هنا كثيرة، إذا شرب واحد من إحداها، عرف نصف سكان العريش، من، ومن أين. يستمر في قهقهته، ويقول : يبقى النصف الآخر. تقصد القبيلة الأخرى.

مصيرها مع الوقت أن تعرف، ولو أخفت السر، فإلى حين. يتوقف حمدي عن الضحك ويقول.. تقصد مع الوقت أن تعرف، ولو أخفت السر، فإلى حين. يتوقف حمدي عن الضحك ويقول.. تقصد أن القبيلة تظل ساهية، مثلك، متحينة سقطة للقبيلة الأخرى. فيقول سعد، أنه لذلك يجب عدم التردد.

يحاوره حمدي : لست مترددًا، ولكنى أفكر. تساءل سعد فى نفسه : إلى متى.. وكأنه قرأ ما جال فى خاطره فقال : فى الجورة نضع بذرة الخوخ بعيدة عن الأخرى، حتى إذا كانت بها آفة، لا تضرها. فهم سعد تلميحه عما يثار من شائعات عن العاملات فى الفنادق، وربما كانت إحداهن..

ود لو يقول له كل واحدة ولها عقلها، وتختار كيف تسلك، لكنه خشي

سخريته. كانا يستظلان بفروع شجرة، أكاسيا، وقد سرت فى الجو طراوة، فجأة نهض سعد وقال :

- أحضر الغداء

تأمله حمدي وقال :

- نفسي أكون مثل هذه الشجرة.

- فى وسط الصحراء.

- الشجرة تصنع غذاءها بنفسها.. تمتص بعض الضوء، وجذورها تمتص بعض الماء، وما تيسر من التربة، على القد بالضبط.

قال سعد ضاحكًا :

- لأن الشجرة لا تذهب إلى السوق، تريد أن تفعل مثلها..

- ولا فضلات لها

- نسيت شيئاً..

- ماذا يا فالح

- هذا من ستر ربنا لأنها لا تتحرك من مكانها.

- ناقصينك.. ؟!

- غلطت.. ؟

- وجع في بطنك.. نحن نتحرك.. إلى أين.. ؟!

نظر سعد فى ساعته.. تقترب من الرابعة بعد الظهر..

في الرابعة تمامًا، وكان يقوم بالخدمة، لمح شخصًا آتيًا من وراء تبة مرتفعة، عارضه فوقف. كلمة سر الليل. قالها. تقدم. ضابط احتياط من ك 27 أ، كان فى فرقة بأسوان، فاجأته الحرب فى طريق العودة، ويود اللحاق بوحدته فى الجبهة. سمى له ضابطاً بكتيبته. الاسم صحيح. ركنه معه حتى الصباح، وقدمه لقائده. احتسيا الشاي معاً، فاطمأن سعد قليلاً. طلب منه

القائد أن يذهب معه بالذخيرة، إلى مكان دبابة مغروزة، رآها في الطريق. أثناء العودة، استأذن ليفك ماءه. غطس في حفرة، وسرعان ما شنت الطائرات الإسرائيلية غارة مركزة على سرية دبابات بالقرب منها. انبطح سعد أرضًا وتساءل : لماذا الغارة الآن وهذا الموقع لم يتعامل بالنيران منذ الأمس، والسرية مموهة جيدًا. انتهت الغارة ورجعا. سأل ضابط تعيينات عن إحدى كتائب المشاة، وذكر له رقمها. استغرب الضابط السؤال. هذه الكتيبة لم تعبر إلا من مدة وجيزة. احتلت مواقعها ولم تتعامل مع العدو حتى الآن. سأله :

- من أي وحدة أنت.. ؟

- 27 أ

قهقه ضابط التعيينات :

- أنا من الوحدة 27، ولا يوجد فى الجيش كله أ.

وضع سعد مفتاح التشغيل، على المغمض. ظل يحاول، إلى أن تمكن من الفتحة، وأداره. وضع قدمه اليمنى على ضاغط الوقود، في وخزات سريعة متلاحقة، حتى علقت المكنة، وتركها تدور فى رتابة.

أمسك عجلة القيادة، وثبت قدمه على ضاغط الوقود، ولسان حاله يقول : أمرنا لله.

تُرى.. هل تكون النائبة هناك فى هذه الساعة. أم خرجت لتلحق بأحد اجتماعاتها. الشمس تلملم أشعتها التى سبق وفرشتها فوق المدينة. رقفتها، وسحبتها عند الأفق، وفوق البحر، ولن يمر وقت طويل، حتى تخضب نتف السحاب باللون الأحمر، وهي تمعن فى الرحيل، حتى تتحول إلى نقطة صغيرة فى عمق البحر، وتستطيع أقلها موجة أن تغرقها.

استدار بالعربة، ليدخل فى الطريق المؤدية إلى شارع العريش الرئيسى. لف بجوار قلعة العريش. تاهت فى عينيه معالم الحجارة المتداعية،

والطوب الأحمر القديم. هل كانت هناك محاولة إقامة شيء جوارها، لكنه تداعى هو الآخر.

عند المنعطف، في طريق، اعتقد أنها تؤدي إلى سوق الخميس، وفى غبشة الظلام الوشيك، خُيل إليه أنه لمح ندا. هل يستدير خلفها، ويهمل موعد الباشمهندس، أو حتى يتأخرعليه قليلاً. لكنه غير متأكد منها.

نفس القامة، لكن هذه عبعب جلبابها، عند حزام فى وسطها، فبانت ككرنبة.

هل هى ندا وقد اشترت قماشًا، أو فستانًا، ووضعته فى عبها، أو لفته حول وسطها، ولماذا تفعل نلك؟

لعل شيئًا آخر فى يديها؟ لم ألحظه جعلها تفعل نلك.

هل لمحتنى؟ كانت لفتى عند المنعطف سريعة. أكاد أقطع أنها هي. نظرتى السريعة خطفت نور عينيها.

ما ينبعث من عينى ندا، ليس مثل ما ينبعث من عينى أية امرأة أخرى.

خرج القائد من مخبئه، كالكرنبة، كتمنا ضحكاتنا التى كادت تفضحنا، وأدركنا أن في الأمر شيئًا.

علموا أنه تسلّم علمًا مصريًا، لفه حول وسطه، تحت ملابسه، وتسلم مظروفًا، وعليه ألا يفتحه قبل الواحدة والنصف ظهرا، ويبلغ جنوده، بفحواه.

هل حانت اللحظة أخيرًا.. انتهت مدة التجنيد الأصلية لسعد وكثير من زملائه، وبدا أن مدة الاستبقاء لا نهاية لها. كل عام يتدربون على ما أسموه الخطة ألفين. استدعوا بعض الجنود ممن أحيلوا للاحتياط من مدة وجيزة، وضموهم إليهم. قال الجنود : مناورات الخريف المعتادة. كانوا يتدربون على صد الإسرائيليين إذا هاجموهم.

هذه المرة، تدربوا على مطاردتهم إلى الضفة الغربية، فى أرض تشبه

أرض سيناء، بصحراء الفيوم، خلف الهرم الأكبر. قال القادة : ستكون هناك قوارب مطاطية.

قال أحدهم وهو يشخر :

- قال يعنى سنركب قوارب، ونعبر فعلا.. !

تصاعد الشك فى نفوسهم، فسبع سنوات، استبقاء فى الجيش. كل يوم فى موقع، وكل يوم يحفرون الرمال، ويعدون مواقع، ويجهزونها هندسيًّا، ثم يتركونها، ويقيمون سدوداً من الرمال والتراب، ويحدثون فيها ثغرات، وأحيانًا يتدربون على عبور السدود بسلالم من الحبال، وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم. وبترتيب، هذا وراء ذاك. وهذا يتجه يمينًا بزاوية معينة، وهذا يعمل ساترا وينتظر زميله. وتُحدد لكل منهم مهمة : ماذا سيفعل بالضبط، ومتى، وإذا حدث شيء غير متوقع، ماذا يفعل، ومن أين يجيء العون. وتساءل أكثر من جندي: هل يلقون فى روعنا، بهذه الدقة المتناهية، أن الأمر جاد، حتى لا يزمزأ أحد.

استلقوا ذات مرة على الرمال، بعد العشاء، وما زالت تبخ حرارة، اختزنتها طوال النهار، وحين هبت نسمات من ناحية مجاري الفيوم المائية وبحيرتها ومزروعاتها، سرى فى أجسادهم المتعبة خدر لذيذ. قال زميل، وهم من الإرهاق، لم يعلقوا على مقولته :

- من يراهني.. لن تقوم الحرب.

يبسم سعد.. حين فار الدم فى عروقه، وقد خف جسده، وكاد يطير فوق صيحة «الله أكبر». ودَّ وقتها لو يرى الزميل المراهن.. وفيما بعد.. خفف من غلوائه.. ولماذا.. وأنت نفسك لم تكن متأكدا. وحين يتذكر عناوين جرائد تلك الأيام، يتصاعد فوران النشوة فى عروقه.

قطعت الدول العربية النفط عن أوربا الغربية واليابان.

- الله أكبر.

البحرية المصرية تغلق مضيق باب المندب.

- الله أكبر.

رفضت مطارات أوربا، هبوط الطائرات الأمريكية، التي تحمل عتادًا حربيًّا لإسرائيل، لتزود بالوقود.

- الله أكبر.

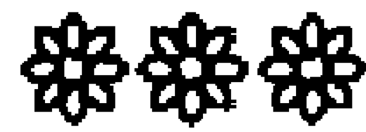
المسئولون الأمريكيون يصرحون، أنهم سيبحثون عن بدائل للنفط مستقبلا.

لم يتوقعوا أن يحدث ما حدث. وهل كنت أنا فى الميدان، رغم العلامات أمامى، أتوقع شيئا.. ؟!

غيروا القوارب التالفة والمثقوبة.. ألم تكن هذه علامة.. ؟!

عزلوا الجبهة بالمدفعية الثقيلة.. ألم تكن هذه علامة... ؟!

عبرت وحدة إلى سيناء وقضت العيد، بين نقطتين حصينتين من خط بارليف، وتم إمدادها بالتعيين والذخيرة، بالقوارب.لا.. هذه ليست علامة.. لكن إشارة واضحة لقرب العبور، فكيف لم نتلقها، أو يتلقها أحد.. ؟!



14

تخلل حمدي ظلال أشجار الكافور والجازورينا الباسقة، وقد ألقت بها على الرمال.

وصعد الربوة إلى بيته، من دور واحد، مبنى بطوب أسمنتى، بقى على حاله دون بياض من الخارج.

رمى سترته فوق أول كرسي قابله. أخذ نفسًا عميقًا.. وأطلقه.. يا لك من ساه يا سعد. تعرف الرجل ولا أعرف.. تركنا نذهب، ونتكلم، وخلال الحديث أكتشف أنكما صديقان قديمان. كيف مرت مرور الكرام حرارة اللقاء، ولم تلفت نظري. لا داعي للوم نفسك. كان بالك مشغولاً بإنهاء ما حضرتما من أجله.. وكان قلبك تتسارع دقاته، حين أتى إلى مجلسكما، على مصطبة أمام الدار، ترى منها فندق سمية. واعتزمت أن تزور الرجل ثانية. وعندما أخذكم الحديث، صممت فى نفسك.. إذا زرت الرجل.. فمن أجله.. وليس من أجل شىء آخر.

سأل حمدي العجوز عن عائلة سمية. قلق عندما عرف النية، والحديث يأخذ ويعطى، قال محمد عايش :

- البنت، مخطوبة، أو شبه مخطوبة، لشاب من الإسكندرية يعمل معها.!!

دق قلب حمدي بعنف، وقد أُخذ على غرة، وبصعوبة استفهم :

- شبه مخطوبة..؟!

لا شيء رسميًا بعد.. وأمها لا تمانع .

فرك الرجل أصابع يديه ببعضها بعضاً، وأصلح من وضع جمرات النار فوق المعسل، وضرب بمبسم عاجى الملمس، على راحة يسراه السمراء المدبوغة، فى تأنٍّ، وقال :

- يبدو أن أمها تشجعه..

انتظرا توضيحه. جذب نفسًا عميقًا من الدخان. توهج الجمر فوق الحجر، وأحدث صوتا كطرقعات الملح الخشن إذا مسته نار، وبان ألق فى عينى العجوز الضيقتين..وشع وجهه المغضن. نفث الدخان على مهل وقال :

- أفردت له حجرة فى بيتها، يقيل فيها.. وكثيرا ما يتغدى عندها.

تناول فنجان قهوته، وتلقائيا فعلا مثله، وناول سعد المبسم، وهو يقول:

كل ما تطلبه المرأة.. أن يستقر فى العريش.. فهى لا تريد لبنتها الوحيدة أن تغادرها.

سحب حمدي كرسيًّا قاعدته قماشية، استرخى عليه جوار شباك مطل على البحر. سرح ببصره. بينه وبين البحر شاطئ عريض، رماله ناعمة. قرب الماء ثلة من أشجار النخيل، متضامة من أسفل، كأنها نابعة من بعضها. تذكر ثلة مثلها فى قلب بيت عايش والجدار يفسح لها الطريق. وتخيل نفسه يعيش فى بيت مثله، تطل عليه سعف النخيل، وتتدلى سباطات البلح، براعم خضراء. يشاهد تحولها، إلى اللون الأحمر، أو الأصفر. بدت له نخيل الشاطئ وحيدة. كم استراح على جذوعها، حين كان يهرب مع زملائه من قيظ المعسكر.

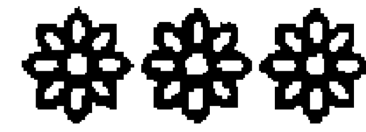
وساعة العصاري، يزقون أي باب، من أبنية المصطافين، المتناثرة على الشاطئ. لا يعرفون لمن هى. وإن خمنوا أنها لعلية القوم. يستريحون بين جوانبها، ينعمون بالاستلقاء على حشايا أسرتها اللينة، وبعد تعسيلة، يشطفون وجوههم. وعبثًا يبحثون عن صابونة، أو بقايا صابونة. يعدون نقودهم. ويكشفون عن رغبة دفينة لتذوق طعام مطبوخ. يذهبون لأحد مطاعم العريش. وحمدي يغسل يديه وجدها فرصة.. صابونة وحنفية. وضع رأسه تحت الحنفية، غير آبه بمنٍ يلاحظه. لم ترغ الصابونة فى شعره، مسح رأسه بسرعة فى فوطة معلّقة. تلفت وهو يشعر بالخجل. عاد لمقعده. زميله الذي حل محله، فعل مثله و(عصته) الصابونة. كتم ضحكته. دفعوا الحساب، واقترح أن يذهبوا إلى البحر. يتقافزون بين الأمواج، وبين وقت وآخر، يغطسٍ أحدهم بجسده، ويدعك بيديه تحت إبطيه، وباقي جسده، محاولاً إزالة العرق. يخرجون وقد علق الملح بأجسادهم.

أحس بخذلان فى أطرافه، خشي أن يغفو.. ذهب إلى الحمام.. تناول صابونة من رف علوي. نزع غلافها. دقق فيه، محاولاً فك الرموز العبرية. ألقاه فى سلة للنفايات تحت الحوض. فتح الحنفية وصبن رأسه، ودعك بالرغاوي رأسه ووجهه. تذكر أنه لم يأكل منذ الصباح. وجد فى المطبخ بقايا سمك بلطى، أحضره بالأمس، فوجئ به فى السوق. وأخبره البائع، أنه لم يظهر فى البردويل من زمن بعيد. نزع رأس السمكة ليلقيها.. لحظ حبات من البطروخ عالقة بها.. مصمصها.. وهو يتحسر على بلطى بحيرة المنزلة العامر بالبطارخ دائمًا.

كانت أسراب البلطى تخرج من المنزلة إلى البحر وتسبح باتجاه

البردويل، تضع بيضها عند صخور فى منتصف الطريق.. وتأتي الذكور لتلقيحها. وإذا لحظت الأنثى بيضا غير ملقح، أو فاسدا، شفطته. ويبدو أن سمكته ما أن فعلت حتى وقعت فى شبكة صياد.

بعد الفقس، يعود البلطى إلى موطنه فى بحيرة المنزلة. وبعضه يأنس فى نفسه قوة، تمكنه من السباحة إلى بحيرة البردويل، حيث نقاء مياهها. لكن.. يبدو أنه أحس، بما يقع للدنيس فى بحيرة البردويل، طوال فترة وجود الإسرائيليين فى سيناء، فعزف عن الذهاب.



15

بينما يتفقد حمدي الزرع في الأغوار، لحظ ترابًا أحمر ناعمًا، غطى السيقان. لحظ العمال السيناوية قلقا بادياً على وجهه. طمأنوه ألا خوف منه. وجوده يدل على تربة جيدة. ما أن يأتي عليه ماء حتى يهبط، ويتماسك، مختلطا بالتربة.

قلب الأمر في رأسه. من أين يأتي بالماء. هل يرش الزرع؟ وكيف، وهو يعتمد على الماء الجوفي؟ هل يسحبه إلى خزان، ويوصله إلى خرطوم رش أم لا داعي للتخوف كما قالوا؟ هل تتكفل الرطوبة به، وعاجلا أو آجلا، سوف يهبط إلى التربة؟ أخرجه من أفكاره الفراش الذي ينطف بيته. أخبره أن ضيفاً في انتظاره. استفسره. علم أنها ضيفة.

من يا تري؟

هل قامت صفية، أخيراً، بمبادرة. أم تراها أحست بقرون استشعار خفية، بسمية.. كانت تبقى حكاية. هل هي حميدة جلبانة؟ وصلتها وشاية بخصوص بنتها. لا.. حميدة لا تحضر.. كانت أرسلت في استدعائه.

وصل إلى البيت. ما أن وضع المفتاح بالباب، حتى وجدها واقفة أمامه. حمدية. بحضورها، وطيبتها، وإقبالها. آخر من كان يتوقع. احتضنته قبل أن يفعل. وقبلته على وجنتيه قبل أن يعي الموقف. تراجعت وقالت متصنعة الدهشة:

- كأنك غير مرحب بي.

- يا خبر..

- مفاجأة.. !!

تمالك نفسه، وقال :

- أجهز لقمة.. أم تشربين شايًا أولاً.

- استرح أنت وسأصنع الشاى.

وارب الشباك المطل على الشاطئ.. ترامت له الموجات من بعيد.. كل تحاول ركوب الأخرى، دون زهق أو ملل. ما زالت فى انتظار موافقتى على زواجها من صفوت. تريدني كأب.

لا تود عمل شىء كهذا دون موافقتى. وسوف تسفِّه حجتى : معه دبلوم صنايع، وأنت خريجة كلية، بقولها : لم يعمل بالدبلوم وسيفتح محلا للحام بالأكسجين. كيف تقولين؟ لا تهم درجة التعليم. المهم الشخصية. عندك.. خريجو كليات، كثيرون، ولا يفهمون السماء من العماء. فى هذه، والله عندك حق. مديرنا الإداري، خريج آداب لغة عربية، يخطئ فى الإملاء، ولست أدري ما الذي رماه على الزراعة.

- الشاى.

تطلع إليها، كأنه لم يرها ساعة أن حضرت.. عيناها باسمتان، وجهها الناعم الذي يفصح بشفافية غريبة، عما يعتمل فى أعماقها، يبعث فيه طمأنينة وراحة، رغم كل شىء.

- نورتِ يا حمدية.

بسخريتها، التى تفعلها دومًا، بود مازح، فلا تبدو جارحة :

- والنبى صحيح..

- والله العظيم..

- بكاش..

رشف من كوبه، وقد اعتزم ألا يقودهما الحديث إلى نفس ما اجتراه مرارًا دون جدوى، وفى كل مرة ينوي ذلك ويسرقه الحديث إلى مالا يريده. أزوجك سيد سيده. تضحك فى تؤدة، وترمقه بنظراتها المازحة، زوج نفسك. خائف عليكِ. خف على نفسك. وعندما تطهق منه : يا سيدي.. أحبه ويحبنى، حياتى وأنا حرة فيها. ويتصاعد النقار.

تناولت كوبها بين راحتيها، ولمعت عيناها السوداوان وقالت :

- ليس ما تفكر فيه

مستنجداً

- إذن ماذا.. ؟!

- البيت.

رشف رشفة كبيرة. لسعه الشاى فى فمه، بينما أردفت :

- على وشك السقوط

آه.. المشكل الأزلى. معهم قرار إزالة، وعاجزون عن الحصول على شقة جديدة، في العمارات التى تقيمها الوحدة المحلية لمدينتهم. بعد التوزيع على محاسيب كبار الموظفين، ومحاسيب أعضاء مجلس الأنس، الشعب، وأعضاء الحزن الوطني، الحزب الوطنى، لا يبقي شيء لأمثال حمدية وأمها.. ؟!

تعرف عجزي، فلا أملك ما يسد أحد البطون الواسعة من السادة موزعي الأقدار. آه.. سوف تمسكني من يدي التى توجعني. تتزوج وتترك أمها معى.. وسوف تعد بدعوتها للإقامة معها بعد فترة. الأم لا تستريح إلا عند بنتها، وأنت مصيرك إلى زواج.. ومهما كانت زوجتك.. فلن تستريح معها.

- حاضر.. حاضر يا حمدية.

قطبت جبينها وقالت :

- وماذا تنتظر.. ؟!

قُطبت الجباه، وعلت الشمس، واختنق الجو، والقارئ يردد فى رتابة:

«أعد الله لهم عذابًا شديداً، إنهم ساء ما كانوا يعملون، اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مُهين، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

بدأ المشيعون يسحبون أرجلهم.. وتلكأ بعض الأقارب، وخاصته، يترحمون على والده. أحس، ولا يدري كيف بعينى حمدية تنغرسان فى رأسه، التفت فطالعه وجهها، أومأت إليه، فاقترب منها. همست :

- أعطيت الرجل أجرته

حاول أن ينزع نفسه من حزنه، وعصته الكلمات.

قالت في لهجة سريعة مؤنبة :

- ماذا تنتظر ؟!

ناوله ما تيسر، وإذا بالرجل يصدق بالله العظيم، وبسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ

﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾. [الرحمن:60، 78]

صبرك عليَّ.. نأكل لقمة أولاً..

- وبعد..

- يفعل الله ما يشاء

قامت لتعد الطعام، وهو يخبرها أن عندها كذا وكذا فى الثلاجة وكذا فى المطبخ.. واضطجع على كرسيه..

حار بماذا يجيبها. خاصة إذا أصرت على سفره معها لينهيا المشكل. وليست لديه وساطة.. أو معرفة.. وحتى لو وجد.. فهذه المسائل حبالها طويلة.. وإذا ذهب ليشرح الأمر لرئيس الوحدة المحلية.. فلمن تقرأ زبورك يا داود.. ؟!

هل يسافر معها، والسلام.. لكن ماذا يقول لأمه، وقد أمهلها المرة تلو المرة. وكيف يحصل على شقة فى القطاع الخاص، وخلو الرِّجل لن يقل عن عشرين أو ثلاثين ألف جنيه، والإيجار الشهري يساوي راتبه وراتب حمدية معًا. هل يكون الحل فى السفر للعمل بالخارج كما اقترحت صفية مرة. أتراها مترددة حيالي، لأنى لم أشد عجلي، وأسافر معها عندما جاءتها فرصة، لتكوين قرش محترم، ولأكون محرماً لها.

معك حق يا صفية. وعلى استعداد لأن أبصم بالعشرة. لكى أدخر خلوًا، يلزمنى عشرون عاماً، وعلى فرض، ألا أصرف قرشًا واحدًا من مرتبى. هل أخبر أمى بالحقيقة، بدلاً من التسويف، والتعلق بالحبال الذائبة؟!

كان أول شيء فكر فيه، بعد عودته من الأسر، أن يذهب لزيارة أهل الهواري، خُيل إليه أن الشوارع ضاقت، والميادين صغرت. ومع أن ذهابه كان بغيضًا إلى نفسه، ولكن.. لابد أن يخبرهم أحد بالحقيقة، وإلا ظلوا، متعلقين بأوهام كاذبة.. شأنهم شأن أهالي المفقودين، والذين لم تصلهم خطابات رسمية عن استشهاد أبنائهم.

دلف من سوق الخواجات، إلى شارع علي محمود طه. كان الهواري يفاخره دوماً بشيئين، مكتبته العامرة، وسكناه فى الدور الأرضى من بيت الشاعر علي محمود طه. وكثيرا ما شكا له الهواري أن البيت آيل للسقوط وأنه لا يدري أين يذهب مع عائلته إذا سقط.

يضيق الشارع فى نصفه المؤدي إلى سوق الخواجات، بعد تقاطعه مع شارع سيدي عبد القادر. وبيت الشاعر إلى يسار القادم من سوق الخواجات قبل التقاطع. طالعه بيت حديث البناء، فى دوره الأرضى عدة محال. ذهب وجاء لعله يكون قد أخطأ. وبعد أن تغلب على خجله، سأل عجوزا فى محل بقالة فى مواجهة البيت.

- كما ترى..

- وجماعة الهواري.

- عزلوا.

وقف برهة، غير مستوعب الأمر. حانت منه التفاتة إلى أحد المحال الجديدة. كان لمنجد أفرنجى.. وقد وضع الكارينة أمام المحل.. وصبيانه يعدونها للتنجيد.

اشتكوا من أرضية العنبر. أخذوهم إلى الخلاء، حيث يجففون كومة من التبن فى الشمس. ولما كانت الكمية قليلة، سرعان ما تعاركوا، كل

يود أن يحظى بقليل يضعه تحت جنبه، يقيه، رطوبة الأسمنت، والحفر والقلقزة. تخاطفوا التبن، والحراس يصخبون ويضحكون. وعندما جرى أحد الأسرى، وقد ظن أنه استأثر ببعض التبن، عاجلته رصاصة فى فخذه، فجلس مكانه.

وضعت الطعام أمامه. أحس بنفسه عزوفاً. لم يستجب له، خشية أن تفسره بما يجرحها. بعد الغداء، اعتراهما خمول. لم يكادا يستسلمان له، حتى طنت ذبابة.

قامت خلفها مطاردة بفوطة. وارب الشيش، ليتيح لها أن تغور، وحمدية تحاول القضاء عليها، بضربة مباغتة، دون جدوى.

خارج المستشفى الميدانى، الذي أقاموه على عجل، من الخشب، فى جانب من معسكر الأسري، قعدوا فوق نجيلة مهملة. طنت ذبابة.. أعقبتها أخرى.. فأخرى. تسرب بعضهم إلى قاعة المستشفى وفى أثرهم حمدي، لكن الذباب لم يعتقهم. لوَّح حمدي بيده فى عصبية، فاصطدمت بمريض إسرائيلي على سرير جواره، برطم مهددا.

- ليس غريباً على من يطلقون النار كالمجانين.

- إنها الحرب... !

- يكون الموقع قد سقط،

جاء ممرض إسرائيلى وهش الذباب بفوطة فى يده، مارًّا بالأسِرَّة على الجانبين. لمح عدة ذبابات إلى يمينه على الحائط، هوى عليها بشدة. أصابها فلمعت عيناه.

- يموت جنود دون داع.

-...........

- فعلتم ذلك مع الفلسطينيين، ليتركوا قراهم.. لكن ما جدواه معنا فى سيناء..؟!

رفع المريض رأسه قليلا، ووضع تحتها مخدة إضافية، وقال :

- اعتقلتم اليهود وعذبتموهم.

- تقصد أيام نوري السعيد فى العراق، والملك فاروق فى مصر، كنا محتلين من بريطانيا.

وتساءل حمدي. هل تم ذلك، بضغط من البريطانيين، لإرغام اليهود على الرحيل إلى إسرائيل، وللتخلص من اليهود الشيوعيين الذين طالبوا برحيل القوات البريطانية عن مصر فى مظاهرات الطلبة والعمال يوم 21 فبراير 1946 واضطرت بريطانيا إلى سحب قواتها من أنحاء مصر وركزتها فى قاعدة قناة السويس.

أم أن الحكومة المصرية في عام 1948، وقد ضايقها أن بعض اليهود المصريين شيوعيون، وقد دفعوا مع زملائهم العمال في شبرا الخيمة والمحلة الكبرى إلى الإضراب، لزيادة أجورهم، أرادت التخلص منهم. لو كان ذلك قصد الحكومة، فقد جاء نقبها على شونة. كسب البريطانيون برحيل اليهود الصهاينة إلى إسرائيل، وخسرت الحكومة برفض اليهود الشيوعيين، ليس مغادرة مصر، بل مغادرة معتقل الهايكستب، وظلوا متضامنين مع باقى زملائهم من الشيوعيين المصريين، ثمانية شهور، حتى طردوهم من مصر.

وانبثق سؤال فى رأس حمدي :.. لكن لماذا تركت القوات البريطانية المعسكرة فى قناة السويس الجيش المصري يعبر سيناء إلى فلسطين؟!..

حطت ذبابات أخرى على الحائط. باغتها الممرض. أفلتت إلى أعلى وإلى الخلف. استدار بعصبية ملاحقًا. ظن أنها فى متناول فوطته، ضرب بشدة، فزاغت. أخذ يهوي بالفوطة فى هذا الجانب وفي ذاك الاتجاه، وقد جحظت عيناه، ونضح جبينه بالعرق، وكاد يتعثر فى أرجل الأسرة، أكثر من مرة، وفي الجالسين أرضًا، ويختل توازنه.

برطم بالعبرية وقد انقلبت سحنته. أغلق باب القاعة ونوافذها، وفتح باب دورة المياه فى صدر القاعة.أخذ يهش الذباب فى اتجاهها. ناوله ممرض آخر بخاخة رش مبيد. وعندما أيقن أنه حصر الذباب داخل الدورة، دخل وأغلق الباب خلفه.

- وماذا عن رئيسكم عبد الناصر..؟!

أحس حمدي بزنقة. فنهض ونقر باب الدورة. بعد قليل خرج الممرض.

أثناء حرب 56، اعتقل عبد الناصر مواطنى مصر من اليهود، وكان الشيوعيون من اليهود المصريين، الذين سبق طردهم من مصر، قد أصدروا بيانات بتأييده، واستنكروا العدوان الإسرائيلي البريطانى الفرنسي على مصر. وأبلغ أحدهم من فرنسا، هنري كورييل، عبد الناصر قبيل العدوان بخطة الجيش الفرنسى فى حرب 56. ورغم ذلك لم يفرج عبد الناصر، إلا عمن قبل مغادرة مصر.

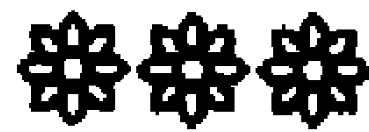
وقعت عينا حمدي، على بقع دم قميئة تلوث الحيطان. فتح شباك دورة المياه حتى لا يختنق. مشى وهو فاقد للاتزان. تساند على شبابيك الأسرة. أسرع عسكرى لمساعدته على الجلوس. هز رأسه رافضاً، فأخذه إلى خارج العنبر، جلس على إفريز جواره. عاد العسكرى يحمل كوبين

من الشاى، أعطاه واحداً. لفت نظر حمدى، أنه يرتدى بنطلونا أسود، وقميصًا أبيض، ويضع غطاء رأس أسود. ربما من الشرطة المحلية، ولعله في زيارة لأحد أقربائه. ابتسم الجندي مشجعاً ليشرب الشاى، الذي عافته نفسه. طالعته سحنة سمراء، بها بقع أكثر دكنة كبعض أبناء الحارات فى مصر.

تناول رشفة من الشاى، حتى لا يكسفه. لدهشته، وجده شايًا حقيقياً، فخمن أنه أحضره من مقصف المعسكر، أو من مطعم الحراس.

ها قد جادت الظروف بكوب من الشاى، طالما هفت نفسه إليه، بدلاً من الشاي الذي يحضرونه لهم. ماء فاتر، ماسخ، لونه مثل اللون الذي يكتسبه الماء عندما ينقع فيه الحذاءون جلد النعال. مدد قدميه على النجيلة. تقافزت بالقرب منه بعض العصافير.. تحرك رؤوسها بسرعة.. ترفرف على ارتفاع منخفض وتحط ثانية.. اقتربت من سور الأسلاك الشائكة، الذي يحيط بالمعسكر.. سرعان ما رفرفت بأجنحتها.. وطارت فى الفضاء الرحب.

ردد فى ذهنه مقطع شعري، سمعه من فؤاد حداد فى معتقل واحة الخارجة: ملكني.. لكني البراح..



16

الشتلات انتصبت..

رقص قلبه من الفرحة.

أمسك نفسه، حتى لا تتمادي، وتساءل..

أهو انتصاب الراحة فى التربة، وامتداد الجذور إلى الماء..

أم هى الصحوة قبل الذبول، وهو الانتصاب قبل الانكسار.

اصبر قليلا.. وسوف تري..

لا. لقد انتصبت هكذا بالقرب من القناة. الأرض تشبه الأرض. تشبه..؟!..

إنها امتداد لها، وما القناة إلا عارض، وياله من عارض. كثيراً ما ارتاحت نفسه، وهو يتأمل زرقة مياهها، يحف بها السلام والدعة. وصفاء السماء، يحنو عليها. ولا ينسى منظر مراكب العالم، يراها وهو قادم من بعيد فى اتجاه القناة..

كم من المصريين نفقوا وهو يشقون هذه القناة.. وكم ينفقون الآن وهم يحرسونها.

انتصبت الشتلات.. ولم تعبأ بالقذائف المتبادلة، عبر القناة، تحاول أن تطول المتخندقين خلف السواتر الترابية والرملية، على الضفتين.

بغتة، تحول القصف المتبادل، إلى قصفة هائلة، قام بها ما يقرب من ألف مدفع، جعلت من المستحيل على أي شخص أن يرفع رأسه فى الضفة الشرقية، أو يطل من أي مزغل للرؤية.

وعقد ديان، الذي عاد وزيراً للدفاع، مؤتمراً صحفياً. كان جهمًا، وأعلن أنه لابد من القيام بانسحاب كبير إلى عمق سيناء. وواجهه الصحفيون بما تردد عن انهيار «جونين» قائد جبهة سيناء. اكتفي بالقول أن الموقف صعب.

وحين التقى هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكى، اللواء محمد عبد الغنى الجمسى، بعد الحرب، قال كيسنجر ضاحكا :

- هل تعلم أين تلقيت خبر اندلاع الحرب..؟!

ابتسم الجمسى وقال :

- فى فندق والدورف استوريا بنيويورك.

- حتى هذه «جنرال» ؟!

فالجمسي، كرئيس للعمليات، لم يدرس فقط حركة المياه فى القناة من مد وجزر، لاختيار أنسب الأوقات لنزول القوارب المطاطية المحملة بالجنود، ولم يختر الساعة الثانية بعد الظهر، ليخالف الموعد التقليدي للهجوم مع أول ضوء. كان الأهم (من ذلك، أين سيكون كيسنجر عندما يصله النبأ..؟! وقدر أن تكون نيويورك قد تخطت منتصف الليل، حين يصله الخبر، ولن تتمكن عربته من السير بسرعة فى شوارعها المزدحمة، ليصل إلى البيت الأبيض، وحتى يتصل بوزارة الدفاع، وحتى يقيمون الموقف ستمضى عدة ساعات..) الجيش المصرى فى حاجة إليها، ليكمل عبوره وعندما يصلون إلى اتخاذ اجراء، يكون الليل قد دخل فى مصر، والنهار طلع فى أمريكا وحين يكون الضباط الأمريكيون فى الحمامات، تكون الدبابات المصرية قد أكملت عبورها وتربس الجيش المصرى فى سيناء.

وعندما علم الأمريكيون أن ديان اقترح انسحابًا كبيرا إلى عمق سيناء، فرملوا انسحابه، وأرسلوا بعض كبار ضباطهم لحث الإسرائيليين على

التماسك، وشجعوهم على القيام بهجوم مضاد، وصنعوا جسراً جوياً حمل إلى العريش دبابات وطائرات لم تستخدم من قبل..

ورغم إحساس حمدي، بما أحس به الناس من فرح، إلا أنه كان فى قرار نفسه.. يحس بغبن ما..هل قدره أن يشارك فى حربى 56، 67 حيث الهزائم ولا يشارك فى حرب 73 حيث النصر.. أي قدر هذا ؟!

سأل عن سعد الدرى، فأخبروه أنه لم يحضر اليوم. ألقى نظرة على الأغوار القريبة.. أطل فى الخص الذى اعتاد أن يشرب الشاي فيه. لا أثر له والعربة مركونة في جانب.هم بسؤال ندا، لكنه تراجع. هكذا أنت يا سعد.. عندما يريدك المرء، حتى لمصلحتك، لا يجدك. أرسل له محمد عايش مبكراً، فاغتسل سريعاً، وذهب إليه. كان الهواء منعشًا فى الصباح، وبحر العريش، شفاف الاخضرار، تتدلل مياهه على ألسنة الشاطئ. استقبله عايش منتصبًا بقامته القصيرة المتينة.إذن فقد استعاد عافيته. وأسفرت غضون وجهه عن ابتسامة مرحبة. نفس الابتسامة، حين رأي الشتلات قد اشتدت عند ضفة القناه، لم يشأ ساعتها أن يشرح له ما فعله. قلم الزوائد، وأبقى على الساق من زرع الوادي، وعليها فقط فرع مقلم من شتلة سيناء.

قال عايش :

- على وشك أن تزهر.

ربت حمدي بيمناه على كتفه البعيد وأودع ظهره فى صدره وقال :

- عما قريب تذوق ثمارها.

أشار عايش إلى سيناء، حيث المواقع الإسرائيلية :

- يا هناء من يعش.. !.!

أدرك حمدي من بشاشته، أن وساطته قد نجحت. سأل :

- وافقوا.. ؟

هز رأسه بالإيجاب، وصفق فحضرت صينية الشاى. قال حمدي :

- بقي لنا طلب بسيط

تطلع عايش إليه، وقد ضاقت حدقتاه. استمر حمدي :

- أنت والد العريس

خفض عايش بصره، وقد اغرورقت عيناه الصغيرتان. أردف حمدي، كأنما يستدرك شيئاً فاته :

- بل والدنا جميعا.

ركن حمدي فى الخص الذي يتناولون فيه الشاى. مهما غرب سعد وشرق، لن يغيب كثيرا عن ندا. فوجئ بها تدخل وقد حملت صينية الشاى. كاد أن يقول، هذا ما أردته وفي هذه الساعة بالذات. وغبط فى سره سعداً عليها. تناول منها الصينية، وإذا بسعد أمامه. رفع ناظريه فى دهشة. جلجلت ضحكة سعد، أغلب الظن، مُتوهًا، حتى لا يسأله عن غيابه. قال :

- حماتي تحبني.

ما زال حمدي مأخوذاً، من توقيت حضوره، وتساءل.. تري.. هل لمحته ندا قادمًا من بعيد.... فأعدت الصينية. قال سعد :

- تبحث عنى.. ؟!

لم يغادر حمدي، ضيقه، من عدم تواجده، لحظة أن أراده، فقال :

- لأ تملى بالرؤية.. !!

جلجلت ضحكة سعد ثانية، مفوتة عليه غرضه، وانسحبت ندا، متيحةً لهما الفرصة للكلام. ناوله سعد لفة فى ورق جرائد، سرعان ما فاحت منها رائحة شواء سمك.

- رشوة..

- توقف بالله عليك.. وطمئنى..

أثرت فيه لهجته، فذهب غضبه وقال :

- أُدع لعايش.

قفز سعد طائراً وغادر الخص، هز حمدي رأسه فى أسى.. لم تتح له الظروف قبلاً مرة واحدة شكره. سمع باسمه أول مرة من صفوت صبور. والمرة الثانية، حين كان يمشى فى الأرض قلقاً، يتفحص الزرع. لحظه قائد الموقع الذي يزرع أرضه جواره، فأسر له بحاجته إلى شتلات لوز من سيناء. تفكر القائد قليلا، وقال :

- سنرى.. حين يحضر محمد عايش

ظنه يسخر منه. هل يحدثه حقًا وهو المشغول بتأمين، قواته، فى الطرق والمدقات الوعرة، إلى مواقع الإسرائيليين.

سأل وهو يدقق فى عينيه :

- الدليل..

- نعم

ويبدو أن القائد، لمح تساؤلا شاكًا..عالقا فى وجهه، فأردف :

- إذا لم يتمكن.. عندنا أدلاء آخرون.

عندئذ زال شكه، وتأكد من جدية القائد. وتأكد أكثر، حين أرسل فى طلبه، وأخبره أن يسرع للقاء صفوت صبور، قبل انتهاء موعد تصريحه بالغياب عن وحدته، وأن عنده من يود لقاءه. ووصف له بيته فى الإسماعيلية، أسرعت دقات قلبه وخمن أنه لا شك محمد عايش، وأنه لابد قد أحضر ما طلبه. وعندما وصل إلى البيت، كانا قد غادرا. استقبلته صفية وعلم منها أنهم رقوها على درجة خالية فى جهاز المحاسبات بالمنصورة، وأنها غالبًا تقضى الخميس والجمعة فى الإسماعيلية. ولا يدري لماذا ذكرته بشجرة الأكاسيا. هل لأنها هيفاء، كجذعها، أم لأن شعرها تدلى فيما يشبه ضفائر، كثيرة ومتنوعة، غطت رقبتها كفروع الشجرة الفارهة، ذات الأوراق الصغيرة، تهمس حين تتخللها الريح.

لم تبد حياءً كاذباً، وتعتذر عن استقباله. رحبت به فى تحفظ، وأحضرت لفة فى ورق جرائد، أطلت أجزاء من جذورها البائتة فى تربة متماسكة بالكاد، من جهة، وأطلت ذؤاباتها من جهة أخري. نقل بصره بين طلعتها المشرقة، وبين ما تحمله، وأسعفه النطق :

- محمد عايش.. ؟!

هزت رأسها، وانحنت تضع اللفة على ترابيزة واطئة، عن كراسى الطقم الأسيوطى، فبانت معالم ثدييها، لينة، حانية، لبنية، مشربة بالسمرة.

استأذنت، كأنما ترفقاً به، لتحضر له شيئًا يشربه. اعتذر، واعداً بالحضور مرة أخرى، حين يكون صفوت موجوداً. جاء صوتها، فى نعومة ودفء فروة قطة:

- تشرف.

شكرها، فأردفت :

- الريس عايش يود، معرفة النتيجة.

أولته ظهرها، تقوده إلى الباب. خمن تحت الثوب ردفين أثيثين.

هل عايش الذي يود معرفة النتيجة، أم هى التي تود أن تعرف.. أو بالأحرى تود له أن يتصل.. أم لا هذا ولا ذاك..

انساب صوت راديو على البعد.. أنا قلبى إليك ميال.. يا سلام يا فايزة

غادر، مغمغمًا، ولم يستطع التملي فى العينين. حملها سلامه لصفوت، قبل أن يمد يده بالسلام.

أنزله الباص بالقرب من الطريق المؤدية إلى الأرض. انتظر مرور سيارة عسكرية تأخذه فى طريقها. بعد قليل خشي على ما يحمل، من شمس أخذت تسخو بما لديها. أحاط اللفة بيمينه ضامًا إياها إلى صدره، محاذرًا انفراط التربة المحيطة بالجذور والملفوفة بقش أرز أصفر، وحادبًا بجذعه، حتى لا ترى الأشعة ما ظهر من الجذور.

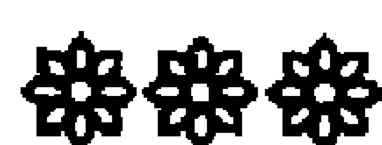
توكل مشيًا على قدميه، وقد خففت من وحشته، بضعة من أشجار النخيل، تناثرت فى الجنبات، وهذه أكاسيا إن لم يخني النظر، ودَّ لو يستريح فى ظلها قليلا. خاف من الكسل، وأن تسخو الشمس أكثر، فواصل المسير، وهو يستشعر، رغم البعد، نسمات طرية، تنساب من بين فروع الأكاسيا. وحين عبق الجو برائحة زهور الفواكه، أيقن أنه اقترب من منطقة الحدائق. ما ضر لو ركن قليلا.

حط طائر العريش زاهى الألوان فى حجم العصفور، بين الأشجار.. ولم يلبث أن حط جواره طائر آخر.. رمادي اللون، أكبر قليلا.. خطر ممسكا فى منقاره زهوراً بنفسجية وحمراء.. ذكر طائر العريش، فيما يبدو.. والأنثى لا تطاوعه.. طار.. وحين عاد كان فى منقاره زهور من الياسمين، بأوراقها البيضاء الدقيقة.

مشيت الأنثى فى دلال.. وعندما طار ثانية، لم تتبعه..

سرعان ما عاود، وفي منقاره، عيدان خضراء.. خطر أمامها.. يلوح بما فى منقاره، وطار. رفرفت بجناحيها فى تكاسل، وبعد قليل حلقت فى اتجاهه.

أخذ حمدي يتخيل شكل العريش، وقد ازدان بزهور حمراء وبنفسجية، وبالياسمين والعيدان الخضراء.. والأنثى تتبخطر، فى المدخل بألوانها الزاهية، تتأمل تنسيق العريش، فإذا أعجبها، دخلت...



17

سار على قدميه، فى الطريق المسفلت، الذي يحد العريش من الشرق. اقترب من مزرعة الزيتون، إلى يساره، يظاهره البحر، تنسم عبق الشجر، وقد فعلت فيه شمس الضحى، وحمله هواء التباب الرملية من الجنوب والشرق.

لم تمكنه المرأة من لمس ثمرة، جاعلة بينه وبينهما مسافة. عليه فقط أن يشير. كانت من الخفة، بحيث خُيل إليه أنها بمجرد وضع راحتها تحت الثمرة، تسقط وحدها. ذكرته بخفة ندا، لكن شتان، فهذه نحيفة، تائهة داخل جلبابها الأسود. حاول مساومتها. هزت رأسها فى رفض، لا يخلو من رقة، فمد يده بالثمن الذي طلبته.

دفع بابًا خشبيًا جوار المزرعة، فأحدثت مفصلاته صريرًا، وناول الجردل لأحد العمال. أفرغ الثمار فى غربال من السلك، دون أن يصغي لكلامه، أنها منتقاة، وليست بها واحدة معطوبة. غمر الغربال فى حوض به ماء، عدة مرات، ووضعه تحت رشاش من الماء. ناوله لعامل آ خر، أفرغ الزيتون فى طاحونة حجرية، أدارها بكلتا يديه، محاذرًا أن تتكسر النواة. حمل الثمار المهروسة إلى أبراش، أغلب الظن، مجدولة من الحلفا. رص الأبراش فوق بعضها بعضًا، لكبسها بمكبس، لا يعرف، إن كان حجريا، أو معدنيا، فسماره لا يبين.

صرت مفصلة الباب، فالتفت بسرعة، ظانًا الباشمهندس استغيبه، فجاء. رأي من فرجة الباب «خيال مآته» بين أشجار الزيتون، ذكره

بخيال المآته ذى الدوائر السوداء، الذي كان الإسرائيليون يطلقون عليه الرصاص، فوق الساتر الترابي.

فى الثامنة مساء السابع من أكتوبر، علموا أن فجوة أمامهم فى الساتر الترابي تسمح بعبور الدبابات. كانوا حتى هذه الساعة لم يتعرضوا لمعاكسة جدية من الإسرائيليين، مما أثار الهواجس فى نفوسهم. ركبوا الدبابات، كانت دبابته التاسعة، فى فصيلته المؤلفة من عشر دبابات. وجدوا الطريق المؤدية إلى المعبر مشغولة بالقوات. لجأوا إلى الطريق الاحتياطية، كما أخبروهم فى التدريب.

وسرعان ما جاءتهم أوامر بالانتشار. بعد نصف ساعة، قامت دبابة بالاستطلاع.

علموا أن الدبابات الإسرائيلية قصفت المعبر، وأن برطومتين من مكوناته، وقفتا على جنبيهما.

زأرت المدفعية المصرية فى منطقة المعبر، فخمنوا أنها تغطي تقدم المهندسين لإصلاحه. ورأوا عربة المهندسين تقترب بظهرها من حافة القناة، لِتسقط القطعتين المطلوبتين فى الماء. بعد ما يقرب من عشرين دقيقة، أبلغوا أن الكوبري تم إصلاحه. تقدمت السرية. سمع سعد فى اللاسلكي.الهلمت على أذنيه، وفاتح على الخارج ليكون فى الصورة. سمع أن دبابتين من دباباتهم على الضفة الشرقية، أصيبتا بصاروخين. وكأنه لم يسمع شيئًا، لم يبلغ أفراد الفصيلة، حتى لا تضعف روحهم المعنوية. وباقي الدبابات تتقدم، طلب منهم عقيد شرطة عسكرية، أن ينتظروا قليلا، وسمح لكتيبة من الدفاع الجوي أن تتقدم أولاً.

- يا أفندم سنتأخر عن موعدنا.

علموا أن معبرًا آخر أصيب، وجاءت قواته لتعبر من هذا المعبر، وعبور هذه الكتيبة ضروري قبلهم. تحملوا الانتظار وأعصابهم تحترق.

خرج سعد من الدبابة ومداريًا فى جنبها أشعل سيجارة، كور راحتيه حول شعلتها. فالأوامر تقضي بمنع أية إشارات أو ضوء، خاصة والليل دخل. باستثناء ضابط الشرطة العسكرية، الذي يمسك عصًا تشع ضوءًا من مقدمتها، لمدة ثوان، ويتغير لونه تبعاً لنوع القوات التي يشير إليها، لتأخذ دورها في العبور. ويقف جواره ضابط مهندس، مستعد لأى طارئ.

أشار لهم الضابط بالتقدم، أطفأ سعد سيجارته بسرعة، وقفز إلى دبابته، وقعت الدبابة التي خلفه في حفرة، أحدثتها قذيفة زنة ألف رطل. طلب قائد الفصيلة من سعد، وكان ساعاتها، قائد دبابته، أن يعود ليسحبها فرفض.

- نفذ الأمر.

- آسف.. توجد دبابة نجدة في الجيش، تأتي وتسحبها.

وذكره بقول قائد الكتيبة : أنت وحدة مستقلة، ولا يشغلك أي شيء عن الحرب.

- نفذ الأمر.. أنا مسئول الفصيلة.

- مهمتى أن أحارب فقط

غادر الملازم أول الدبابة، وركب دبابة أخري، وذهب لسحب الدبابة الواقعة، بينما تقدم سعد بدبابته، لم يستطع الملازم جر الدبابة، وتعطلت دبابتان. عندما وصل سعد إلى المعبر، كانت باقي الفصيلة قد عبرت. أخروه قليلا، قبل أن يسمحوا له بالعبور.

قذيفة مباشرة حطمت برطومة. تقدم المهندسون لإصلاحها، وارتد سعد بدبابته إلى الخلف، محاولاً الاحتماء في أحد نتوءات الأرض، رجع المهندسون بسرعة. إسرائيلي خلف مدفع نصف بوصة ، يطلق من أحد حصون خط بارليف المطلة على المعبر. وجهت المدفعية المصرية قذائفها إلى مصدر النيران، وعاد المهندسون إلى عملهم.

تقدم سعد بدبابته شرقًا، فلم يعثر لباقي الفصيلة على أثر، تقدم عدة كيلو مترات دون جدوى. سعد ينادي باللاسلكي على قيادة السرية، على قيادة الكتيبة، على قيادة اللواء.. صمت تام. خشى أن يرسل أية إشارة ضوئية، خوفا من صواريخ ومدفعية العدو. لا يدري كم أحرق من السجائر، وعندما تعب من النداء، أعطي الهلمت لزميله، وقال له أن يستمر في النداء. عند منتصف الليل، رد قائد السرية، فطلب منه سعد أن يحدد موقعه.

- لا.. اطلق أنت طلقة حمراء.

أطلق ما أراد، وقال :

- حدد موقعك يا أفندم.

- لا.. سأطلق طلقتين بيضاوين، متتابعتين، اعرف مكاني واحضر فورًا.

تحرك سعد بأقصى سرعة، فور رؤية الطلقة الأولى، ليكون قبل الثانية هناك.

وجدناهم جهزوا لنا مكانًا. أعطونا الكواريك لعمل مهجع للدبابة، وتمويهها جيدًا، استعداداً للصباح وقد توقع الجميع أن تكون معركة شرسة.

أعطى سعد تماماً لقائد السرية بما حدث من ضابط الفصيلة، فقال:

- طول عمره هكذا.

عُين سعد وسائق دبابة أخري خدمةً لما بقي من الليل، فأسرعا لأخذ قسط من الراحة، قبل النوبة وأخذ يراجع موقفه من الضابط. وجد نفسه على حق.

والآن لا يجب أن أفكر في شيء.. لقد عبرنا وانتهي الأمر، وليحدث ما يحدث. رفع العامل رأسه أخيرًا. وضع الزيت فى برميل به ماء، ليفصل

الشوائب العالقة به. طلب منه وعاءً، ناوله جركناً بلاستيكيًا. فتح العامل صنبورًا علويًا فى البرميل. نزل الزيت رائقًا، صافيًا، كأنه ماء من الذهب. وزحزح بإحدى قدميه جردلاً بجانب البرميل، وفتح صنبوراً سفليًا، فتدفق الماء.

نقط من الماء فوق صفحة وجهه. هب من النوم وهو لا يدري كيف غلبه النعاس. والمعمر يضحك، بينما يدوي القصف المدفعي والصاروخي. انتفض سعد مسرعًا، وزحف مع المعمر تحت دبابته، وكذا فعل باقي الزملاء. نظر سعد إلى ساعته على وميض القصف. الرابعة والنصف، والشظايا تتناثر حولهم. جاءه صوت قائد السرية ضاحكًا فى الهلمت :

- يقصفون حصون خط بارليف، ظناً منهم أننا نبيت داخلها.

أخبرهم سعد بما سمعه، فانطلقت ضحكاتهم، تدفع الدفء فى أجسادهم، وشيئًا من المرح فى نفوسهم، فى رطوبة البكور.

حاولوا الدخول إلى الدبابات. كلما هموا تناثرت حولهم الشظايا، وطلقات المدافع. نظروا فى وجوه بعضهم. لابد من الدخول، فربما صدر الأمر بالتحرك. مد سعد يده لرفع شبكة التمويه. لم يكد يلمسها، وإذا بصاروخ 240 مللي يمر جواره. انبطح أرضاً فورًا. تتبع بعينيه الصاروخ، الذي يشبه طائرة صغيرة، خمن أنه فى طريقه لحصن الفردان.

سمع فى اللاسلكي أن لواءً مدرعاً للإسرائيليين يتقدم فى اتجاههم. وقد أرسل مفرزة للأمام لجس النبض. أمرهم قائد السرية بالاستعداد للتعامل معها.

فى لمح البصر كانوا داخل الدبابات. لايدرون كيف حدث هذا رغم الشظايا والقنابل. وأخذت فصيلته مواقع للقصف، وتحسر سعد.. نحن تسع دبابات.. آه لو كنا إحدى عشرة دبابة، لزادت كثافة النيران.

أعد المعمر الدانات جواره، وحشا مدفعه، فغياب الضابط جعله يقوم بمهمتى المعمر والقاذف معًا. ونادي أفراد فصيلته فى اللاسلكي :

- يا جماعة.. نريد الطلقة بدبابة.. رجاء ألا تهيف طلقة واحدة.

دمروا سبع دبابات، وانسحبت خمس. هم تشكيلهم اثنتا عشرة دبابة فى الفصيلة. أعطى قائد سريتهم تماما لقائد الكتيبة، وسرعان ما جاءهم صوته مهنئًا، فقد كان يراقب الضرب من مكمنه.

وبينما يأخذون أماكن استعداد جديدة، فوجئوا بدبابات فصيلة أخري تشتعل بالنيران. كانوا علي بطن تبة. آه. فى الموقع الخاطئ. كان ينبغي أن تكون التبة ساترًا لهم بدلاً من اعتلائها. رآها العدو فرصة فالتهمهم. بقيت ثلاث دبابات. صدر لهم الأمر بإصلاح موقفهم.

أذنا سعد على اللاسلكي، وهو لا يري كيف سيمر النهار. سمع قائد الكتيبة ينادي قائد اللواء :

- سيادة العميد جورج، أعلم أنك معلمي، بعد إذن سيادتك، العدو ثبت نيرانًا في الأمام وسوف يتقدم من الجنبين.

-.. شكراً يا ممدوح.

ومن أين يوجعك. تقدمت دبابات اللواء كلها، وصنعت منطقة قتل للعدو المتقدم. انتظروهم، حتى تقدموا بثقة، وقد ظنوا أن النيران التى ثبتوها فى الأمام، ستجعلهم يرجحون أن هذه طريق الهجوم الرئيسية. سمعوا طلقات مكتومة، فأدركوا أن الدبابات فى مواجهة بعضها.

أبصر سعد أمامه، فى مساحة لا تتجاوز كيلو متراً مربعًا، أكثر من ثلاثين دبابة للجانبين، تتبارز بالمدافع. طلب قائد السرية من فصيلة سعد أن تلزم أماكنها ولا تشترك فى القتال، وأن تراقب الموقف، وأي دبابة إسرائيلية تنجو، وتحاول المرور وسط خطوطهم، يدمرونها فورًا. بعض أفراد يطيحون بأبراج الدبابات ويقفزون هربا من النار المشتعلة، فأطلقوا

عليهم قذائف ش ف الخاصة بالأفراد. لمح سعد دبابة باتون تقترب من جنبه الأيمن..

رتب المعمر القذائف جواره. وضع قذيفة ش ف المضادة للأفراد، في متناوله، ليعالجهم بها، لو خرج طقمها من البرج بعد القصف، وتردد.. هل يقذفها بقذيفة خارقة للدرع، تحيله إلى عجينة. خشى إن فعل ذلك، أن يعطي فرصة للأفراد، للقفز منها، قبل أن ينالهم، وقد يحدثون اضطرابًا بين فصيلته. توكل، وعمر مدفعه بقذيفة «سابو» التى تنفذ من الدرع وتعربد فى الداخل، فلا تعطيهم أية فرصة.

انتظر حتى أصبحت الدبابة فى جيبه.

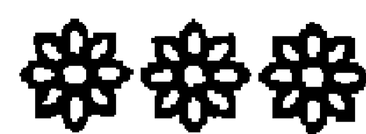
شاهدها تشتعل، ومدفعها عيار 110 مللي يلتوي كعود من البوص .

نصف ساعة، من تصادم الصلب الرهيب. وعندما جاء المساء، أعلنهم قائد الكتيبة، أنه تم أسر قائد اللواء المهاجم. أغلب دبابات اللواء تم تدميرها، وبقيت عدة دبابات سليمة، أسروا أطقمها، وطلب القائد تدبير عدة أفراد، لتوصيلهم إلى المؤخرة فى الغرب.

ودفنوا جثث العدو خشية التعفن والأوبئة.

دفع سعد الباب برفق، فلم يحدث صريرًا.

عبقته رائحة أشجار الزيتون. إحداها أطلت بفروعها، فوق سور أبيض لا يصل إلى نصف قامته. أمسك بغصن.



18

عبثت أصابع حمدي بلفة السمك. أحس فجأة بالجوع. سعد.. وقد التقى ندا، ينسى نفسه. وهو يقشر السمك، طالعته بعض العناوين. لفت أحدها نظره. «أحمد بهاء الدين» يعالج فى مستشفي البحرية الأمريكية.

ذات صباح فى الأسر، فوجئوا، بصفحتين معلقتين، على باب المعسكر من الداخل. الصفحتان منتزعتان من مجلة «المصور» المصرية، وبهما مقال لـ«أحمد بهاء الدين» : تجمع الأسري، بفضول شديد، فمنذ أسرهم، لم يطالعوا صحيفة أو مجلة مصرية.

أرجع الكاتب، سبب هزيمة حرب 67، إلى الفارق الحضاري بين مصر وإسرائيل.

انصرفنا، والسؤال يلح علينا :

- لماذا هذا المقال بالذات.. ؟!

وعلق أحد الزملاء :

- علقوه لأن فيه مصلحة لنا..

خطر فى باله الهواري. ترحم عليه. كان معجبًا بالكاتب.. لو كان معنا، ربما فاز هذه المرة، وقتها، على ما يذكر حمدي، كان معجبًا بالمقال، فالكاتب يسوق حججه بترتيب مقنع. ومن المنطقي أن يهزم المتحضر المتخلف. ولكن هل تستطيع أن تجيبني يا هواري.. كيف انتصر علينا الهكسوس، وكانوا بدوًا رعاة..؟! وكنا سادة العالم القديم كله. أتراك تقول :

«امتلكوا وسيلة واحدة، تفوقوا بها علينا. العربة الحربية، وكانوا قد عرفوا الحصان، دبابة ذلك الزمان، قبلنا. وعندما عرفناهما طردناهم من بلادنا».

ويبدو أنهم اهتدوا إلى سبيكة معدنية صنعوا منها أسلحة أصلب مما فى يد المصريين.

لكن.. ماذا امتلك الإسرائيليون فى عام 48 وتفوقوا به على العرب...؟!

هل هو سلاح الهدنة التى يفرضها مجلس الأمن على العرب، بمؤازرة أمريكا وبريطانيا. كلما أوشك العرب على دحر الإسرائيليين.. والغريب أن يوشك العرب على ذلك رغم عدم استعدادهم، ففي مصر، كان النقراشي رئيس الوزراء، لا يريد دخول الحرب، فمعابر الجيش على قناة السويس، يحرسها البريطانيون، المعسكرون فى قاعدتهم بالقناة، ويستطيعون تهديد إمداداته فى أي وقت. وكان الجيش يتسلح بدبابات قديمة وعربات تم إصلاحها بقطع غيار من وكالة البلح بروض الفرج، وأثناء المعارك كانت تتوقف المحركات، لضعف البطاريات. أما عن خبرة الجيش بالحرب الحديثة، فهو لم يدخل أية معركة منذ الحرب فى إفريقيا أيام الخديو إسماعيل، وتشرف على تدريبه وتسليحه بعثة إنجليزية من قوات الاحتلال..!!

لكن اجتماعًا مفاجئًا، عقده الملك فاروق مع الرؤساء العرب فى مزرعته بأنشاص، لم يحضره أي مسئول مصري، ولا حتى رئيس الوزراء، صدر بعده الأمر بدخول الحرب.. !!

وصلت القوات المصرية إلى أشدود فى الشمال وإلى بئر سبع، وبيت لحم فى الشرق، وهكذا شطرت شمال إسرائيل عن جنوبها، واستولت

القوات الأردنية على ضفة نهر الأردن الغربية، وعلى اللد والرملة، وأصبح العراقيون وباقي القوات العربية على مشارف تل أفيف (تل أبيب)..

هدنة...

التزم العرب بوقف القتال، وانتهز الإسرائيليون الفرصة.. حصلوا على أسلحة جديدة، وانتزعوا أحد المواقع، وسارعوا بإبلاغ مندوب الهدنة أن الموقع تابع لهم..

هدنة..

أغار الإسرائيليون على قوافل الإمداد والتموين، وذبحوا رجالها حيث تسليحهم بسيط.

هدنة..

حاصر الإسرائيليون اللد والرملة، فانسحب منها الجيش الأردني الذي يقوده الإنجليزي جلوب دون قتال.. !!

الآن أستطيع أن أفحمك يا هواري، وأقول لك، لماذا احتفوا بهذا المقال.. أيستغرق منك الأمر ما يقرب من عشرين عامًا.. حتى تفهم سبب تعليق مقال.. وضحك ساخراً من نفسه. الفجوة الحضارية ستظل بيننا قائمة، نحن دولة تسمي بالنامية.. نموها بطيء، وهم دولة تسمي عصرية.. نموها سريع.. أي ستظل الهزيمة مكتوبة علينا..

لكن لماذا هم أكثر تقدمًا منا.. هل عدد المتعلمين عندهم أكثر.. ؟.. إن عدد طلبة الجامعات عندنا يوازي عدد سكان إسرائيل تقريبًا.. وعندنا علماء مشهورون.. أحد علماء برنامج هبوط الأمريكان على القمر مصري.. أحسن طبيب قلب في انجلترا مصري.. أين الخلل إذن..؟!.. هل هو في توظيف قدراتنا؟

نفض يمناه إلى أعلى وقد انغرست فيها شوكة سلسلة ظهر سمكة. كاد يقضي على نصيب سعد. لفه بيسراه، ونهض ليبحث عن ماء، يشطف يده،

خاصة، وقد انبثقت قطرة من الدم حينما نزع الشوكة. داعيًا الله فى سره، ألا يحدث تلوث، فلا توجد مستشفي، أو صيدلية، قريبة من مكانه.

أخذ حمدي وزميل له، أحد العاملين فى المطبخ إلى العيادة. احترق ذراعه من هبة نار من الموقد. قعدوا على دكة، أمامهم ترابيزة خشبية، فى انتظار الممرض الإسرائيلي. انحني الزميل. تفحص أسفل الترابيزة وهما ينهيانه، ليكف عن فضوله. اعتدل وقال :

- قطعة من شنبر مستعرضة، بين القائم والقرصة، عندنا..

قاطعاه :

- اسكت يا نجار الغبراء

ضحكوا، وقد ركنوا على الترابيزة بأكواعهم. فانثنت رجلاها، فى مواجهتهم، وسقطوا على الأرض. غضب الممرض. طلب من الحارس أن يعود بهم إلى العنبر. لفا الذراع المحترق بخرقة منتزعة من كمه.

بعد إغلاق العنابر فى المساء، أحس عامل المطبخ بألم شديد. تحسس حمدي ذراعه، فاقشعر جسده، ويده تمر فوق فقاقيع مائية. نادي الزملاء. تخبطوا فى الظلام فى الطريق إلى الباب وخبطوا بأكفهم. صاح الحارس بلهجة فلسطينية:

- ماذا تريد يا أخا «الشرموطة».

- مريض

- فى الصباح

عاودا الخبط على الباب. سرعان ما حضر الضابط النوبتجي ومعه حارسان. سلط أحدهما كشاف ضوء قوياً داخل العنبر. صاح الحارس ذو اللهجة الفلسطينية:

- وينو (أين) فرج أخته المريض.

رفع المريض ذراعه المحترق. فجأة انقطع التيار الكهربي.

دفعوا المريض داخل العنبر وأغلقوا الباب. وانطلقت طلقات الرصاص بشكل محموم، واخترقت بعضها الجدران الخشبية، فانبطحوا جميعًا على الأرض.

حين عاد التيار، بعدما يقرب من ساعة، عاودوا الخبط على الباب، أجاب الحارس، بقذف قطع من الحجارة فوق سطح العنبر، سرعان ما تتدحرج، فوق الصاج المخروطي المضلع إلى الأرض.

في الصباح سمحوا لزميل واحد باصطحابه إلى العيادة. وعندما عاد وحده، التفوا حوله يسألونه عن حال زميلهم. أراهم قطعة من السلك، تخلفت عن إصلاح عطل الأمس، تحسس مقدمتها بباطن العقلة الأولى من سبابة يمناه. لامس ثلاثة فروع عارية، أطلت من غلافها البلاستيكي وقال :

- عندنا لا نضع حزمة السلك أقل من خمسة فروع، انفجر حمدي فى غيظ:

- لا نسألك عن هذا.

لمح ندا وسعد قادمين، أومأ لسعد ناحية الخص. لحظت ندا يديه، فأسرعت لإحضار ماء إليه. جفف يديه فى منديله، ومشي بعيدًا عن الخص.. طالعته أشجار اليوسفي، على تلال غير متساوية فى الارتفاع، وخلفها بالقرب من الشاطئ، تمايل سعف النخيل، لاحت له النخيل فى الأسفل، فبانت براعم البلح وقد بدأت تميل من الاخضرار إلى الاحمرار، والجدائل الحاملة بدأت تميل إلى الاصفرار.

وتساءل : أين الجمال.. ؟!

كان رجال الهجانة، يربطون جمالهم إلى جذوع النخيل. ينتظر حمدي وزملاؤه حتى ينصرفوا، ثم يركنون على جذوع النخيل وقد امتدت سيقانهم أمامهم، يتأملون البحر. وحين يحسون بتنميل فى أجسادهم، ينهضون فى

تكاسل، ويدفعون باب أقرب «فيلا» إليهم، لم تكن مسكوكة. فليس فيها ما يخشي عليه.. ثم من الذي سيحضر هنا.. ؟! كان من يعبر قناة السويس يحتاج إلى تصريح خاص، فسيناء كلها منطقة عسكرية. ورحلات التلاميذ إلى غزة تفتش في جمرك القنطرة شرق.

يرقدون على الأسِرَّة، العارية من الملاءات، يريحون جنوبهم من نومة الخيام العسكرية على الأرض. وهم يغادرون.. يضحكون.. ويتندرون.. آه.. لو رآهم عقيد، أو عميد ممن اعتادوا الاصطياف هنا..

لاك ذهنه ما يتردد في الصحافة هذه الأيام. لا يوجد عداء أبدي. لماذا لا تقولونها صراحة، أنه لا داعي للاستمرار في عداء إسرائيل. لو لم يكن عداء المصريين للهكسوس، أبديًا، هل كانوا طردوهم من الوجه البحري، بعد أن مكثوا فيه، ما يقرب من ثلاثمئة عام.. ؟!

تري.. هل كان كتاب ذلك الزمن، ينادون ألا نكون همجًا.. ونشن الهجمات على الهكسوس، وعلينا، كمتحضرين.. أن نكتفي فقط بالكلام والأخذ والرد..

أحس فجأة أنه مزنوق. أسرع رغمًا عنه ينادي سعدًا، ليأخذه إلى بيته.

ينهض في الصباح، ويكون مزنوقا، إلا أنه يتحايل على نفسه. في هذا الوقت تكون دورة المياه ممتلئة. في جانب من المعسكر، حفروا حفرة مستطيلة، وضعوا على جانبيها ألواحًا من الخشب. بكل جانب عشر عيون. وحين حضرهم الشتاء، سوروها بصاج مضلع فحجبت من بداخلها عن العيون في الخارج. ولكن، ظل الهواء يسف من تحت الصاج فترتعش أجسادهم، ويعوقهم، مع المطر الذي يهطل فوق رؤوسهم، فينهضون في ضيق.

كان حمدي ينتظر حتى الضحي، ومع ذلك يجد من فعل مثله.. فيدخل وأمره لله.. يجلس في جانب.. محاولاً أن يغفل عما حوله..

ينتبه فجأة على من يجلس على العين قبالته. يضع يديه أمام عورته، ومحاذراً النظر فى عيني من يواجهه، وسارحًا بقدر الإمكان، حتى لا يرى عورته، أو يراه وهو يفعل. ينظف بورقة من شيكارة قديمة، أو ورقة منتزعة من إحدى العلب الكرتونية في المطبخ، بعد أن يحيلها إلى رقائق.

ولم يكن له حيلة مع قدميه العاريتين. كثيرون أصيبوا بإسهال.. ودوسنتاريا.. وأبلغوا الصليب الأحمر بذلك. بعدها حضر ممرض ووزع عليهم حبوبًا زرقاءً، علموا أنها لمقاومة الدوسنتاريا. ولم يستجيبوا لطلبهم توصيل المياه إلى المراحيض.

طلبوا مقابلة مندوب الصليب الأحمر.

فوجئ حمدي بالعربة تقف خلفه، انتفض وقال :

- فى عرض النبي زمر.

ركب بسرعة جوار سعد. لمح طائر الرفراف، بلونه الذي لا يبين من السماء، لولا بقع سوداء على رأسه، واقفاً فى الجو كالهليكوبتر، محركاً جناحيه بسرعة. عادة يفعل ذلك عند البحر، حتى يلمح سمكة فينقض عليها. تري.. لماذا يفعل ذلك بعيداً عن البحر.. ؟!



19

دقات عجلي على الباب فى البكور. تمطي حمدي، مصدرًا صوتًا، يطارد الوخم. وإزاء إلحاح الطارق، فرك عينيه، ومشي إلى الباب.. اللهم اجعله خيرا.

- من طرف محمد عايش.

- تفضل..

اعتذر الطارق عن الدخول، وأبلغه أن محمد عايش، أصيب بقيء وإسهال، ويستسمحونه فى العربة، لتنقله إلى المستشفي.

- لحظة واحدة.

أسرع إلى تشطيف وجهه.. كيف أتصل بسعد الآن. ليس عنده تليفون في الاستراحة.

إذا ذهبنا مشياً.. قد يستغيبوننا.. دس قدميه فى بنطلونه.. مبنى المحافظة قريب.. هناك ألتقطَ أي سائق معرفة..

سارا، وهو يقنع نفسه، أنه بالتأكيد سوف يتصرف.

قيء وإسهال، وضع يده على قورته. جفلت يده من شدة الحرارة. سأله الأب، بصوت ضعيف آلمه :

- مرتفعة.

لم يستطع النطق.

بصوت متهدج :

- خذني بسرعة إلى مكتب الصحة

زاد ارتجاف جسده، وتحاشي حمدي النظر إلى عينيه. فهو يعلم، أن

الناس عند أي اشتباه، يسرعون بالمشتبه به إلى مكتب الصحة، أو إلى أقرب مستشفي. ولم يسبق أن سمعوا عن عودة أحد. وبالأمس تناثر من أفواه الجيران أن رجال الشرطة حفروا حفرة كبيرة عند المقابر، رشوها بالجير الحي. وضعوا فيها الجثث، وغطوها بالجير، قبل أن يردموها بالتراب.

واليوم قبل العصر بقليل، فور خروجه من مدرسته الابتدائية، وبينما يسير بحذاء السور، صاح فيه الناس أن ابتعد. ارتبك وهو يغادر الطوار. لحظ شخصًا ممددًا، مغطي بورق الجرائد.

نهنهت أمه، ولم تفلح محاولتها في التماسك، بشنقت وجهها ورأسها بطرحة سوداء شفيقة، لكن حمدي زام معترضًا على ملازمتهما.

اتكأ أبوه على ذراعه.. مرا بالسوق، كانت الشرطة تقلب كثيرا من عربات الخضراوات والفاكهة وتعدمها.

كاد حمدي يتعثر، وقد ازداد اتكاء والده عليه. أتراها.. بسيطة ويعود به. ويعود الرجل الذي كان.. مدرس إلزامي.. حازم النظرات.. والذي لم يغفر له اللحن أثناء درس المطالعة.. فتكونت عنده سليقة تميز الصواب من الخطأ، حتى دون أن يعي السبب.

وكان يلتقط ما يحضره من جرائد ومجلات، ويراجع في سره ما تعلمه ليستوثق بنفسه.. ولم ينتبه إلى أنه قد أصبح مدمناً لها.

وهل تعود الأيام، التى يغسلونها فيها، الخضراوات والفاكهة بالماء البارد، دون سلقها، ودون نقعها في الماء، وإضافة البرمنجنات التى تصبغه باللون الأحمر. ومتى يشرب من الحنفية، دون أن يغلي الماء.

فى مكتب الصحة، طب قلبه، والطبيب يفحص أباه. وحين رفع رأسه، أسرعت دقات قلبه، وأحس بجفاف لسانه. شيئًا فشيئًا، نشعت عينا الطبيب بابتسامة دافئة، وقال:

- اطمئن يا حاج.. نزلة برد.

رفع الأب رأسه، وتملى حمدي في عيني الطبيب، ليتأكد أن كلماته لا تعني غير معانيها الظاهرة. ووسع هذا من ابتسامته وقال :

- لا تقلق.

تبادل حمدي مع أبيه، نظرات مفعمة بالفرح، غير مصدقين، النجاة من سطوة المرض اللعين. أردف الطبيب :

- الكوليرا، ضعيفة جدا.. عصير الليمون أو الخل، يقتلها.. وقليل من الرطوبة يقضي عليها.

ولما كانوا فى أواخر الصيف، فقد تطلع الجميع، لقدوم الخريف.. أو لتغير درجة الحرارة، وهم على أبوابه.

عس بعينيه أمام باب المحافظة، وهو يرجو أن تكون نزلة برد خفيفة، وتعيش ياعم عايش وتأخذ غيرها.

فجأة.. اقتربت عربة مسرعة منه، قبل أن يقفز جانبًا، توقف السائق.

- لا مؤاخذة يا باشمهندس

- ألم تر سعدًا

- خير أية خدمة..

- عم عايش تعبان.

لم يدعه يكمل، واستمهله لحظة. قفز من العربة، وأسر لموظف الاستعلامات فى مدخل المبنى كلمتين وعاد مسرعًا.

- تحت أمرك.

عند بيت عايش، وجد سعداً، راكناً بعربته في جانب. ظنه علم بالأمر وسبقه. لكن هذا بادره بالقول، أن رسولاً من المحافظة بيت عليه ليحضر مبكرًا، للمشاركة فى نقل وفد من الطلبة، لزيارة معالم سيناء.

وحانت منه التفاتة، إلى الطلبة المتجمعين، أمام الفندق المقابل على الشاطئ.. المشرف يحاول صفهم فى طابور. وهم لا يهاودون بسهولة.

أخذه والده فى الصباح الباكر إلى المدرسة الابتدائية عند الكوبري السفلي، ليدخلا مبكراً قبل الزحام. لدهشتهما وجد طوابير ممتدة من الرجال والنساء، وبعضهم أمسك بأذرع الأطفال والصبية، الذين كانوا يتملصون في محاولة للإفلات، والهرب فى الحوش، الذي كثيرا ما لعب فيه الاستغماء، والمساكة، وشاهد مباريات كرة القدم بين مدرسته والمدارس الأخرى قبل عامين. وامتدت الطوابير عبر البوابة الحديدية، محاذية سور المدرسة، وسور المدرسة المجاورة، حتى نهاية الشارع. وحين اقترب طابوره، لفتت نظره رخامة بيضاء فى السور، عليها نقش رمادي تأسست عام 1835 م. عفق أبوه ذراعه بشدة، وفي الداخل شمر كمه عن أحد ذراعيه. لكن الممرضة قالت يكفي الجزء الأول من الساعد. غرست الإبرة فوق الرسغ بقليل.

جز حمدي على أسنانه وكلبش بيده الأخري فى جذع أبيه. ظل مكان الحقن وارمًا لمدة أسبوع. ومكبرات الصوت تطوف شوارع المنصورة، تحض الناس على التطعيم ضد الكوليرا.

قال الطبيب :

- نزلة معوية بسيطة.

وكتب علاجًا، وأوصاه بالدفء، وتناول المشروبات الساخنة.

تركه. أمام باب بيته، ولم يلتفت لإلحاحه عليه بالدخول. أوقف عربة أجرة بالنفر، ونزل بالقرب من غور قريب من جرادة. مشي بحذائه، وهو يتأمل شجيرات الخوخ. إياك أن تفعلها يا عايش، قبل أن تتذوق ما زرعناه من خوخ. مثل عايش لا يفعلها بسهولة، وأنه متين البنيان مثل زملائه من أبناء الجيل السابق. أكلوا السمن البلدي، بالملعقة، وزلطوا البيض

المسلوق دون حساب. بخلاف الجيل الحالي الذي أصغي، لتحذيرات تناول السمن والسمين، وبيضة واحدة فى الأسبوع كما أفتي الإنجليز، حتى لا تتجلط الدماء فى العروق. هل كانوا أحسن صحة من الجيل الحالي.. طبعا توجد نماذج عائشة، الواحد منهم زي الفلق.. لكن.. كم مات جوارهم في سن صغيرة، ولم يسمع عنهم أحد شيئاً، أو عن سبب موتهم.

وهل حقًا يأكل الإنجليزى بيضة واحدة فى الأسبوع..؟!

أخبرهم عمه، الذي كان يعمل ميكانيكا بمعسكرات الإنجليز فى التل الكبير، عما يتقوله الناس فى القرين التى يقطنها بالقرب من التل الكبير، أن الكوليرا جاءت من معسكرات الإنجليز. بعض المقاولين، اشتروا بقايا أطعمة الإنجليز، وباعوها للفلاحين، وكانت ملوثة. منعت الحكومة الناس هناك من تناول أي شيء من الإنجليز، ومنعت التجار من نقل بلح نخيل هذه المنطقة، إلى مناطق أخري، وأعدمت ما جُمع منه.

وأكد العم أنه ترك العمل عندهم، وكثيرون فعلوا مثله، وإذا لحق به المرض، فالأفضل أن يموت فى مدينته المنصورة، بدلا أن يموت فى معسكرات الإنجليز.

كانت أغلب البيوت، وقتها، تغلق أبوابها من المغرب، والناس تخشي المسير فى الشوارع، محاذرة من الموت المتربص في جنباتها. ولم يوجد شارع أو حارة خلت من الموتي، ومع ذلك لم تقم أي سرادقات لتلقي العزاء، ولم تجتمع النساء للنوح والبكاء والتعديد.

ولطفت الطبيعة بالناس، فأتي الخريف مبكرا.. ولم تكد الناس، تسترد أنفأسها وتتشهد.. كان حمدي يجلس على عتبة بيته العالية، مدليًا قدميه، ومولّيًا ظهره للفسحة، وقد أعطته أمه طبقًا به ملح خشن، وسكينًا. خبط الطبق بالسكين، فخشخشن الملح وتناثر بعضه، وهو يقول:

- يا بركة رمضان لا تطلعي من الدار.

- يا بندق أول وجديد.. يومنا الوقفة وبكره العيد.

وإذا ما عاكسه أحد الصبية، عاجله :

- بكره العيد ونعيد ونذبحك يا شيخ سيد

وإذا بالأب يحضر وقد اربدت سحنته. جلس قبالة الأم في الفسحة، التى رددت بصوت خفيض :

- خير.. اللهم اجعله خيرًا .

قال الأب :

- اليهود فى غزة، خطفوا امرأة حاملاً، وبقروا بطنها.

خبطت الأم صدرها، وشهقت :

- يا مصيبتي.. !

توقف حمدي عن الدق، سحب قدميه والتفت إلى الداخل. سمع أخاه الكبير يسأل:

- وماذا فعل الإنجليز الموجودون فى فلسطين..

رد الأب :

- إنجليز... هه. قري كاملة.. شبع اليهود فيها ذبحًا وتقتيلاً..

عاد الأخ يسأل :

- والإنجليز.. ؟!

قال الأب :

- أذن من طين وأخرى من عجين.. !!

قام الأب ليفتح الراديو، الموضوع على رف خشبي معلق بالحائط إلى يساره. أدار المؤشر إلى إحدي المحطات الأجنبية وهو يقول :

- لا أفهم، لماذا يثير اليهود ضجة حول فلسطين، وهل هم فى حاجة لينشدوا «فى العام القادم سنذهب إلى القدس»

وسأل الاخ :

- هل منعهم أحد ؟

- يا بني قطار العريش يقوم يوميًا من محطة مصر إلى القدس.

عاد بالمؤشر إلى محطة مصر، ليتأكد مما يتناقله الناس، أن الجيش المصري فى طريقه إلى فلسطين. لم يكن موعد نشرة الأنباء قد جاء، وانساب صوت عبدالوهاب:

«أخي.. جرد حسامك من غمده.. فليس له بعد أن يغمدا».

صعد الجنود الساتر الترابي، شاكي السلاح. نزلوا بسرعة من الاتجاه الآخر. انتشروا، ليلتفوا حول الحصن المواجه. لكن.. مدفع مكنة، من فتحة ضيقة، أطلق النار بغزارة، جعلت من المستحيل الاقتراب منه.

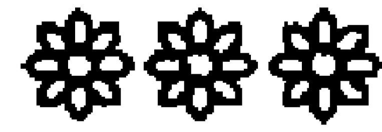
تساقط الجنود كالحمام، يصيبه رشق البنادق، وزنت الشمس فوقهم.

فجأة، اختفي الرصاص. بسرعة البرق، أحاطوا بالحصن واقتحموه. لم يدركوا ما حدث إلا فيما بعد. أحدهم زحف، إلى أسفل فتحة المدفع، وسدها بجسده.

حامت الطائرات، وألقت بحمولتها فوق متسلقي الساتر الترابي. كلما أحدثت فجوة بينهم، رتقتها الجموع المتسلقة.

ومن بعيد، انطلقت، بشكل مخيف، قذائف المدفعية، لضرب تجمعات الجند فى الضفة الغربية، وتساقطت بعضها فوق المراكب المطاطية العابرة في مياه القناة، وتصاعدت تلال من الماء. أشار بعض الجند إلى حمدي، ليداري نفسه، خلف أي ساتر. أسرع للاحتماء بباطن ترعة جافة، بالقرب من مزرعته. أصمت أذنيه القذائف، فأحاط رأسه بذراعيه ليخفف من الدوي. خُيل إليه أن الفتحات فى وجهه انفجرت وانبثق منها الدم. هدأ القصف قليلا. تحسس وجهه، وهو يتساءل.. هل يئس الإسرائيليون.. ؟!.. جاءه الجواب بقصفات

مركزة.. أصابت بعضها أماكن تجمعات، غادرها الجند منذ قليل.. وأصابت بعضها جنداً على وشك التحرك. أعقب ذلك هدوء مشوب بالتوتر. فتح عينيه فى رقدته على أحد جانبيه وقد ضم ركبتيه إلى بطنه. رأي عشا للدبابير فى نتوء من جانب الترعة أمامه. أقراص شمعية ذات عيون مسدسة، متجهة فتحاتها إلى أسفل. تدلت منها بعض اليرقات المعلقة من مؤخراتها. ولمح طوابير من النمل. رفرفت الدبابير، بسرعة محمومة، وانخفضت للقضاء على النمل. كلما حدثت فجوة فى أحد الطوابير، سدها النمل الزاحف فى الحال.. دون تردد.. ودون أن يحيد عن طريقه.. ينقطع الخيط حينا.. ثم لا يلبث أن يلتئم.. سائرا، فى تؤدة.. إلى اليرقات المعلقة.. الدبابير تكثف هجومها.. والنمل.. عائد ببعض اليرقات تتراقص بين كلاباته الدقيقة.. كفت الدبابير عن ملاحقتها. ووجهت جهدها إلى طوابير جديدة، في الطريق إلى عش الدبابير.



20

فتحت الأم الباب وقالت :

- بنت حلال

- خذي أولاً.

تناولت منها شنطة الخضراوات، وقالت :

- حمدي أرسل زجاجتين من زيت الزيتون، مع مرسال سيأتي ثانية عصرًا، حضري له بعض الملابس، واكتبي له كلمتين.

سمعتا فرقعة.

أسرعت حمدية إلى الشرفة، فوجدت من سبقنها، من ستات البيوت وقد تناثرت تعليقاتهن.

- الشرطة تحاصر التجار في شارع بورسعيد.

- ثانية

- هذه المرة تصدى التجار وأطلقوا الرصاص.

- في عز النهار.

أفرغت الأم الشنطة من الخضراوات في المطبخ، ورجتها ألا تنزل ثانيةً، فلابد أن عربات الأمن المركزي تقف في ميدان الشيخ حسنين، وتقطع المرور حتى تنتهي الحملة.

- لا تخافي.

دق جرس التليفون، طويلاً. أسرعت حمدية، وهي تقول :

- «ترنك» يا ماما.

بالفعل كان شقيقها فى ألمانيا على التليفون. بعد السلام والسؤال، قال:

- ها.. فكرتِ

- فى ماذا

- لن نعيده، احضري، وسأجزيك أضعاف أضعاف مرتبك.

- يفتح الله.

- بالله عليك، ماذا تفعلين عندك.. ؟

- وماذا تفعل أنت.. ؟!

- ....

- وأمك.. ؟

- حمدي عندك

- حمدي الذي يقوم بنفسه بالعافية، سيقوم بأمه.

- طيب فكري.

وضعت السماعة غاضبة، وأمها تؤنبها، لأنها لم تناولها لها.

- الخط انقطع.

وبرطمت وهي فى طريقها إلى حجرتها.. يظهر كل الرجال من طينة واحدة. اقترح صفوت تأجير حجرتين مفروشتين، فنبهته أنهما لن تسعهما مع ا لأم، فقال : حمدي وحيد وهو أولى بها. ردت قاطبة : هذا آخر ما كنت أنتظره منك. وخشية من تصاعد غضبها، استدرك : يا ستي على الأقل فى الشهور الأولى.

أخذت حمدية الشنطة، والأم تلح فى عدم نزولها.

- اطمئني، زمان الزوبعة انتهت.

وسرعان ما جاءت التعليقات من الشبا بيك والشرفات.

- لماذا سمحوا باستيراد القماش.

- لتصنيعه، لا لبيعه.

- التجار يدفعون، ويهربونه من بورسعيد.

وهنا وحياتك سيدفعون.. فهم يكسبون ذهبًا من بيعه خامًا.

- لماذا يصدعون رؤوسنا ؟!

ويعود التجار إلى محالهم بالزغاريد، ولا يمضي وقت طويل، حتى يظهر القماش الخام من جديد، يباع في حراسة البلطجية. وتشكو الحكومة على صفحات الجرائد، من تفشي العنف، وتحث على علاج لظاهرة البلطجة.

كانت الساعة قد تعدت الثانية بعد الظهر بقليل، ذهبت حمدية لتدلى بصوتها، بعد خروجها من العمل. علمت أن الانتخابات ماشية آخر تمام. قالت فى نفسها: الحكومة صدقت هذه المرة. فجأة جاء مرشح حزب الحكومة، نزل من عربته، يحف به بعض البلطجية، وقد شهروا الجنازير والخناجر والعصي، أحاطوا باللجنة. وجاءت فى أعقابهم عربة، نزل منها أحد ضباط أمن الدولة. حاول أحد مندوبي الأحزاب الاعتراض. صاح فيه الضابط :

- يا روح أمك منك له.. لا أريد أحدًا هنا.

وانهال عليهم البلطجية ضربًا، وحملت عربة الشرطة بعضهم إلى القسم.

اعتزمت، أن تمر على كواء يعمل سمساراً بشارع سندوب، وعدها بمحل فى نفس الشارع، لعلها توفق وتكتب ذلك لحمدي. وبالمرة، تلحق بالسوق الذي ينصب في ميدان الشيخ حسنين، في هذا اليوم، الثلاثاء، قبل أن تنصرف الفلاحات، حيث بضاعتهن طازجة، وأرخص.

أخبرها السمسار عن المبلغ المطلوب. حاولت زحزحته. أشار إلى المحال على جانبي الشارع، وقال :

- بأضعاف ما عرضته عليك.

سارت وهى تطالع المحال، كانت بها مصانع صغيرة، تصنع قماشًا شعبيًا، دمور وبطسطه، ودبلان، وشرابات، وفانلات وطواقي قطنية، بيضاء، وملونة. وتحولت إلي تجارة البقالة، وأخري إلى مخازن لتجار شارع بورسعيد، وبعضها هدمت بيوتها فوقها وكانت قديمة، وقامت مكانها عمارات سكنية حديثة، أسفلها محال حلوي، ومقاه، ومحال تجارية، وصيدليات. دخلت إلى الحارات المتفرعة، لعلها تجد شيئًا فى حارة جانبية، أو في زاوية مهملة. أغلب المحال هنا، احتلها ميكانيكية السيارات، والعربات أمامهم على قارعة الطريق، تناثرت أحشاؤها، والصبية ينظفونها فى أوعية من الصاج ملأى بالنفط، وباقي المحال تبيع دهان السيارات، أو قطع غيارها.

عرجت يسارًا من شارع سندوب، عند التقاطع، إلى شارع بورسعيد، وقد غلبها الفضول. أدهشها الهدوء وقد عاد إلى الشارع، وكأن شيئًا لم يكن.

اقتربت من ميدان الشيخ حسنين، حيث البائعات، افترشن جوانب الميدان، ومطلع شارعي السلخانة وسندوب، ببضاعتهن من الجبن القريش والقديم والمورتة والبيض والسمن البلدي والطيور من دجاج بلدي وحمام، وخضراوات الطبيخ من طماطم وباذنجان وقرع وبطاطس وكذا جرجير وفجل وشبت ومقدونس..

ذهبت لامرأة، تعودت أن تأخذ منها البيض، تجلس على رصيف صيدلية بالميدان، تتركها تنقى حبات البيض، فهى وأمها تفضلان مذاق البيض الفلاحى، عن مذاق بيض البقالين المصفوف فى الكراتين، رغم كبر حجمه.

- بكم

- لا يغلي عليك.

لا تراوغي يا امرأة، أعرف أنك تستلقطين بعضه بسعر التراب.

ذات مرة برفقة حمدى لمحت بنت الهواري الكبيرة، وقد تدثرت بمعطف حائل اللون. أعطت علبة سمن فارغة، ملأى بالبيض، لامرأة جالسة غير بعيدة عنها. ودارت نفسها فى مدخل الصيدلية، حتى تعد المرأة البيض، وتجهز الثمن.

لكزت حمدى في ذراعه فانتبه. أمسك عن الخطو، وتراجعا، بينما كانت المرأة تناولها النقود. وانصرفت بسرعة، دون أن تنظر فى وجه أحد. شدها حمدي من ذراعها مبتعداً، وهو يسأل :

- رأتنا.. ؟!

تصعبت بشفتيها ،وتمتمت :

- عيني علينا.

بعد مساومة قصيرة، اشترت بالسعر الذي أرادته.. وتسوقت لباقي الأسبوع.

صعدت السلم إلى شقتها، وهى تنفث الهواء فى تنهيدة طويلة.. الجبان يريدني خادمة لأولاده ولزوجته الخواجاية.

جاءها صوت التليفزيون، وأمها مسمرة أمامه، يعلن عن موافقة شيخ الأزهر الإمام طنطاوي على لقاء حاخام إسرائيل الأكبر. وضعت ما تحمله فى المطبخ، وهي تصيح :

- ماذا تشاهدين.. ؟!

غيرت الأم القناة، فتصاعد صوت فايزة فى أغنية مرحة من أحد أفلامها:

- بيت العز يا بيتنا.. على بابك عنبتنا.

دخلت حمدية غرفتها، وتخففت من ملابس الخروج. اضطجعت على كنبة مواجهة للشرفة، التماساً لنسمة طرية، وفايزة قد وصلت إلى آخر أغنيتها :

- ابعد يا شيطان.. ابعد يا شيطان.. ابعد يا شيطان.

ابتسمت، متخيلة فايزة فى أغنياتها الأولى، بوجهها النحيف، وتسريحة شعر زمان المضحكة. أين هذا من وجهها الذي استدار، والشعر المستعار، الذي كان يزيدها حلاوة، لكنها يا قلبى، فى أيامها الأخيرة، بان أثر المرض على تقاطيع وجهها، رغم مساحيق الطلاء الثقيلة. كان حمدى يشاهد معها، ولحظت التأثر فى عينيه.

تناولت ورقة، لتكتب كلمتين لحمدي، وأخذت مجلة مهملة، مما يحضرها حمدي، نفضت عنها التراب، لتسند عليها، طالعت عنوانها «روز اليوسف»، وهي تقول لنفسها : حمدي مثل القرع يمد بره. وهي تفكر، ماذا تكتب له، أخذت تفر الصفحات. تخطت المقالات والأخبار السياسية، إلى الصفحات الخفيفة. استوقفتها طرفة.

ذهب قبطي معمر، إلى البابا شنودة وقال له :

- قداستك منعت الحج إلى القدس، طالما ظلت تحت الاحتلال الإسرائيلي، وأنا على عتبة القبر، فهلا استثنيتني لأزور السيد المسيح.

قال البابا :

- لا تزعل.. إذا مت، سوف تلقى أيضا، السيد المسيح.



21

تفقد حمدي الأغوار قرب الحدود. تأمل الزرع، ونهي نفسه، عن تكذيب ما يري. السيقان ليست منتصبة. وإن صدق ظني، على وشك الذبول.

هل، لم تمتد الجذور، بما فيه الكفاية، إلى عمق التربة.. ؟

أم أننا، لم نحفر، في عمق الأغوار الأخري.. ؟

استعاد في مخيلته، أرضية الأغوار البعيدة، واسترجع مسافات العمق، وبعد المقارنة.. انتهي إلى أن مستوي الحفر واحد تقريبًا. هل الماء الجوفي ليس على مستوي واحد. كيف والمسافة بين الأغوار ليست كبيرة، ومستوي ارتفاع أو انخفاض التربة، ليس كبيرًا أيضًا.

تسلل بناظريه، عبر الأسلاك الشائكة. ثمة أشجار مورقة، والأرض معشوشبة بينها.

فجأة أقلقه تساؤل. أتراهم.. يسحبون المياه الجوفية.. ؟! يكفي أن يحفروا أعمق منا. طافت نظراته بربي خضراء، عالية في مستوى أعالي الأشجار. كيف وهم في العالي.. لا.. الشجر وبعض الخضرة في الأسفل.

هل يتقدم بشكوى إلى المسئولين.. ؟.. لكنك لست على يقين. إحساس داخلي، وما رآه من أشجار نامية هناك، وشجيرات على وشك الذبول هنا. هذا لا يثبت شيئًا. وهل سيسمع لك أحد. ولن ينوب المخلص سوي تقطيع هدومه.

هز رأسه ساخرا. وهل لو أرسلت شكوي.. سيحققون فيها.. ؟!

أولى ظهره للحدود، وواصل تفقده للأغوار، ودندن، بما شدا به عبدالوهاب.. «وليسوا بغير صليل السيوف.. يجيبون صوتًا لنا أو صديً.

نادراً ما كذبنى إحساسى الداخلى. ولكن.. كيف أثبته. التفت مرة أخري نحو الأسلاك الشائكة. بانت على البعد ربي رفح فلسطين. هدوء مخيم على «الفيلات» فى الأعالي، وعلى الأشجار والخضرة. لا يغرنك هذا الهدوء.

ما أن تعبر، لترى، وتتأكد من وجود آبار عميقة، حتى ينهال الرصاص من كل مكان، وربما انفجرت ألغام أرضية.

«وليسوا بغير صليل السيوف.. يجيبون صوتا لنا أو صدى».

تري.. هل كتب على محمود طه هذا البيت لنا.. أم لهم..

وحين وجد بعض الأغوار، صحت شجيراتها، أخذ يقيس بنظره، على البعد، بين مستوي الأرض التى يقف عليها، والأرض قرب الحدود. خامره شك أن الأرض هنا منخفضة، ولذلك، لم يستطيعوا سحب مائها.

آه.. من يجعلني أعبر الحدود، لأتأكد بنفسى..

فى كل مرة، يعبرون حدودنا، ونحن.. ويا للعبط.. لا نفعل.. لنثبت للعالم أننا لم نبدأ بالاعتداء..وكأن وجودهم على أرض فلسطين ليس اعتداء.

الأرض..

ثم.. الماء..

واستعاد ما يشدو به عبد الوهاب..

«أنتركهم يغصبون العروبة.. مجد الأبوة والسؤددا»

تركناهم.

كلف العمال، بنزع الشتلات التى على وشك الذبول. وطلب منهم تعميق الغور. وقبل وضع شتلات جديدة، يعملون مجسات، للتأكد أن الماء ستطوله الجذور.

طال الماء المتدفق من الخراطيم، كالبراكين، قامة الساتر الترابي. وجرف التراب، صانعًا فتحات، سرعان ما عبرت منها الدبابات، وعربات نقل المعدات.. وانكشفت مواقعهم أمام الجنود.

وكان ما عجب له حمدي، أن المعدات، من خراطيم، وقوارب مطاطية، ومركبات برمائية، نقلت إلى الضفة الغربية للقناة، والإسرائيليون يركبون الساتر الترابي المرتفع فى الضفة الشرقية، ويراقبون من أماكن الملاحظة، بخط بارليف، فكيف لم يدركوا ما يحدث أمامهم.. ؟!

تمهل حمدي فى مشيته. كان فى الطريق إلى بيته، عابرًا ميدان الشيخ حسنين. رجل واحد استأثر باهتمامه، من كل ما يزخر به مولد الشيخ حسنين. وقف على منصة عالية، نصفه الأعلى عار. بانت عضلات صدره وذراعيه وكتفيه مفتولة، سمراء، أمسك سيخًا حديدياً مبرومًا فى طول إحدى ذراعيه. غرز سنه فى خده الأيمن، وظل يضغط حتى خرج من الخد الآخر.. تملي من النظارة بعين محايدة، لا تطرف. وتناول سيخاً آخر، وكرر نفس العمل، والناس تتجمع حول المنصة.

حرك الرجل رأسه ذات الشعر الطويل المجعد، ملتصق برأسه بفعل الصابون، الذي أعطاه لونًا يميل إلى الاصفرار، وعيناه السوداوان تحركتا مع حركة الرأس. والسيخان يتذبذبان مع حركته كبندول ساعة دون أن ينشع الجلد بالدم. ودون أن يصدر عنه ما يشي إحساسه بألم.

تساءل حمدي ذاهلاً :

- كيف.. ؟!

قال رجل إلى جواره :

- خداع بصر.. ؟!

كاد أن يسأله.. وهل لا ترى ما أراه؟ لكنه أمسك، وقد لحظ عيون الناس المشدودة إلى الرجل. عيون العالم كله على الشرق الأوسط. وظلت المياه راكدة فى قناة السويس.

وقد انقطع الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر. والإسرائيليون يدلون أقدامهم في مياه القناة، ويسبحون فيها أحيانًا، ست سنوات كاملة، من 67 حتى 73.

الغريب أن الرجل، لا يتكسب من عمله هذا، فلا هو، أو أحد معه، طلب نقودًا ولا أحد بادر بإعطائه شيئًا.

فلماذا يفعل نلك.. ؟!

وحين سأل بعض الحاضرين، عن هويته، أخبروه أن أحداً لا يعرف عنه شيئًا، وأنه يأتى إلى المولد دائمًا، يقدم فقرته فى صمت، ونادراً ما يحادث أحداً.

رجح حمدي أن يكون من أتباع إحدي الطرق الصوفية، التى تدين بالتقشف والزهد، وأن ما يفعله نوعًا من المجالدة.

فى ميت دمسيس، اكتشفوا حجراً مدفوناً فى الأرض، فى جانب من صحن كنيسة هناك، عليه نحت بارز باسم محمد بن أبي بكر. كان من الحجر الجيري الأبيض، أسطوانى، فى طول جذع شخص متوسط الطول.

وأقبل حمدي مع الناس التى حضرت خصيصًا، ورواد مولدميت دمسيس لمشاهدته، وحين حط الليل، استأثر باهتمامهم جميعاً.. مار جرجس.. خيال له، أعلى الحائط من الداخل فى مقدمة الكنيسة، وهو فوق حصانه، ممسكًا رمحه. يتراقص على ضوء المشاعل المتسرب من المولد إلى صحن الكنيسة. هلل الجميع من أقباط ومسلمين..

«شيء لله يا مار جرجس.. شيء لله يا مار جرجس..»

المشاعل على عربات الترمس وحمص الشام، وأقماع الحلبة المنبتة الخضراء، ذات الذؤابات البيضاء، وسرداقات صغيرة، مقامة من قماش سرادقات الأفراح، ذات الزخارف المربعة والمستديرة، يغلب عليها اللون الأحمر، مقامة فى ميدان الشيخ حسنين، والشوارع المؤدية إليه، وهنا في الباحة أمام الكنيسة.. وعند شاطئ النيل بالقرب منها، يؤمها السامعون للانشاد الديني، يتلي على مسارح مصنوعة من دكك خشبية، أو براميل فوقها مستطيل عريض من الحديد المبطط، وخلف المنشد فرقة موسيقية لا تزيد على أربعة أو خمسة أشخاص، تصاحبه بكمان أو أكثر وطبل ورق، وصوته يلعلع فى مكبر للصوت بالسيرة النبوية.. على ألحان شهيرة لبعض أغاني أم كلثوم، ينتشي الوجدان، على إيقاعها المألوف، والذي سبق أن أطربهم. ويتغلغل الطرب في نفوسهم منعمًا بما يزيد من سحر النشوة، سماعهم لقصص كرامة الأتقياء ومعجزات القديسين.

وعربات اليد، مصطفة في مواجة السرادقات، عليها، الطواقي والطراطير، المصنوعة من الورق الفضي، والذهبى، تحف بها شُرط (جمع شريط) من ورق الكوريشة الأخضر والأحمر والأصفر. ولعب الأطفال الخشبية، الرخيصة، ذات الألوان الغامقة، تمثل طفلا يلعب على العقلة، جانباها، عصاتان من الجريد، إذا ضُغطتا تشقلب الطفل. أو عروسة بلاستيكية، إذا ضغطت بطنها زمرت، أو صفقت بيدين بهما قطعتان مستديرتان من صاج رقيق. وحيوانات بلاستيكية، صماء. وزمامير بأحجام مختلفة. بها خروم، لتضبط الأصابع النغم. وطبول صغيرة للأطفال وأخري كبيرة، دُهنت أياديها الفخارية باللون الأحمر، وصناديق ذات واجهة زجاجية على حوامل خشَبية، رُصت فيها عقود وحلقان من

الخرز الملون، وخواتم فضية وذهبية «قشرة». وباعة كتب السيرة والمدائح النبوية، قد فرشوا كتبهم على جانب من الرصيف، جوار باعة الحمص وحب العزيز. وفي قلب الزحام انتصبت دُوَرية، علقت فى قوائمها الحديدية المدلاة من سقفها، بدلاً من الخيول الخشبية، صواريخ، مكتوب عليها أسماء البلاد العربية.. اليمن.. العراق.. فلسطين.. السعودية.. فوقها الأولاد والبنات، يعاكسون بعضهم بعضا.. بينما تدور بهم. والأراجيح، لا يقنع الأطفال، بما يبلغونه من علو.. فيجاهدون فى الأرجحة، بالانثناء والقيام، لتعلو أكثر.. بينما الأهالي يحذرون.. ويرسلون من طرف خفي، إشارة لصاحب الأراجيح.. فتمتد يده فجأة تشد حديدة الفرامل.. فيحتك أسفل الأرجوحة بقاعدة النصبة الخشبية، مزيقًا بصوت مشروخ، فيهلل الأطفال محتجين.

وأمام سرادقات الطرق الصوفية، التى علقت لافتات قماشية بأسماء الرفاعية والبراهمية والشاذلية، وضعت باعة الفاكهة أقفاصهن الجريدية، يبعن الخوخ والعنب البناتي.. بينما تأتيهن أكواب القرفة والشاى من داخل السرادقات، حيث جلست نسوة متآخيات، في ملابس فضفاضة بيضاء، يعد لهن بعض الرجال الجمرات، لوضعها فى طرابيش المعسل فوق الجُوَز.

وثمة من أشعلت قطعًا من الخشب، تطقطق بين حين وآخر، وتسوي عليها كيزان الذرة. وجلس جوارها رجل يعرض تماثيل من الجص، ولوحات مستديرة من الجص أيضًا عليها آيات قرانية ملونة.

وحين ناولت إحدى النسوة، كوباً من القرفة إلى حمدي فى سرادق على النيل، تساءل.. أتراها من المتآخيات. أخذه جمال وجهها الفطري.. ليتها تؤاخيني. وتذكر ما قاله له أحدهم.. يعرفون مواعيد الموالد وأعياد القديسين وينتقلون من مولد لآخر.. حيث الطعام والشراب.. والتبرعات تصل إلى شيوخ الطرق الصوفية، خاصة من تجار الناحية.

وبعد أن دارت أكواب القرفة، والشاي لمن طلبه.. وُركنت الجُوَز إلى جانب.. نهضت المرأة، وقد امتلأ السرادق بالجالسين.. ووقف الكثيرون خلفهم.. وأنشدت:

واشرب مدام كرفقتي من نور عين الذات
يا بنت سمعان يا حنونة خشي الدير خبانات
وافتحي باب الدير وفرجيني على السادات
قالت حنونة بنت سمعان :
وانت فين ياللي تنادي فى دجي الليل على القدمات.
قلت لها : أنا مغرم وعاشق فى النبي صاحب العلامات.

مشى حمدي باتجاه الكنيسة، في الشوارع والأزقة الضيقة، وقد افترشها الناس، وتكدست أبواب البيوت خلفهم بالزوار، وفي باحة أمام الكنيسة افترشها المرضي.. مئات من الرجال والنساء والأطفال والشبان، بالملابس البيضاء. نام بعضهم على الأرض، وعيونهم شاخصة إلى السقف ذي القباب العديدة.. صوت هذه، المرأة ليس غريبًا عليَّ، وأخذ يدندن : وحياة جمال النبي أبو مقام غالي.

ما يقطف الزهر فى الجنة إلا التايب الغالي.

تدافع بلطف بين الجموع، يود الدخول إلى صحن الكنيسة، لمشاهدة مار جرجس ثانية. تمهل فى جانب من الباحة، حيث يبيع رجل ملتح صور كبيرة للقديس، وهو على حصانه يطعن التنين بالرمح. ومض فى ذهنه.. الخيال الذي رآه لم يكن به تنين.. تأمل القباب من الخارج.. من أين يأتي الخيال. وهو يدخل، أكد لنفسه أنه فعلاً لم ير التنين. وجاءه إنشاد بعض المنشدين :

كبادوكيا بلدنا.. نسبتنا فى فلسطين
وفيها مربانا.. وفيها مقيمين.

شاهد الخيال أمامه أعلى الجدار المواجه.. وقد رفع الحصان رجليه الأماميتين، وأمسك الفارس برمحه، والناس تهلل.

أين التنين.. يمسح بنظره السقف.. ضغط الأجساد، جعله يتزحزح من مكانه.. يعيد النظر.. لكن ضغط الأجساد، لا يمكنه من التملي جيدًا.. دفعه الضغط إلى باب جانبي.. حاول العودة.. لكن التيار الزاحف إلى الخارج، لم يتح له فرصة.. طالعه تيار هوائى بارد.. ورأى خلف السرادقات على جسر النيل أشرعة المراكب، التى كلما اقتربت، وغزتها أنوار مشاعل العربات، كبر حجمها.. واتضحت بعض ملامحها للرائى.. أين التنين..

علقوا مار جرجس المزاحم على ساري مركب، من عنقه ورجليه، وضُرب بالسياط، ولم يتنازل عما اعتقده. سلموه للوالي، فقطع رأسه، وتناقل الناس سيرته، وحملت كنيسة فى قرية بساط النصاري اسمه..

إذن فهو خيال مار جرجس المزاحم..

لا .. مار جرجس المزاحم كان فلاحًا.. أما هذا ففارس على حصان..

إذن هو مارجرجس السكندري..

لكنه ابن تاجر، وليس فارسًا.. طمع خاله والي الإسكندرية في ماله، وأراد أن يزوجه بنته.. لكن البنت آمنت بالدين الجديد.

وأنت يا صفية.. ألا تؤمنين.. لماذا.. عيناك على المال دائمًا.. كم تكسب.. وبكم ستكلف.. ؟! طبعا يوجد خطاب جاهزون.. هل توقعت مني المزاحمة.

جرفه الزحام، باتجاه أحد السرادقات. لعلع مكبر للصوت داخلها :

ولما دعانا الغرام فتنا الوطن وبلينا
ولما قابلنا النبي ردت أرواحنا فينا
فعدنا نريح البدن بان التعب لينا

الله يعلم بظاهرنا وخافينا

ماذا تخفين يا صفية.. هل تخفين شيئًا لا أعلمه.. أم أن كل شيء ظاهر، وأنا الذي لا يستطيع القراءة.

حاول أن يخرج من التيار، ليستنشق نسمة باردة، وقد أحس صهداً في مستوي رؤوس الناس، رغم رطوبة تسري في الليل المتقدم..

ليتك كنُتِ معي.. يا رجل.. كان الناس أشبعوها عبثًا بجسدها، وغرفاً، كما يقول بعض محترفي المداعبة في الموالد..

إذا كان مار جرجس سُمي بالمزاحم، لأنه زاحم ثلاثة إخوة.. فماذا يُسمي السائر هنا.. ؟!

اقترب من فتحة سرادق.

أول ما نبدأ القول نصلي على المصطفي ولد عدنان.

كان ياما كان يا ميت دمسيس كنت تمسبوتي في العهد الفرعوني

وجدوا في جوفك حجر بنقش الوالي ابن أبي بكر في عهد أبي الطالب الفارس القريشي

حاول الإنجليزي الخسيس يبنى جسره على النيل ويغرق الكنيسة.

رفض الناس وقالوا أبداً يا ابن اللئيمة.

ذهب المصري وأحضر جسد الشهيد من اللد بفلسطين.

وقال ما يدفن غير في مصر ودمعت العين

لكن الشهيد دفن في مصر القديمة وزاد الحنين

ذهب المصري وأحضر ذراع الشهيد من فلسطين

كان الكفرة، قطعوا جسده، وقال ما يدفن غير في ميت دمسيس

لأجل دائما، نذكر كيف قيدوك بسلاسل الحديد

وكيف وضعوا الجير الحي على جروحك ولم يعبأوا بالألم والصديد

وأحموا المسامير في النار ووضعوها في لحمك الضنين

وألبسوك حذاء من حديد دقوه بالمسامير فى قدميك
وأجبروك على المشي ووضعوا الشظايا فى جسمك ولم بكيت
وخلعوا أظافرك ووضعوك على سرير من المسامير المحماة فى النار
ولم شكيت وظنوك تنازلت عما في رأسك..
وجدوك رفعتها وقلت أبداً أنا على العهد إذا بقيت.
واليوم فى مايو والزهر يفتح عيد الشهيد، وغدا فى الخريف عيد كنيستك
يا فارس يا نبيل
ولن نصغي لما قاله الصليبي أنك جاورجيوس وساعدتهم فى حصار أنطاكية
ولن نصغي لما قاله الإنجليزي أنك سان جورج حامي وشفيع بلادهم فى الملمات
وكيف تساعدهم وهم على الشر فى اتفاق ومعاهدة ؟
وكيف تساعدهم وأنت الخضر ابن الشام ؟
وكيف تساعدهم وأنت الكباووكي وأمك فلسطينية؟
وكيف تساعدهم يا شهيد ولنا من الشهداء آلاف ؟
على أرض سيناء والمجدل والدم الذي يروي ما يبقي جاف
رمحك معنا يا بطل.. لأجل يركع التنين ولانخاف
وصلوا على خاتم الرسل ولد عدنان
كانت الشهامة طبعه والرحمة له غية

لفح وجه حمدي تيار هواء بارد. أدرك أن ثمة انفراجة، ترك نفسه لها فطالعته صفحة النيل، بعتمة مشعة، جعلته مختلياً بنفسه، وفي الوقت نفسه، متصلًا بما حوله.

المياه الداكنة، تتوالى طياتها، بفرحة مضمرة، هل تهش للصباح الوليد..

والباعة أبداً لا يذهبون. والرِجل لا تنقطع، والأزقة المحيطة بمسجد الشيخ حسنين، على صخبها، ورَجل نصفه العلوي عار، وضع ظهره على لوح خشبي، نهضت به مسامير كأشواك الصبار الإبرية. سأل رجلًا سمينًا أن يدوس فوق صدره، وأشار له ألا يخلع حذاءه.

أراهم ظهره.. لم ينل شيئًا من لحمه، ولم تنبثق نقطة دم واحدة.

صعد في شارع العباسي إلى شارع النيل. فكر حمدي أن يعود إلى ميدان الشيخ حسنين، ويعرج إلى شارع محمد فتحى، يتملي سرادقاته، كما كان يفعل وهو صغير. كان يشاهد الصعايدة بقاماتهم الفارعة فى الجلابيب البيضاء، وقد وضعوا عمائم على رؤوسهم تشبه أغطية قدور الفول المدمس. وقد أمسك العازفون بالأراغيل. عدة غابات متجاورة، في طول العازف، يحرك أصابعه على خرومها، بينما تنتفض عروق رقبته، وهو ينفخ فى مبسمها.. مصدراً أنغاماً رتيبة، ممتدة، لم يدرك وقتها، كم كانت راسخة، وحزينة، وكم كانت الأصوات البشرية التى تصاحبها، تئن، غائصة فى قرار مظلم.

وأبو حلاوة ينادي على كل دار بدار

من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه نار

من يضمني عندك يا صفية. المال ضامنك وشفيعك، أم هذا قصر ذيل مني.

من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه ...

استمر فى سيره، يلتمس نسمات، تخفف من لفح الأنفاس فى المولد. وتساءل.. لماذا الموالد دائما فى الصيف وغالبًا فى أغسطس.. لم يصادف مولدًا فى الشتاء أبدًا.. خُيل إليه أن الهواء سيقتلع الخيمة. أخرج يمينه من

جيبه، وكانت ما تزال باردة. سلم على النقيب، قائد الموقع، الذي دعاه إلى الدخول.

أخبره عن اختياره أرض جوار موقعه، لزراعة شتلات خوخ. استفسره بتقاطيع وجهه، فوضح له الأمر. وعده بالدراسة.

وعندما التقاه حمدي ثانية، خُيل إليه أنه بالغ فى الترحيب به، مما أثار دهشته، وشجعه، فيما بعد، أن يخبره بحاجته إلى شتلات من لوز سيناء. وعده كعادته بالدراسة، وظن حمدي أنه أصغي إليه من باب المجاملة، وخجل من نفسه، لأنه زادها على الرجل، لكنه فوجئ به، وقد دبر له لقاءً مع محمد عايش، دليل قواتنا العابرة لبعض العمليات فى سيناء.

وكاد يقفز من النشوة.. عندما طالعته الجرائد، بما فعلته قواتنا من تمويه.. جعل الإسرائيليين لا يدركون ماهية ما يرونه أمامهم من قوات ومعدات على الضفة الغربية..

لوح بقبضته اليمني فى الهواء. الآن فقط.. فهمت سر اهتمام قائد الموقع عبد السلام فاروق بى..

أكيد، كان يريد لنقاط الملاحظة الإسرائيلية على الضفة الشرقية أن تري المزرعة.. ولعل هذا أوحي لهم باسترخاء القوات، التي سمحت بإقامة مزرعة فى موقعها.

يا خبر.. وأنا الذي ظننت، أني لم أشارك فى الحرب.. ؟!

تملكه شعور، أسكره عدة أيام، ومع توالي الأيام، عشش فى الأعماق، يرسل بين حين وآخر أشعة ذهبية، تضئ جوانحه.

وصل حمدي إلى بيته. جذب كرسي الشاطئ فى مواجهة الشباك. داعبته نسمات بحرية منعشة.أراح جسده مع ميل خلفية الكرسي القماشية.

مجري مائي، تحت الأسوار السلكية. سال فيه الماء، حاول النفاذ، ليعترض طريقه.

نبحت كلاب بشدة. تدلي لعاب لزج على جانبي أفواهها. وبرزت أنيابها حادة كلما علا نباحها.

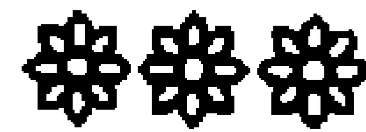
تحركت القوائم الحديدية، بما بينها من أسلاك عنكبوتية، وبما أعلاها من أسلاك شائكة.

عدَت الكلاب، خلف الأسوار، وأخذت تنبح كأنما أصابها سعار.. تحركت الأسوار فتبعتها الكلاب، وقد تحول نباحها إلى عواء مخيف.

وكلما تحركت الأسوار، تبعتها الكلاب..

انتفض، وقد كادت تطبق عليه الأسلاك العنكبوتية، وخلفها السحن المخيفة للكلاب تزوم وقد تساقط لعابها.

هل غفوت.. ؟!



22

ذهب إلى النفق آملًا أن يرى سمية.

كانت شمس ما قبل الغروب الهينة، تضفي شفافيةً على الأشياء.

فضل أن يجلس تحت شمسية على الرمال، مولياً ظهره لمبني الفندق. انبسط الشاطئ أمامه، وطيات المياه، تداعب بعضها بعضا، فى خفة ومرح.

حمل إليه الهواء، رذاذاً خفيفاً، أنعش وجنتيه، وهو يتأمل مياه البحر، عند استدارة الأفق، وأحس بخفة، واندغام فيما يحيط به.

لم يتعجل الإشارة إلى أحد، يُحضر له طلباً. تعشم أن يساعده الحظ وتحضر هي. خف الوهج الأصفر، ومال قرص الشمس إلى اللون الأحمر، وقد تحددت استدارته، بينما يشرئب الماء، فى محاولة للمسح علي وجهه.

لماذا حضرت إلى هنا.. ؟!

هل رميت طوبة صفية؟!

إنها لم تتصل بي منذ عرفتها. دائما المبادرة من جانبي. هل هذا هو المفروض. وماذا لو كنت مريضًا، أو مشغولًا، أليس من الواجب أن تتصل لتطمئن.. أو حتى لتعرف أخباري؟ لم يحدث مرة واحدة، أن نسيت واتصلت. هل هو التمنع الكاذب، من قبل المرأة المصرية «ياخي»؟ كأنك خبرت نساء العالم.

لا.. لنترك هذا لغير المتعلمات.. هي تعلمت وسافرت إلى الخارج

وراحت وجاءت. أم أن كلهن سواء فى هذه الناحية. ويتركن المبادرة للرجل، حتى لو كن الراغبات. لست أدري.. ولكن فى حالتي.. وقد خبرتها، لا أظنها هكذا.. والمعنى واضح كالشمس..

نشعت الحمرة على حافة الأفق، وصبغت نتفاً من غيم فى قبة السماء. ونجحت جبال الماء، أخيراً، فى ابتلاع القرص، وبان أنها مأخوذة بجبروتها الأثيث، وعلاها زبد أبيض، يجاهد فى محو بقايا الشعاعات الواهنة.

هي لا تعبأ بي.

لكن لماذا فى كل مرة، التقينا، حثتني على مداومة الاتصال. هل هي المجاملة العادية. إذا لم يكذبني سمعي، فى صوتها شىء ما. لا.. ليس رجاءً. ولكنه وشاية برغبة، تجاهد، فى الإفصاح. أو ربما.. لا.. لست متأكدًا بالضبط. وماذا عن نظرة عينيها العسليتين، تنظران إلى الداخل، إذا أطريت جمالهما، مشفعةً ذلك بابتسامة وديعة، واحتجاج ناعم :

- وبعدها معك.. !

ولا تقوى على سحب نظراتها الداخلية. هو الخجل.. الخجل الذي يمنعها من الإفصاح.. أو الاستجابة، هل تريدني أن أدفعها إلى ذلك.

أم أنني أخدع نفسي، وليس شىء من هذا فى دماغها.

وماذا عن لهفتها وهي ترد على التليفون، خاصة، عندما أطلبها مبكرا، ويأتى صوتها لم يتخلص من أثر النوم، فأعتذر بصدق، عن إيقاظها، فيأتيني صوتها، وهو يتملص سريعا من الغشلقة :

- أبداً أبدًا..

تتشبث بتواصل الصوتين، فأستمر فى الحديث، وينجو صوتها، شيئًا فشيئًا مما يشوبه، ويصبح وديعًا، ناعمًا، راغبًا فعلا فى مواصلة الكلام.

لماذا لم تسأل؟..

هل تحتم على أن أكون السائل دومًا..؟!

مازلت أذكر، كلماتها فى عرض حديث، أنها لن تتردد فى مصارحة أحد، لو صادف هوى فى نفسها.

هل قالت ذلك، لتشعرني بمدي حريتها، وامتلاكها لدفة حياتها، أم أن الكلام شيء والعمل به، شيء آخر؟!

دائما، أنا الذي يعرض.. وهي لا تقبل ولا ترفض.

نتزوج. تُسَوف فى الرد، وتنشغل بأي شيء، وإن كانت حمرة خفيفة، تنشع من وجنتيها الحريرتين، تفضح انفعالها الداخلي.

أحبك. تنظر إلى بعيد، وتحول الحديث إلى اتجاه آخر، وعبثًا أحاول استبقاءها في الدائرة. ومع ذلك. لا ترفض اللقيا، وتأتي فى الموعد بالضبط، على غير عادة النساء، اللائى يملن إلى التأخر.

أتراها.. تحتفظ بي، احتياطًا للطوارئ، ولست أنا النموذج الذي توده، فإذا لم يحضر مرادها، فأنا أحسن من لا شيء..

أم هى كأنثى، مطلقة، تستعذب الإحساس أنها مرغوبة.

ولكنها، وهي على مشارف الأربعين، إن لم تكن تخطتها، ألا تشعر بالقلق. لعل هناك خطاباً، وهي تفاضل، وأنا لا أعلم.

قولي شيئًا.. يرحمنا ويرحمك الله.

أحس بمن يقف خلفه. التفت مرتبكًا، كمن ضبط متلبسًا بفعل منكر. كان الظلام قد غشى الأشياء. ولم تكن سمية.

- أفندم

تردد.. هل يسألها عن سمية.. أم لا داعي للتسرع، حتى يستوثق بنفسه، وحتى لا يتسبب فى انتشار أقاويل، لا داعي لها.

- أفندم

- قهوة سادة.

غادرته. خيل إليه أنها هزت كتفيها. سرح ببصره عبر الترابيزات، لعله يلمحها آتية، ونمل المساء، يغبش المرئيات. تساءل.. هل المضيفة التى جاءته.. استلمت ورديتها لتوها.. أم هي نهارية، ولم تسلم بعد..

هل سلمت تمامًا فى أمر صفية. كان من الواجب إخبارها أننى صرفت نظرًا. ولكني لم أتفق معها على شيء. على الأقل يكون لقاء وداع وأسمع كلمتها. شعر بحنين لسماع صوتها الناعم، الخالي من أية ندوب، تنبئ عن مكر، أو لف ودوران. وتمثلها بقامتها الطويلة، وجذعها الرهيف، حيث تميل دومًا إلى لبس البلوزات المشغولة «تريكو»، تبرز نهديها. كانت معالمهما واضحة، وقد حدب عليها، خلف مقعدها في الباص، محادثاً. آه من الحليب الممزوج بالسمن البلدي، وقد استكانت اليمامتان. ومرة كان الوقت صيفًا، ارتدت بلوزة، بلا كمين تقريبًا. رفعت إحدى ذراعيها، ملوحة. شعر أسود أطل من تحت إبطها. غابة. كاد يفقد اتزانه، وهو الذي جاهد دومًا، أن يبدو غير متلهف على شيء.

ولكن، ما دمت قد فكرت فى امرأة أخري، فمعنى هذا، أنك لم تحبها. هل كنت فقط معجبًا بشخصيتها الدمثة. أم أنك فى داخلك، وقد تعديت الخمسين، تبحث عن زوجة مناسبة والسلام؟

أم أنك لست مستريحا لماضيها تمامًا؟

كان أحيانًا. يعتريه الشك، فيسأل عنها زملاءها فى العمل حين يزور حمدية، فيستشف من النظرات أن لها علاقات.

وحين يحاول الإمساك بخيط محدد، يجد نفسه فى جو لا يستطيع معه تبين الخيط البرتقالى من الخيط الرمادي.

وهذه الغابة الطالة أليست دليل استقامتها.. فلو كانت على علاقة بأحد ماأهملت نفسها هكذا..من يدري.. لعل من تحبه يثيره ذلك.. فطاوعته وتركت نفسها بهذه الغزارة.. لا أعتقد..

أمام مستشفى ميداني، أقاموه على عجل فى جانب من معسكر الأسرى

بعتليت، رقد الجرحى عدة أيام.. طلقات من الرصاص أصابت الجذوع والأذرع. والأفخاذ.. وتخثر الدم النازف على أجسادهم وملابسهم.

أحدهم يدمع.. ساقه تهتكت ولابد من البتر، لكنه يحمد الله بصوت مسموع أنه نجا من الموت. جاء ممرض إسرائيلى ممصوص الجسد، وحدثهم بعربية حروفها ممطوطة :

- صاحبك فى حاجة إلى دم..

نظروا إلى بعضهم بعضًا. ولم ينهض أحد.

- يا شباب.. صاحبك يموت..

نهض بعضهم، وفي أثرهم حمدي. كاد يسقط ثانية. عزا ذلك لرقدته مدة طويلة، وعدم سريان دم كاف إلى دماغه.

دخل المستشفي. شكة دبوس فى إبهام يسراه. بعد قليل غرزوا إبرة فى وريد يده اليمني. لم تستقر، فجربوا ذراعه الأيسر.

حين استوعب ما حوله. وجد على سرير حديدي، مواز لسريره، مجندة وقد غرسوا إبرة فى إحدى ذراعيها. وأعلى سريرها وعاء زجاجي تمتص منه الدم.

ود لو ينهض، لكن الإبرة فى ذراعه، وحلقة مطاطية تحيط به. وسمره مكانه، مارآه من شعر غزير تحت إبط الفتاة. هل الأجنبيات دائماً هكذا.

أخذه الممرض إلى الخارج، وهو لا يكاد يرى ما أمامه ودخل زميل آخر. لا يدرون كم مر من الوقت حين وزع عليهم الممرض ماءً غامقًا، وهو يقول:

- الشاى يا شباب.

رغم طعمه الماسخ، فقد بعثت سخونته شيئًا من الحيوية في أجسادهم. أحضر الممرض وعاءً بلاستيكيًا به أوراق كرنب مقطعة إلى شرط رفيعة، وبملعقة خشبية أخذ يوزع عليهم. حاول أحدهم أن يأخذ نصيبًا لزميلهم الذي فى الداخل.

قال الممرض :

- صاحبك الله يرحمه.

تبادلوا النظرات فى ذهول. سأل أحدهم جاره عن إصابته :

- كانت فى الإلية، ولم ينزف دماءً كثيرة. امتنعوا عن تناول الكرنب وطلبوا إبلاغ مندوب الصليب الأحمر. قال الممرض :

- صاحبك الله يرحمه.. لماذا لا تأكل أنت.. ؟!

غادرهم مسرعًا. وقف أحدهم بالباب. وجد زميله ملقى فوق ترابيزة حديدية، أرجلها رفيعة صدئة، وتحته مشمع مصفر، متهرئ، وبطنه ملفوفة بأربطة من الشاش، ناشعة بالاحمرار.

انتبه إلى كوعه، كاد يقذف بصينية القهوة. وجد فنجانه خاليًا. متى جاءت القهوة، ومتى شربها. ثبت ورقة مالية تحت الفنجان. نهض فى تثاقل وقد تكاثف السواد. مشى بمحاذاة الشاطئ..

ترى.. هل أنا الملوم.. ؟!

قلت : أحبك. صمت

قلت. تتزوج. صمت

هل صمتها علامة رضا. أم طبعها الخجول، والذي لم أدركه وقتها، جعلها تصمت حتى لا تجرحني، وقد اعتبرت عرضي بالزواج، جرًا لرجلها.

لو كان الأمر كذلك.. فلماذا قابلتني باحترام وود بعد ذلك.. ؟!

لعلها، كانت فى انتظار أن أضيف. سأفعل كذا، سأدبر كذا، حتى تأخذ كلامي مأخذ الجد، وكيف أضيف وهى لم ترد.

لم ترد.. نعم.. ولكنها استمرت في اللقيا ولم ترفض الحديث التليفوني. هل بذلك اعتبرت نفسها موافقة ضمنًا على ما عرضته، وظنت أنني فهمت، وانتظرت خطوتي التالية.. فأي تقصير - من وجهة نظرها - يكون قد حدث..؟!، وأنا الذي كنت فى حيرة من عدم ردها.؟!

خاضت قدماه، فى نباتات رخوة، مما يلقيها البحر على الشاطئ.. انحرف قليلا. تناهى إلى سمعه إيقاع كإيقاع آلة موسيقية، تشبه ملعقتين خشبيتين كبيرتين. أحد ذكور اللقالق المهاجرة، يخبط بشقي منقاره الطويل، جذباً لإحدى الإناث. اقترب من نخلة بدت أشد دكنة من الظلمة السارية، لم يجد شيئًا.

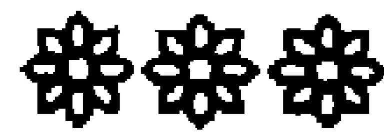
عاود سيره، وجاءه الإيقاع ثانية. ثلة من النخيل فى جانب من الشاطئ الرملى العريض، اقترب منها فلم يجد شيئًا.

تلفت حوله. أتاه الإيقاع، راقصًا، هاشًا. لاحت شجرة الكافور، القريبة من بيته. اقترب منها وقد أيقن أنه واجد اللقلق، وقد انحنت الأنثى - كعادتها - محيية، وهو يرد على تحيتها بانحناءة مماثلة. ثم يندغمان معاً فى إصدار إيقاع واحد بمنقاريهما.

خاب ظنه..

ولاحت له.. من خلف أسوجة بعض البيوت، زهور الفل البيضاء، وقد خففت من العتمة..

سار على هديها، ملتمسا الطريق إلى بيته.



23

ثلاثة يعرفون «التكتيك» فى العالم.
روميل.. ألمانيا
مونتجمري.. إنجلترا
ثم مشيرا بإبهامه إلى صدره :
مقدم جورج أديب.. القطر المصري.

بالكاد، يسيطرون على أنفسهم، حتى تنتهي المحاضرة، ثم ينفجرون فى الضحك. ويأخذ بعضهم، فى تقليده بلهجته الهادئة، الواثقة، خاصة وهو يضغط على المقطع الأخير «القطر المصري»، ناظراً فى عيونهم، بعينيه ذاتي الأديم الأحمر.

ابتسم عبد السلام فاروق، وقد سرح بعينيه فوق مياه القناة، التى ما أن تلثم البحر، حتى يفتح ذراعيه لاحتضانها.

وضع يديه على حافة المعدية، متعجلاً وصولها إلى بور فؤاد، وقد زاد شوقه للقيا الرجل. أشار العميد جورج إلى إحدى الدبابات المدمرة، وقال :

- هلا تلاحظ ما ألاحظه.. ؟!

كان قد أمكنهم تدمير وإصابة فصيلة من الدبابات المهاجمة، ومع ذلك انهالت على موقعهم، بعض القذائف. أفاد الاستطلاع عدم وجود قوات إسرائيلية بالقرب منهم.

اختبأوا فى الملاجيء، وفكروا فى الانتقال إلى موقع تبادلي، وهم فى عجب من الأمر. دقق عبد السلام النظر، وقال :

- البرج مدمر من أسفل

قال العميد نافد الصبر :

- الماسورة.

فجأة صاح عبد السلام من الدهشة :

- مدفع البرج له ماسورتان.

أمّن العميد متمهلا :

- بالضبط.

تسمح لي سيادتك.

أوما برأسه وهو يقول :

- توخ الحذر.

خطا عبد السلام بيمناه، محاذرًا، وهو يتطلع إلى حائط القناة الأسمنتي عند المرسى، ودائمًا يستشعر رعشة، عندما يلمح الماء في الأسفل، مدركا عمقه. عرج يميناً، الشوارع هادئة واسعة والبيوت من دورين أو ثلاثة. يُعلم شارعه ببقال على ناصيته..

لف عبد السلام حول موقع الدبابات المدمرة. لم يجد شيئًا غريبًا. حاول معرفة سر الماسورتين، فلم يفلح. نادى العميد فى اللاسلكي، وطلب إطلاق بعض القذائف على الدبابات، ثم التزام الصمت.

ما أن كف الضرب، حتى رأى دبابة سليمة، حشرت نفسها بين الدبابات المدمرة، وألصقت مدفع برجها بدبابة أخرى، انسحبت إلى الخلف وحركت مدفعها.

هتف عبد السلام فى اللاسلكي :

- وضحت الرؤيا.

لم يرد العميد على الفور، فأدرك أنه يستوعب الموقف. بعد قليل سمع صوته:

- جاهز

- تمامًا

- تعامل معها.

زحف عبد السلام من التبة، التى كان يحتمي بها. وحين اتضح له أن قذيفة الـ آر- ب - ج، ستكون مؤثرة، توكل، ونشن، على مكمن الحركة في برج الدبابة. أصمه الدوي. وعندما فتح عينيه، وجد ماسورة المدفع قد مالت إلى جنب، والنار مشتعلة، وإسرائيلي يحاول الخروج من فتحة جانبية. النار مشتعلة فى ملابسه، ويصيح مذعوراً:

- سيدي.. ارحمني.. لا تقتلني.

تردد عبد السلام. كان جسده محشورًا فى الفتحة، التى ضغط عليها اعوجاج ناصية المدفع. ثوان وتنفجر حمولة الدبابة من الدانات. أسرع عبد السلام ووضع قدميه على الجنزير، وأمسك بجذعه. وهو ينتزعه، انشقت ملابسه، وجرح من احتكاكه بالصلب المشتعل. قفز إلى الأرض، وجرى وهو يجره.

سرعان ما ارتجت الأرض تحتهما. أحس بغصة، ونظر إلى عيني المنبطح جواره.. كأنه يقول له.. لم يكن أحد يستطيع لباقى الطقم شيئًا.

هلل العميد مرحبا بعبد السلام. وعندما رأى الأسير، صاح، وقد تذكر ما فعله بموقعهم :

- دوختنا يا ابن اللئيمة.

وطلب من أحد الضباط، أن يضمدوا جراحه، ويرسلوه إلى المؤخرة.

ما أن رآه اللواء جورج، حتى أخذه فى حضنه، فأحس بجسده يتلاشى، وهو الربعة المتين، فى هيكله الضخم.. وقد لمس ترهله قليلًا.

أجلسه فى كرسي مريح قبالته، وهو يسأل عن الزملاء القدامى. طالعه وجهه الباش، بعينيه الحمراوين، وبشرته البيضاء المشبعة باحمرار

خفيف.. وابيض أكثر، شعره السائح، وبان خفيفًا، وقد شف عن صلعة لوحتها الشمس. ذهب يحضر الشاي. لفت نظره على مكتب إلى يساره تمثال فرعوني. أغلب الظن لملك.. ما دام يمد إحدى يديه بالصولجان، فى قمته عين حورس. وقد رسخت قدماه فى الأرض، إحداهما خطت إلى الأمام. وفى امتداد قاعدة التمثال إلى يمينه، أكثر من مجرى، عليها أقلام، وفي خلفيتها وراقة خشبية، أطلت منها حواف بعض الرسائل. وعلقت في الصولجان حلقة، رجح من لونها البرتقالي المائل إلى الاحمرار، أنها فرع ملفوف من سباطة بلح، كاد يستشعر ملمسها الشمعي، وقد برزت نتوءات داكنة.

وهو يقلب له الشاى، نحى يده، برفق وقال :

-أنوي السفر للسعودية.. في عمل.. إذا كنت حضرتك تريد شيئًا..

تطلع إليه.. وبعد قليل وشت عيناه بالمرح، وقال :

- فات الميعاد.

انطلق عبد السلام ضاحكاً، وقد نشع ما كان. ذات ظهيرة، وقد انتهوا من طابور تدريب، أمر العميد رقيب الإذاعة، بالترفيه عن الجنود. وكان الرقيب مغرماً بأم كلثوم، وفي هذا اليوم، كان بينه وبين أحد زملائه سوء تفاهم، وكان محبوسًا بالمعسكر ومستثنى من الإجازة. فأذاع الرقيب أغنية «فات الميعاد»، وكلما انتهت أعاد إذاعتها، حتى أفلتت أعصاب الزميل وتشاجر معه، وسُمعت أطراف من زعيقهما فى الإذاعة.

أرسل العميد، عبد السلام فاروق لتحري الموقف. استدعي رقيب الإذاعة، وصالحه على زميله، بينما تناثرت تعليقات الحضور :

- هل فاتك موعد حقًا..

- على الترعة.. ولا في جنينة الحيوانات..

- وحبكت النكتة أحدهم فقال :

- وأنت الصادق... في أرض الميعاد..

ضجوا جميعا بالضحك، وأسرع العميد جورج إلى مكتبه، وعاد وفي يده نسخة من العهد القديم، وقال :

- بمناسبة أرض الميعاد.

فر التوراة، وتوقف بإصبعه عند صفحة معينة، وقال :

- في سفر التثنية، الإصحاح الثاني، العدد الرابع، تقول الآية «وأوصي الشعب قائلًا وأنتم مارون بتخم إخوتكم بني عيسو الساكنين سعير فيخافون منكم فاحذروا الهجوم عليهم لأني لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأني لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثاً» تطلع العميد إلى وجوههم، فاستشف استغلاق بعض الكلمات عليهم. قال :

- سعير.. في أرض كنعان.. فلسطين يعني..

تساءل الرقيب :

- محرمة على الشعب.. !!

رد العميد :

- اليهود يعني..

قال عبد السلام فاروق :

- وهل ننسى تصريح ديان أنه ملحد..وكذا أغلب زعماء إسرائيل.

قال المحبوس :

- فلا معنى.. للكلام عن الحرام والحلال.

وصلت المعدية إلى بورسعيد. تطلع عبد السلام إلى ساعته. ترى.. هل استغيبته صفية. ليتها أعفته من الغداء، خاصة وهو لا يعلم هل لاقى قبولًا أم لا. ما فهمه من كلامها، أنها مهدت لهذا اللقاء، لكن الكلام شيء، ورؤيتهم له والحديث معه شيء آخر. ولعلها لم تذكر لهم كل شيء.. هل لحظوا فرق السن بينهما، هي تسبقه بسنوات قليلة، حسب زعمها، وهو على مشارف الأربعين.

استأذن ليترك لهم الكلام بحرية، وانتهزها فرصةً لزيارة اللواء جورج. على أية حال.. أيًا ما كان، انطباع شقيقها، ورده، فهو يحس بالثقة الآن، عنه في الصباح.

مشى بحذاء السور المحاذي للقناة، وقبل أن يصل إلى نهايته، عرج إلى الطريق الموازي للبحر. لكن عليهم ألا ينسوا.. هذا الزواج الثاني لها، وهو لقطة بالنسبة لها. لقطة.. أم هي اللقطة، بعقدها للعمل في السعودية. أتراها، لولا حاجتها لمحرم، ماوافقت على الارتباط به، وهل هذا وقت التيقن والسؤال. وأين كنت من زمان.

هل سيوافق شقيقها، مراعاةً، لمصلحتها والسلام، أم..

غذ السير، وهواء البحر، يرطب جبهته ،ويتغلغل في ثنايا ملابسه، مخففًا من غلواء الشمس، بينما عيناه تبحثان عن ظلال، دون جدوي.

التفت يساراً، حيث تنبثق الشوارع، المؤدية إلى وسط المدينة، وعند أحدها، قدر أنه يؤدي إلي شارعهم، انحرف.. لقي جنينة فريال في طريقه، التى احتلت مربعاً كبيرًا. تطل من المحال في الشوارع المحيطة بها، البضائع المستوردة.. أقمشة ذات ألوان مختلفة. وأدوات كهربائية.. خلاطات وتليفزيونات، وسخانات، وعلب الشاى، والفواكه المحفوظة، والشيكولاته واللبان، والأحذية.. خاصة الرياضية، المصنوعة، في هونج كونج وتايوان تقليداً للعلامات العالمية. قادته قدماه إلى دكة حجرية في جانب من الجنينة.. وقد احتل الممر غير بعيد منه، كشك خشبي يصنع الشاى والقهوة، لرواد هذه المحال.. الذين يستردون أنفاسهم على الدكك، ويفرغ صبي جردل الماء الذي يغسلون فيه الأكواب في الممر، وعلى النجيل المنحول، وقد ظهرت تنوة القهوة، وتفل الشاى.

رفع رأسه ونظر... حيث الأشجار، لم يفلح الهواء، في ذر التراب عنها، فظهرت بقع على الأوراق الخضراء الداكنة، وثمة خيوط عناكب، بين بعض الأغصان.

آه.. لو أعفته من الغداء، لن يستطيع بلع اللقمة، دون أن يعرف ما انتهوا إليه. وابتسم لأنه أوضح الأمر فى ثنايا الكلام، رغم نظرات صفية الزاجرة، وقد جاءت زوجة شقيقها. انه استطاع تدبير مبلغ لا بأس به أثناء خدمته كضابط احتياط.

هل وصل ما قصده، أن مستقبله ليس متوقفًا على هذه السفرة، وأنه يستطيع تدبر أمره. حقًا، لن يعود للتدريس كمدرس محاسبة في إحدي مدارس التجارة المتوسطة. لم يعد يستطيع أن يعيش بمرتب المدرس، بعد أن تعود على راتب الضابط الذي يفوقه عدة مرات. وهو ليس من هواة الدروس الخصوصية، وحتى لو أراد، فبعد هذه الغيبة الطويلة، كيف يخترق مناطق النفوذ، التى صنعها كل مدرس فى مدرسته، أو فى حيه.. وهل يستطيع أن يعتمد على التدريس فى مجموعات التقوية بالمدرسة. انخرط فيها مرة، أعطوه خمسين قرشًا عن كل حصة، بواقع ثلاثة جنيهات ونصف فى الأسبوع، ثمن فنجان شاى في أى مقهي الآن، وربما أقل.

بان أولاد شقيقها من الفَسَحة، يلتقطون طرطشة الكلام، واستحسنت زوجة شقيقها كلامه، فانتشى، مقراً أنها بلاشك تستطيع إقناع زوجها، الذي لم يعلق بشىء. فى تلك اللحظة، لحظة الانتشاء، زغرت له صفية..

آه.. «ضربة نشوة».

كان تشكيل من الدبابات الإسرائيلية، بقوة سرية، متقدمًا ببطء، وفاتحًا ليضرب، فى محاولة لردهم إلى حافة القناة. وتلك اللحظة هي نقطة ضعفه، فأمر العميد جورج بتوجيه ضربة إحباط.

اقترح عبد السلام على العميد جورج «ضربة نشوة».

- نعم يا أخي.. ؟!

وتطلع إلى رئيس عمليات اللواء.

قال عبد السلام :

- قبل أن تصل الدبابات إلى مواقعنا، سأوهمها أنني فاتح بتشكيل

للهجوم، وعندما تطلق، ستصمت مدافعي، وستظن أنها فاجأتني بضربة إحباط، وسيتخيل العدو أنه نجح، ويصاب بالنشوة، وأنتهز تلك اللحظة، وهي نقطة ضعف أيضًا، وألتف بقواتي الرئيسية من الأجناب، ونبدأ القصف.

لمعت عينا العميد الحمراوان، وتهلل وجهه، وقال وهو يتطلع إلى رئيس العمليات:

- والله فكرة..

وأطرق منتظراً رأي رئيس العمليات، أو ملاحظة أحد من أركان حربه. فجأة صاح:

ـ نفذ .

نظر رئيس العمليات محذراً، فارتبك عبد السلام في داخله قليلاً، وقد أحس بالخوف من اندفاع العميد، وفي الوقت نفسه، لم يهضم تماماً شدة حذر رئيس العمليات. واعتراه تردد.. تذكر أمر العميد المفاجئ له بالاشتراك فى الهجوم على القنطرة. حقا أربك دفاعات الإسرائيليين عند القنطرة شرق، من أحد الأجناب، وقد ركنوا إلى أنه نيران ثابتة. لكن من جهة أخرى حدثت ثغرة فى تأمين عبور المهمات، لا يدري أحد ماذا كان يمكن أن يحدث، لولا أن تداركت الأمر وحدة مشاة، كانت تؤمن مؤخرته.

وتابع العميد :

- معك سرية.. أرني شطارتك.. وليكن فى علمك، لو فشلت الضربة، لن تكفيني.. لا أنت ولا ناسك.

ضحك الضباط الموجودون، وقال أحدهم :

- ناسه فى شبرا.

عاودوا الضحك ثانية، وقد وصلتهم تلميحته، حيث أغلب سكان بعض حارات وشوارع شبرا من الأقباط.

عقب العميد :

- ولو.. يا «غجر».

وأمر رئيس العمليات، بوضع سرية أخرى من الدبابات على أهبة الاستعداد، تحسباً لأي طارئ.

فتح عبد السلام تشكيله فى أرض على حافتها دبابات مدمرة منذ الأمس، وأخفى قواته الرئيسية خلف تبة قريبة. وصمتت مدافعه فى الوقت الذي قدره، وعندما تقدم العدو وأخذ فى القصف، اتسع تشكيل عبد السلام لتشمل أرضه الدبابات المدمرة، لعل الأمر يختلط على العدو. وعندما لحظ من حركة دباباته أنها تتقدم فى زهو، أرسل إشارة للدبابات خلف التبة أن تنقسم إلى جزءين، ويتقدم كل جزء من جانب. فوجئ العدو بالقذائف تحيط به.

هلل العميد، وأخذ عبد السلام فى حضنه، وهو يقول :

- عفارم يا سُلم.

وعلق أحد الضباط

- لعلهم يقتنعون باستحالة ردنا للخلف.

قال آخر :

- لا أظن.

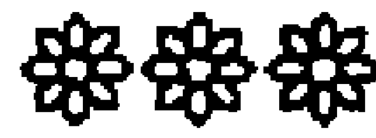
أحس عبد السلام بزمتة فى الهواء، فنهض وهو يقول.. ليتها أعفتني من هذا الغداء.. وتذكر عندما ألح، نظرتها التى كادت تنططه. ثبت عينيه فى عينيها، لتقلع، وهى لا ترمش، بينما يرى وجهه في عينيها، بشاربه الأسود، وحاجبيه العريضين، وشعره القصير الزيتوني فوق جبهته السمراء العريضة، محرم، كان عندما يفتش على ذقون الجنود في طابور الصباح، لا يرمش أحدهم.

تجاوز شارع التلاتيني، وقد طالعته أرصفته بزهور صناعية، فاقعة

الألوان، وأغصان خضراء داكنة، وخرم باتجاه حي المناخ بالقرب من بحيرة المنزلة، حيث بنوا عمارات شعبية مكان تلك التى أحرقها البريطانيون فى حرب 1956.

كانت ثمة بيوت قديمة، ذات بواك وشرفات عريضة خشبية. أخذ يتفحصها، خشية أن يضل. صعد السلم الخشبي حتى الدور الرابع والأخير. طرق الباب برفق، وهو يطمئن نفسه، أنه لم يتأخر عليها، متعجلا الانتهاء من الغداء، لتوصيلها إلى باص الإسماعيلية، وليعرف منها ما انتهوا إليه. وسواء وجهت إليه ضربة إحباط، أو ضربة نشوة، فسيتحلى بالصبر، حتى يخرجا. فتح له أحد الأولاد، أسرعت صفية خلفه وقالت :

- تعال.



24

ألم تقل :

«أنت بالذات.. لا أريدك أن تزعل مني».

هل كانت تراعي شعوره، وقد أحست بما يفور داخله، أم أن الموقف فرض الكلمات على لسانها. ولماذا لم تراع شعوره، حينما تحدث أحدهم على المقهي، عن فيلم جميل فى سينما قريبة، وحين نهض المتحدث لمشاهدة العرض، رافقته، دون أن تلتفت إليه. أحس ساعتها بالغيظ وكتم في نفسه.. حقًا.. ولماذا لا تذهب.. هل بينها وبينك شيء بصريح العبارة..؟!

رجلا بنطلونه بللهما الماء. حذاؤه فى يسراه. زبد الماء أعلى ساقيه. وطال رذاذ الموج قميصه، فشف والتصق ببطنه.

نظر إلى يمينه، فأدرك أنه تجاوز المنطقة التى بها بيته، وقد ظهرت من خلفها ذؤابات أشجار الكافور والجازورينا، باسطة ظلالاً هشة على الدور المنخفضة.

كر راجعًا، ليغير ملابسه.

على باب معسكر الهايكستب، كان لابد من خلع جميع الملابس، وأن يدخل الإنسان كما ولدته أمه. تركوا ما يحملونه. فأخذوه فورا لإعدامه. نظروا جميعا، لبعضهم، وانفجروا ضاحكين. ليس من العري المفاجئ تحت أشعة شمس الظهيرة، وهم يدفعون بهم تحت أدشاش مياه ساخنة. وممنوع الخروج من باب الحمام، الذي دخلوا منه. ينتظرهم عند باب

آخر، جندي من قوة المعسكر، يناولهم ملابس جديدة، داخلية وخارجية، وحذاءً وشراباً. كان ضحكهم على هؤلاء الذين احتالوا، للحصول على سجائر زملائهم فى الأسر، حيث كانت العملية رائجة. واشتروا بها بطاطين، جديدة نوعًا، كان الحراس الإسرائيليون يسرقونها من المخزن، لينعموا بسجائرنا، بدلاً من سجائر «العال» الإسرائيلية الرفيعة، التى يشحط دخانها فى الزور.

وكلف المستأثرون ترزية من الزملاء، فصنعوا من البطاطين جاكتات بأكمام دون ياقات، وأخرى دون أكمام أشبه بـ الصديري. وحين وصلت هدايا من مصر بها بيجامات، وغيارات داخلية وزنوبة وحلوى وسجائر اشتراها من فاضت معهم سجائر.

وزاد من ضحكهم، رؤيتهم لبعضهم، يخبون فى ملابس كاكية جديدة، فضفاضة، ليست على مقاساتهم.

وكان لابد من المكوث فى الحجر الصحي، عدة أيام، حتى يستوثقوا بخلوهم من أية أمراض. وجاءهم محاضر من قبل التوجيه المعنوي، وسرعان ما انهالت عليه الأسئلة..

تستفسر فى حدة عما حدث فى الجبهة فى يونيو 67 وكأنه هو المسئول عما حدث. وأوسع الضابط من صدره، وهو يرد عليهم..

ولكن.. كيف يخفف عمن كانوا فى الأسر.

فى معسكر مؤقت فى بئر سبع، محاط بالأسلاك الشائكة، مبذور على أرضه، كور من الشوك تشبه شوك القنفذ، وطلبوا منهم أن يجلسوا..

كانوا ما زالوا يتفحصون أنفسهم.. من نجا.. ومن فقد.. فى الباص الذي أقلهم من سيناء، منعوهم من النظر إلى جانبي الطريق. فجأة يصيح ضابط فى عصبية، مشيراً إلى أحدهم :

- أنت نظرت.

وسرعان ما تلتصق فوهة مدفعه فى رأسه.. فيتكوم مكانه، تسح منه الدماء.

وفى المعسكر، صاح الحارس الإسرائيلي :

- هل فيكم أحد جدع ؟.

......

- واحد جدع ..

قام أحدهم، فقال له الحارس :

- قل: أنا جدع.

فقال :

- أنا جدع.

عاجله بدفعة من رشاشه.

اشتدت حمية الشمس.. وأوشكت رؤوسهم أن تتقد، وإذا بضابط إسرائيلى يدخل إلى المعسكر. أجلسهم الحراس ثلاثات فى صف طويل. قال الضابط :

- بينكم ثلاثة فدائيين.. فليخرجوا.

لم يتحرك أحد. جاءت دبابتان، واحدة من أول الصف والأخري من آخره، وهرست كل منها ثلاثة أفراد.

زعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون.. ؟!

-.............

عاودت الدبابتان فعلتهما. وزعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون.. ؟!

نظروا لبعضهم، يتساءلون بعيونهم عما يفعلون. خرج ثلاثة من الصف. أطلق عليهم الضابط الرصاص.

انتصف النهار.. ولحظ المحاضر، أن حدة لهجتهم، لم تخف.. فأخذ يحدثهم عن تجميع فلول العائدين من سيناء غداة الحرب.. وإقامة دفاعات على خط قناة السويس.

بعد المحاضرة صرفوهم حتى موعد الغداء.. وفي العصاري.. حين جاء موعد المحاضرة التالية.. تخلف بعضهم.. وسرعان ما تألقت عيونهم، ورفت بسمات على الشفاه. بعد المغرب. كانت جماعات، تتسلل من تحت سور الأسلاك الشائكة المحيط بالمعسكر. وقد اتفقوا على العودة في البكور، أو قبل أن يمضي النهار، لمن مسافتهم طويلة.

لا يغيب عن ذهن حمدي، أبدا، هذا الألق الذي لمع فى العيون، وقد توقعوا مفاجأة الأهل.. واستبد بهم فضول محرق، مبهج، وهم لا يعرفون بالضبط ماذا سيلاقون.

كانوا يجلسون في مقهي، على النيل فى طلخا، أرادت صفية أن تمضى لتلحق بموعدخاص بعملها. استأذنت من حمدي، دون الجالسين جميعًا. لحظ ألقًا فى عينيها، محملا بالود. تباطأ فى السلام مستمتعًا باللحظة، فاحمرت وجنتاها، وزاد من غيه فهز رأسه نافياً السماح لها بالإذن، اتسعت ابتسامتها راجية، فطارت سدادة نبع الحنان فى داخله، ووجد نفسه تحتويها، ورأسه تومئ بالإيجاب.

كأنما كانوا نائمين، وصحوا فجأة.. وجدوا أنفسهم وسط أنوار القاهرة المتألقة. أقلته عربة جيش حتى تماس صحراء مصر الجديدة مع العمران مع اثنين من زملائه. حاول حمدي، إيقاف عربة أجرة، لتذهب بهم إلى موقف عربات الأجرة بين المحافظات. يشير السائق إلى عداده، الذى تلفُّه فوطة صفراء، إشارة إلى أنه خارج العمل.

قال حمدي :

- لن يقف أحد لزبائن مقشفرة مثلنا
قال أحد الزميلين :
- يريد زبائن.. فرادى.. ليأخذ من كل منهم ثمن التوصيلة.
وقال الزميل الآخر :
- وتعلن الحكومة كل مدة عن بنديرة جيدة
ضحكوا.. وعقب حمدي :
- العداد لا يؤبه له.
قال الزميلان :
- كنا مستريحين..
ضحكوا ضحكة ممطوطة. وأردف حمدي، ضاغطًا على الحرف الأخير :
- لأ
تشعبطوا في أحد الباصات المزدحمة حتى موقف «أحمد حلمي».. يتفادون بصعوبة دخول وخروج العربات.. ونداءات عمال الموقف :
- طنطا نفر.. الزقازيق.. المنصورة.
- المنصورة.
أشار أحد المنادين إلى جانب :
- عندك يا دفعة.
قال أحد الزميلين:
- ممكن أنزل في ميت غمر
- تدفع أجرة المنصورة
- وهو كذلك.
ركبوا ثلاثتهم، وسرعان ما اكتملت العربة. انطلق السائق وهم

لا يصدقون أنفسهم. هل حقا هم فى مصر.. وينطلقون على الطريق الزراعية.. وفي الطريق إلى بيوتهم.. حلم أم علم.. !!

دمعت أعينهم تأثراً. لمحهم الراكب جوار السائق فى مرآة أمامه. التفت إليهم:

- وحدوه.

- لا إله إلا الله.

- تصلون بالسلامة.

«من سيوصل عم عزيز». ما أن نطق اسم عزيز، حتى انفجر الواقفون ضاحكين، وقد غادرهم شعور بالأسى والترقب منذ بدأوا الرحلة فى البكور من عتليت، خشية أن يحدث ما يعطل رحلتهم. وقفت الباصات المحملة بالأسرى قرب الشاطئ الشرقي لقناة السويس. أنزلهم الحراس الإسرائيليون. حضر مندوبو الصليب الأحمر، لعمل إجراءات الاستلام. جاءت لنشات من الضفة الغربية لتقلهم. فجأة وجدوا عم عزيز حارس كنيسة فى القنطرة شرق بينهم :

- الرجال.. الأبطال.. يا مرحباً.

قال ريس أحد اللنشات مداعبًا :

- نريدك معنا يا عم عزيز.

- لم يأن الأوان.

- دائما تقول ذلك.

- ليس بيدي.

قال بعض العائدين :

- افعلها واركب معنا.

- بعد أن يمشي الكلاب.

تلفتوا حولهم فى اضطراب، مخافة أن يحدث ما يعطل الإجراءات. بعض الحراس يجيدون العربية. نظروا لعم عزيز ولم يعلقوا. لحظ عزيز ما اعتراهم، فأشاح بيده فى استهانة.

قال ريس اللنش الذى ركبت فيه الدفعة الأولى:

- ألا تريد شيئًا يا مقدس.

- سلموا لى على مصر.

وأعطاه بعضهم، مامعه من سجائر وملابس. بقيت من الهدايا المصرية التى حملها إليهم الصليب الأحمر. نهاهم الحراس عن ذلك. وأخذوا في إطلاق الرصاص من رشاشات عوزى قصيرة المدى. اقتحم الواقفين ضابط ملوحاً بمسدسه. لَمّ عم عزيز حاجته، كأنه لا يراه ومشى نحو كنيسة على مقربة. وقد بانت واجهتها المخروطية على هيئة ثلاث ثمانيات، الوسطي كبيرة. وتحت الثمانيات دوائر مكسوة بزجاج ملون، علقت به الأتربة. ولاح لراكبي اللنش جانب من الكنيسة، ظهرت به خروم، وتساقط البياض عن بعض الأجزاء.. فظهر الطوب الأحمر.

لكز حمدي الجالس إلى يمينه فى اللنش، وأشار إلى عزيز قائلا :

- الملعون

تطلع حمدي فوجده واقفًا بالباب الخشبي الضخم. لاحت قامته الممصوصة، ولم يفلح جلبابه الأفرنجي الأبيض الهفاف فى إخفاء عظام صدره البارزة. وقد انحنت رقبته قليلا على صدره، وهاشت شعيرات رمادية فى مقدمة صلعته.. يحيط بها هلال من زغب أبيض.

لوح للنش المغادر بإحدى يديه.. وباليد الأخرى يوزع ما لَمّه على صبية ونسوة بدويات تجمعوا حوله.

لفت نظر حمدي، عدم وجود رجال وشباب. فأسر إلى جاره فى اللنش بملاحظته. قال :

- لحظت ذلك ونحن على البر، سألت عم عزيز فأخبرني أنهم يعتقلونهم.

صافحت عيونهم البر الغربي. وأصوات طلقات الرصاص ما زالت تلاحقهم. وكان أخشى ما يخشونه، وتنطق به نظراتهم القلقة، أن يصاب أحد، أو يموت، وهو على وشك الوصول إلى بيته، وقد انتهت الحرب بالنسبة له منذ دقائق.

كان فى استقبالهم ضابط برتبة لواء، ومعه ضباط برتب كبيرة. سلموا عليهم بحرارة، وكان الدمع يطل من عيونهم، لكنهم يتماسكون، بينما العائدون، لم يملكوا أنفسهم، فاغرورقت عيونهم بالدموع، وقد صعبت عليهم نفوسهم فجأة، وتجمع ألم ثمانية شهور فى الأسر فى لحظة واحدة. حاولوا التخفيف عنهم بكلمات الترحيب، وحمداً لله على وصولهم بالسلامة. قدموا لكل منهم علبة «جاتوه»، وعلبة بها شطائر كباب وكفتة، وزجاجة مياه غازية مثلجة.

وصحبوهم بسرعة، بعيداً عن شاطئ القناة. وكانت الباصات فى انتظارهم فى القنطرة غرب. ما أن يكتمل أحدها، حتى ينطلق. على جانبي الطريق المسفلت حفر عليها شباك مموهة، وبداخلها جنود نصبوا المدافع، ويرتدون الخوذات، وعليهم شدة الميدان. نهض الجنود من تحت الشباك، ولوحوا لهم بالبنادق.

- حمداً لله على السلامة.

- شدة وزالت.

لم يبتعدوا كثيراً، عن القنطرة غرب، حين دوت طلقات المدافع. أخبرهم الجنود المرافقون، أن الاشتباكات عادت من جديد.

من طرطشة الكلام، التفت السائق إليهم، كأنما ليتأكد أنهم بشر مثله. تبادلوا النظرات، وعمهم صمت، جعل كلاً منهم يغرق في أفكاره.

ما أن صعدوا إلى الباص الذي أقلهم من رفح سيناء إلى داخل إسرائيل، حتى أمرهم حارس بباب الدخول، بالهتاف : «يسقط ناصر».

تبادلوا النظرات، وتململت أيديهم في قيودهم خلف مقاعدهم. أطلق الحارس دفعة من رشاش عوزى. مالت أجساد بعضهم على الكراسى، وسالت الدماء على أرض العربة. قال الحارس في صوت أجش :

- يسقط ناصر.

خرج صوت بعضهم ضعيفاً :

- يـ سقـــ..ط.. نا.. صر.

توقفت العربة عند منعطف.. وصعد شاب غاضب في ملابس مدنية، وفي كتفه مدفع عوزي. تصفح الوجوه، كأنه يبحث عن شيء، فجأة أطلق دفعة من الرصاص. قال السائق وكان مدنيا ،دون أن ينظر ناحيتهم :

- قريب له مات في الجبهة.

زعق الحارس :

- عاش السيد ديان (وزير الدفاع الإسرائيلي)

تفادوا النظر إلى وجه الحارس، وخيل إليهم أن أجسادهم تتداخل في الكراسى. أطلق الحارس دفعة من الرصاص فوق رؤوسهم اخترقت إحداها رأس الجالس جوار حمدي.

خرجت أصواتهم واهنة، فأطلق الحارس دفعة جديدة من الرصاص وحثهم على رفع أصواتهم.

- يـ سقـــ..ط.. نا.. صر.

ولم يستطع أى منهم النظر في عيني زميله .

الرئيس عبد الناصر، الذي أحبوه، واعتراهم الحماس خاصة وهو يهدد ويتوعد فى مؤتمرٍ صحفى عشية حرب يونيو، زاعقا فى صحفى إنجليزي أنه ليس خرعاً مثل إيدن رئيس وزراء بريطانيا.. وبعث صوته الواثق الحمية فى أبدانهم وهم فى معسكراتهم، وأنهم سوف يهزمون إسرائيل لا محالة.

فوجئوا بالدبابات الإسرائيلية تقتحم مواقعهم وهم من المشاة. وطاردتهم طائرات المستير فى صحراء مكشوفة، وأمطرتهم بطلقات مدافع الفيكرز، وليس فى أيديهم سوي تسليحهم الشخصي من مدافع قصيرة المدى. وحاول من معه بندقية سريعة الطلقات الإطلاق على الطائرات. لكن انقضاضها أسرع، ودويها عند الاقتراب يصم الآذان، وينظرون بأسى إلى مدافع الميدان، غير مهيأة للعمل. كانت محملة على المقطورات الخاصة بها، استعداداً للرحيل إلى موقع آخر. وهم بالأمس فقط حضروا إلى هذا المكان.

الأسطولان الأمريكي والبريطاني، قريبان من أرضِ المعركة، يوحيان بتكرار ما حدث فى 56، مع فارق أن أمريكا حلت بدلاً من فرنسا، وحيث احتل الفرنسيون بور فؤاد، والبريطانيون بورسعيد، ومن خلفهما القوات الإسرائيلية فى سيناء. وأذاع الرئيس الأمريكي تحذيرا بمغبة من يبدأ بالهجوم.

فى يوليو عام 1882 وقف الأسطول البريطاني أمام ساحل الإسكندرية. أسرع عرابي لترميم طوابيها القديمة، وإصلاح مدافعها عتيقة الطراز، وكان مدي قذائف أغلبها، غير مؤثر على السفن.

أرسل قائد الأسطول تحذيراً من مغبة العمل فى الطوابي، لأن ذلك يهدد سلامة سفنه. وكأنما خشي الأدميرال أن يسأله أحد : ولماذا أتيت من

بريطانيا على بعد مئات الأميال، أسرع بإطلاق مدافع بوارجه. اشتعلت النار فى بيوت الإسكندرية، وأسرع الجنود البريطانيون إلى البر.

وكان بعض القادة قد حذروا من وجود قوات بهذه الكثافة فى سيناء، دون عمل، خشية أن تنتقل المبادرة إلى إسرائيل.

وفى صباح السابع من يونيو صدرت الأوامر بالانسحاب .

- يسقط عبد الناصر

وصلت العربة إلى قرية ميت غمر. نزل زميلهما. ورفض السائق أخذ الأجرة. ودع حمدي زميله.. وغرق ثانية فى أفكاره..

لا.. لم أهتف أبدا بسقوط ناصر.. كنت أحرك شفتي فقط.. كان الحارس فى مواجهتي.. ربما يكون صوتي قد خرج ضعيفًا.. مجاراة للظروف فقط.. وهل معقول أن أهتف بحياة ديان.. لا.. أنا متأكد أن صوتي لم يخرج أبداً. خرج.. لا أعتقد.

وعند أجا نزل زميله الآخر. حاول إعطاء السائق أجرة نفرين فأبى أن يأخذ شيئاً. اعتدل حمدي فى جلسته، وحاول أن يفرد رجليه.. يلازمني سوء الطالع دائماً.. عندما أنزل أعطيه أجر ثلاثتنا.. وغبط نفسه، لأنه احتاط وأخذ سلفة من مقصف المعسكر أكثر من زميليه. وعند سندوب، على مشارف المنصورة، سأل السائق عن موقف عربته.. وهل سيدخل إلى المدينة عن طريق كوبري سندوب.. أم سيلف من المدخل الآخر. قال السائق :

- أين بيتك؟.

- بالقرب من ميدان الشيخ حسنين.

لف عجلة القيادة، ليعبر الكوبري، غير مصغ لكلامه ينهيه إذا لم تكن طريقه.

توقف عند الميدان. ناوله حمدي أجرتهم جميعا فأبي.

- لا ذنب لك.

بكف السائق اليمنى أطبق يده على نقوده، وهو يقول :

- عيب.

وجد نفسه وحيداً في الميدان، في مواجهته جامع الشيخ حسنين صامتًا. وتنبعث من جنبات الميدان إضاءة خافتة، وقد أوشك الليل على الانتصاف. حركت ريح هينة أغصان أشجار الحديقة التي تتوسط الميدان. طالعته نخلة قصيرة، ذات فروع عريضة. نخلة ملوكي لا تسمق مثل النخيل العادي. وسط الحديقة عامود، أعلاه مصابيح عليها قبعات زجاجية مصنفرة، مكورة، وبانت أوراق الفروع ريانة. بالتأكيد لا تقترب منها الحشرات، فهي لا تثمر بلحاً يغريها. كان يحلو له قبيل الحرب، أن يستريح مع بعض زملائه، جوار ثلة من النخيل. وكان السيناوية يحضرون نملاً من الجبل يسمونه المقاتل. ويطلقونه عند جذوع النخيل. فيصعد ليلتهم أعداء البلح من دود وسوس أحمر.

وحتى يقطعوا دابر السوس، أحضروا قططاً، لترشدهم إلى المسارب المؤدية إلى جحور الفئران، حيث يحلو للسوس الأحمر أن يضع بيضه فيها لتتم أطواره.



25

والمساء يضع عباءته، أحس حمدى لسعة برد خفيفة. اتجه إلى مقصف الفندق، حيث يحجز الزجاج عن البحر والهواء. مني النفس برؤية سمية. نظر فى ساعته، وتساءل.. هل سلمت.. ؟!

رفع رأسه، فوجدها أمامه. ابتسامة، تخايل وجهها :

- أفندم.

تخلص من وقع المفاجأة، وقال :

- ممكن أعزمك على حاجة ساقعة.

- ممنوع أثناء العمل.

إجابة لا تتضمن الممانعة.

- بعد انتهاء نوبتك.

- ممنوع فى مكان العمل.

- مكان آخر.

- ماذا تريد.

- الكلام معك .

ضحكت وقالت :

- ماذا تريد أن تشرب

- أجيبى ينوبك ثواب

- عندك أمى

- ألا نتفق أولا .

نقرت بالقلم على مفكرتها.. وأشاحت بوجهها :

- أسرع :

- شاي سكر خفيف.

وهي تقيد الطلب، انزلق قلمها الصغير من بين أصابعها، على الترابيزة، أسرع بمناولته لها، فتماست الأصابع. سري فيه تيار من دفء ناعم، مبطن برغبة مبهمة. رمقته بنظرة جانبية سريعة. أتراها تتساءل.. هل حدثت اللمسة.. بقصد.. أم صدفة. وهي تسحب النظرة، أحس فيها بدلال، واعتزاز، وتحذير.

أولته ظهرها. تأمل مقعدتها المكتنزة. استعاد نظرتها ثانية، محاولاً، سبر أعماقها. عيناها صفراوان، بهما لمعة بنية، غير ما انطبع فى ذهنه عنهما سابقًا، أنهما عسليتان. لا.. ليست اللمعة بنية، ولكنها فى اصفرار بلح أَمْهَات، استوى على أبيه، أشع فيه ألق الأنثى، فبدا أشبه باللون العسلي.

وبان له وجهها، أكثر استطالة، مما قدر سابقًا، وأمسى وجهها ولا يدري كيف، أكثر ألفة مما بدا سابقًا.. وأقرب إلى النفس.

أحضرت مضيفة أخرى الشاي، فأدرك أن سمية غادرت. لفت نظره أن جمالها طبيعي، دون مساحيق.

وبعدها معك..

رأيت فتيات راعني جمالهن، وعلمت أن بعضهن يهوديات. وكان بصحبتهن طلبة من كلية طب قصر العينى، يوزعون الصابون على الفقراء، ويتحدثون عن النظافة، حتى يمكن دفع الكوليرا، التى تفشت فى مصر، عشية حرب 48 فى فلسطين. والناس يرحبون بهم، ويقدمون الشاي.

سألت :

- من هؤلاء.. ؟

- شيوعيون.

البيت يعرف من عنوانه. لابد من محادثة الأم. لكني لم أحسم أمري بعد. ولا أريد أن أعد بشيء.

هل ستقبل الأم، خطوبة غير معلنة، فإذا حصل توافق، وثقنا العلاقة، وإذا لم يحدث، فهي القسمة والنصيب.

تردد.. هل يذهب أم لا..

تردد في الذهاب لتوديع حمدية، عندما غادرت فى آخر باص ترك العريش مساءً. خشي النظر فى عينيها خاصة وهذه ثاني زيارة لها، وكانت عنده من وقت قصير، وهو لم يحسم أمره. كل ما وعدها به أنه سيحضر فى القريب. وعليها أن تبحث عن شقة بسعر معقول. لوت شفتيها، ولسان حالها يقول.. وهل يوجد سعر معقول.. ؟!.. غير المعقول لك، معقول لغيرك.

يا ناس.. هل أذنبت لأن راتبي لا يكفيني.. ؟! حصلت على مؤهل عالٍ.. وذاكرت وحصلت على ماجستير، رغم الاعتقال والتجنيد والأسرً، وحاليًا أقوم ببحث.. ومن يدري.. أى بحث وأي ماجستير.. ارحل إلى بلد عربي.. حيث الأجر ضعف راتبك، اسم الله عليك، عشرين مرة على الأقل. وتعال.. كون نفسك.. الآن.. على مشارف الخمسين.. وهل طلب منك أحد أن تضيع عمرك.. وتقول لي بحثاً؟ آنست يا أستاذ بحث.

هل أريح نفسي، وأوافق على زواج حمدية. وأحضر أمي لتقيم معي. سيقول الناس، ناسب لحام أكسجين. وحمدية بصراحتها المعهودة.. أنت لا تهمك مصلحتى، كل ما يهمك ماذا سيقول الناس عنك. ونسيت أو تناسيت أننا أبناء مدرس إلزامى وأن عمك ميكانيكى.

ترك عمي العمل عند الإنجليز، مع باقي العمال الذين رفضوا العمل في معسكرات الجيش الإنجليزي بخط القناة، بعد إلغاء النحاس باشا لمعاهدة 36 للصداقة مع بريطانيا. عينهم النحاس عمالاً فى المدارس والمصالح الحكومية المختلفة، وطالب الإنجليز بالجلاء عن قواعدهم في قناة السويس.

لماذا لا يترك العمال الفلسطينيون العمل فى المصانع والمستوطنات الإسرائيلية. أم تراهم لا يودون أن يخيب رجاء بريطانيا، وهى التى عملت على إنشاء، إسرائيل، لتقيم فيها مصانع تعتمد على العمالة العربية الرخيصة.

فضل عمي العودة إلى قريته، جوار المنصورة، يفلح قطعة أرض صغيرة، ورثها عن أبيه.

حاول وضع الحقيبة فوق الرف. حالت المسافة الضيقة بينه وسقف العربة دون ذلك. وضعها تحت مقعدها، وقلبه يرتجف خشية أن تتفوه حمدية بشيء يجرحه.

وضعت صفية الحقيبة تحت مقعده، فى محطة الباص. وجرت تسلم على أصدقائها، ولم تقل له حتى خل بالك.

راقبها، وهى تنتقل كالفراشة، قبل أن تبدأ رحلة إلى مرسى مطروح مع زملائها فى العمل. فكر أن يسلم وينصرف.

تريث، ولام نفسه بعد ذلك. لاشك أنها انطلقت على سجيتها، واثقة بأنه لن يغفل عن حقيبتها. لا. لا. يا ست هانم، لن أكون الحارس الأمين بعد ذلك.

- سلام يا حمدية.

وهي على وشك الكلام.

- وحياة أبيك، لا تقولى شيئًا.

ضحكت، وتأملته بعينيها الصافيتين.

وهو يغادر، طالعته، لوحة خلف مقعد السائق، عن آثار الأقصر، وبالخط العريض «نبع الحضارة». وتذكر النقاش الدائر فى بعض الصحف عن صراع الحضارات.. وهل هو صراع أم تعاون وتكامل.. وانبثق فى ذهنه مقال بهاء الدين عن تخلفنا الحضاري، الذي سبب الهزيمة لهم حق يعالجوه فى مستشفى البحرية الأمريكية. عالجوا أم كلثوم فى نفس المستشفي، لا، هذه ضربة معلم، لينالوا شعبية على حسها.

وهل لهم حضارة، أولئك المجلوبون من شوارع أوروبا، ومتى عملوا حضارة، فى فلسطين، ولم يمض على هجرتهم إليها أكثر من عقدين أو ثلاثة من الزمان. غادر المحطة، وهو يردد فى سخرية :

فلسطين يفدي حماك الشباب.

فلسطين تحميك منا الصدور

قفز فجأة فى الهواء، إثر فرملة زاعقة من مرسيدس.

- فتح يا «أستاذ».

لم يتفوه بشيء وقد أصبح فى نصف ملابسه.

سارت العربة، وقد نفثت فى وجهه، دخانًا أسود. مرسيدس أربعة أبواب، وتعمل «بالجاز»، مستوردة من إسرائيل، ويقول بعض السائقين فى العريش: إن إسرائيل تعطيها لمن يطلبها مجاناً، فقط تعطيه جهاز تسجيل، ليسجل أحاديث الركاب، وأن يسلمها الشريط، كلما امتلأ.

ترك الميدان، الذي تحرك منه الباص، ومشى فى الشارع الرئيسي، وقد

بدأت المحال والمقاهي، تنير أضواءها، مزيحة غبشة المساء. أحس بأسى يتغلغل فى كيانه. لم يفلح في إرضاء، حمدية، وقد جاءت تستنجد به. ومن قبل لم يفلح في نجدة عم الهواري، معاشه لم يتجاوز اثنين وأربعين جنيهًا، بينما معاش المساعد أول الآن مبلغ وقدره، كتب له شكاوى، وكان الرد : أنت استقلت، وكان يقول له : هم فتحوا باب الاستقالة. وحاول أن يجعله يفيد من التأمين الصحي عندما اشتد عليه المرض، فاصطدما بعقبة الاستقالة مرة أخرى.

التقاه بعدها، لم يجده ميالاً للكلام، وقد تدلت شفته السفلى المكتنزة، واحترقت قمحية بشرته، وفقد هيكله الضخم شدته، وانطفأت من وجهه اللمعة الباهرة، عندما كان يحكي عما فعله فى 73. فطن إلى كثرة العربات والمؤن، وخمن أن في الأمر شيئًا. جمع من حول موقعه على ساحل البحر الأحمر، العلب الفارغة، والزجاجات المهملة، والمكسورة. فهذه الأشياء تعكس أشعة الشمس، وفي المساء تومض، إذا سُلطت أضواء كاشفة، فيظهر الموقع.

أحضر تموينا إضافيًا من الوقود، لتشغيل ماكينات الديزل، لمحطة الرادار. وضحك عم الهواري حين ذكر الضابط الذي قال إنه معين فى غرفة العمليات، ولا يريد أن يظل بالخارج. كان الإسرائيليون وقد ألقوا صواريخ صغيرة فى حجم الإصبع، تصطاد الأفراد.

وعندما سقط صاروخ ضخم على باب الملجأ، طلب هذا الضابط أن يكون بالخارج.

انحرف فى شارع جانبي إلى يمينه، متفادياً المارة والمحال. تُرى.. ماذا قالت حمدية لنفسها عنه. وماذا قالت بنت الهواري عنه. أتراها لحظته

يوم السوق. وهو يداري نفسه منها خشية إحراجها وهى تبيع البيض. تنبه إلى نفسه، وقد انبسط أمامه خلاء رملي يحيط حافة العريش الشرقية، ولاحت على البعد أشجار عالية.

رفرف طائر فى الجو. ما الذي أخَّره عن المبيت، ومعالم الأشياء توشك على الضياع.

مر الطائر في اتجاه الجنوب. هل بجناحيه مستطيلات سوداء صغيرة، أم يُهيأ لي. وقدر جسده في حجم حمامة كبيرة. حاول أن يستعيد هيئة منقاره، لكن مروره الخاطف، لم يجعله على يقين، وإن رجحه صغيرًا معقوفًا.

أتراه.. صقر الباز.

من مدة لم يره، أو يخبر عنه أحد. كان يوجد دوما قرب الشاطئ، يحميه من الطيور المهاجرة. هل تكاثرت عليه، فنزح جنوبا إلى جحور الجبال.

هل عاوده الحنين، فخرج إلى الشاطئ أم طار يبحث عن شيء لصغاره، ولما داهمه المساء، أسرع عائداً إلى أفراخه.



26

قالت صفية :

- حفلة شاي، مقصورة على أفراد قلائل من كلتا العائلتين :

وقال عبد السلام :

- بعض الزملاء القدامى..

- ليست صغيرة، وليست أول مرة.

- على الأقل اللواء جورج.

- لو بدأنا لن ننتهي.

- وحمدية.. من العائلة.. ؟!

- زميلة، وأكثر من أخت..

- وماذا عن حمدي.. ألن ندعوه.. ؟!

توهت فى الكلام، ومالت بوجهها إلى جانب، ونشع احمرار خفيف على وجنتيها. قال :

- أم زميل قديم.. سأدعوها.

ألقت الطائرات قنابل عنقودية. قلنا : طائرات أمريكية. إسرائيل ليست عندها قنابل من هذا النوع.

وحتى إذا زودوها بها على عجل أثناء الحرب، فهل يستطيعون استخدامها دون معرفة سابقة. تنفرط القنبلة إلى كرات صغيرة، تشبه كرات التنس. كل كرة إذا اصطدمت بأحد، انفرطت إلى حبات صغيرة من البلي، كأنها طلقات رشاش، تنطلق فى كل اتجاه فى وقت واحد، ترشق فى عدة أماكن من الجسد، يتهدل الجسم الحي، وينبثق الدم، ويصعب

وقف النزيف. كان هذا الزميل، خبير مفرقعات، يجمع هذه الكرات برفق، ويأخذها إلى حفرة بعيدة، ويفجرها. ومن كثرة تعوده، اكتسب ثقة زائدة، جعلته يمشي على مهل. وذات مرة تعثر، فاصطدمت كرة بجسده. لو ترك حمله يتدحرج، لدمر الموقع كله. أحاطه بيديه، وحدب عليه بصدره، وجرى بعيدا، انكفأ على وجهه، فدوى انفجار هائل.

اعترض عبد السلام على إقامة حفل زواجه فى شقة شقيقها. بيت قديم، ربما لا يتحمل ما قد يفاجأون بهم من حضور، كما أنه لا يريد أن يضيق على الرجل وعياله.

قالت فى حزم :

- اتفقنا على عدم عزومة أحد

- الأمر لا يسلم من مفاجآت.

كانت المفاجأة النقطة 149، وهم يقتربون من ممر متلا، استولوا على نقطتين حصينتين في أربعين ساعة تقريبًا، وهذه قاومت، رغم قذائف المدفعية التى انهالت عليها. ومع أن أشعة الشمس مسلطة فى عيون الإسرائيليين، ظلوا يضربون. أحدث الضرب خسائر عالية فى الكتيبة، الجناح الأيمن، لقوة عبد السلام فاروق. إذا استمر معدل الخسائر، سوف تنكشف الميمنة. طلب قصفة مدفعية ثقيلة مركزة. كان له ما أراد، ومع ذلك ما زالت النقطة تضرب عليهم، كأن شيئًا غير مرئي، يوجههم للضرب على مواقعهم. وبمنتهى الدقة.

بينما هم فى حيرة من أمرهم، نبههم أحد الزملاء إلى نقطة المراقبة الدولية.. قال عبد السلام :

- أمعقول ..؟!

- ولم لا ؟.

أرسل عبد السلام ضابطاً وبضعة جنود، للتحري. أخرجوا من في الموقع. أحد عشر ضابطاً كندياً، وضابطين إسرائيليين، وقد رفعوا أيديهم إلى أعلي. آه.. الضابطان يوجهان الضرب للنقطة 149. أرسلوا الجميع إلى الخلف، وفي المساء تقرر شن هجوم صامت على النقطة بالمشاة فقط. التزمت باقي القوات الصمت طوال النهار، وبعد العشاء، تسللت وحدة من المشاة، وبعد ساعتين، أبلغتهم، استيلاءها على الحصن.

ومن استجواب من بقي حيًا، تأكد لهم أن الضابطين الإسرائيليين، كانا السبب فيما فعلته النقطة 149، وهي وحدة قيادة، بها أجهزة تكييف ولاسلكي، وأكثر من مئتي سرير.

لماذا تنشف صفية رأسها. لم يستطع أن يصدق أنها هي نفسها التى يراها فى لحظات اللطف والصفاء هل يتراجع ولم يزل فى مفترق الطرق. وهل هذا وقته. وماذا لو كان اللطف ليس ثوبها الحقيقي، وتنشيف الرأس ثوبها الدائم. هون الأمر على نفسه، أن الحياة من هذا وذاك. كان من المهم بعد احتلال القنطرة شرق السيطرة على مفترق الطرق، أهمها الطريق الشمالية من القنطرة إلى العريش والطريق الموازية للقناة حتى بورفؤاد، وهذه المنطقة مهمة لإسرائيل لسيطرتها على مدخل الاتجاه التعبوي الشمالي، ولحماية حصون دوريا وكيتوبا وميلانو ومفربكيت، وعلى بعد حوالي ثمانية كيلو مترات، قوات احتياط لشن هجمات مضادة. في المفترق وقف ضابط يوجه القوات إلى خط السير. فجأة وجد عبد السلام قواته فى الطريق إلى سهل الطينة، وهي أرض منخفضة سبخية، ممتلئة بالمياه، تحدها من الجنوب منطقة رملية مسطحة، تمتد لمسافة عشرة كليو مترات، صالحة لسير المركبات.

كيف لم ينتبه وهو الذي يحفظ أرض المنطقة جيدًا، وعسكر فى مواجهتها زمنًا ليس بالقليل. عند بدء الحرب، تحركت قواته من قطاعه

غرب القناة، إلى القطاع المقابل فى الشرق. وهكذا فعل الجيش كله. وبهذه البساطة لم ير الإسرائيليون أعدادًا كبيرة، تنقل من مكان إلى آخر، استعداداً لشن الهجوم، وبالاضافة إلى ذلك كان الخبر مخفيًا عن الجيش المصري، فكيف سيعرف به الجيش الإسرائيلى.. ؟!

توقف وتطلع إلى الخلف. القنطرة شرق رابضة على مسطح من الرمال الثابتة، وأمامها شرقًا منطقة مفتوحة بها هضاب رملية صغيرة.

ذهب به الضابط إلى منطقة للقتل. استعاد صورته فى ذهنه.. يرتدي ملابس مصرية ويضع شارة الشرطة العسكرية.. سرعان ما انهالت عليه القذائف، وجاءه صياح العميد جورج فى اللاسلكي :

- أين تتجه بقواتك.. ؟

فخ، ود لو يعود بسرعة، ليقبض على هذا الضابط، مؤكد إسرائيلى متسلل. تراجع بسرعة، محاولا إنقاذ ما يمكن إنقاذه، أصيب جنزير دبابته ودارت حول نفسها، قفز منها، وطلب من القاذف أن يستمر فى الضرب لحماية انسحاب باقي الزملاء. أسرع إلى دبابة قديمة تحرس مدخل أحد المعابر، سبق استخدامها فى الحرب العالمية الثانية، قفز إلى داخلها، وأمر طاقمها بالتحرك. مدفعها يحتاج لمجهود فى ضبطه، و باقي الأفراد يعترضون على انضمامهم لتشكيله، فالمدفع مداه لا يزيد على مئة متر، بينما الدبابة الإسرائيلية من طراز باتون ومدفعها مداه واحد ونصف كيلو متر، وفي العمر الأول، ويستطيعون إصابتهم بسهولة. وإزاء إصراره على اللحاق بقواته، رضخوا له، بينما كان يصرخ فى اللاسلكي، طالبًا طلعة طيران. وعندما مرقت الطائرات فوق رؤوسهم، تنفسوا بارتياح.

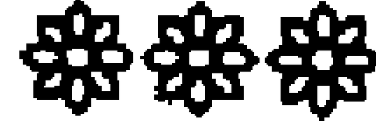
تراجعوا إلى منطقة آمنة. وجاء العميد جورج يتفقدهم. كانوا واجمين، يقرأون الفاتحة على أرواح الشهداء. وقف إلى جوارهم، وفتح كفيه إلى السماء، يقرأ معهم.

وحين أنزل كفيه، تساءل.. هل بكر فى الدفع بسرية عبد السلام فاروق. تغضن وجهه، وهم يتطلعون إليه. قال :

- من مات.. يرحمه الله.

وأشار بيده، فصعدوا إلى الدبابات. طلب قصفه مدفعية مركزة على الحصون الإسرائيلية وعلى الطرق خلفها، ليقطعها على الاحتياطي. وظل متحفزاً، لا يطاوع نفسه، كأنما يؤكد لرئيس العمليات ولأركان حربه، أنه تروى تمامًا، قبل البدء بالهجوم. وعندما قدر أن الحصون انعزلت عما حولها، وأن الإسرائيليين قد طأطأوا رؤوسهم خلف مدافعهم، لا يستطيعون رفعها، من شدة القصف، أعطى الأمر بالتحرك.

تظاهر بمطاوعة صفية وهو يغادرها، واعتزم فى نفسه دعوة اللواء جورج، على الأقل يحضر معهم قراءة الفاتحة.



27

فى الصباح الباكر، بادر أصحاب المحال بفتحها، ورفعوا الأعلام المصرية. وتخللت الأشجار مصابيح ملفوفة بورق سوليفان أخضر وأحمر وأزرق وأصفر، وتدلت كرات فضية وذهبية، عكست أشعة الشمس الهينة.

وسرعان ما استيقظ سوق الخميس. افترشت السيناويات الأرض، ورصصن أمامهن ثياباً بألوان زاهية، وبجانب سور مبني، قصير، علق بعضهم شماعات، عليها ثياب التدريب الرياضي. وفوق أقفاص من الجريد فرش أحدهم ملاءة، وضع فوقها زجاجات من العطور، مختلفة الأحجام، وعلبًا من الكريم، لها علامات متعددة. وفي جانب فرشت سيناوية قطعة من الخيش فوقها كوم من اللوز السيناوي، صغير الحب، وأمامها ميزان، وغير بعيد منها جلست سيناوية أخري، وأمامها أعشاب مختلفة.

بزغت الشمس أكثر، وبدأت تتخلي عن ستر لهيبها، لكن السيناويات، لم يتخلين عن البراقع الحمراء، التى تنسدل فوق وجوههن، وقد أخفى مثلث من قصبة ذهبية أنوفهن، وإن برزت عيونهن السوداء، وجوانب وجناتهن المشربة بسمرة خفيفة. وتتوسط البراقع دوائر ذهبية. فى حجم قطع العملة الصغيرة، وتنتهي بثلاثة صفوف من نفس المعدن، مستعرضة، عند نهاية صدر جلبابها الأسود. المزركش، بطيور ملونة ترفرف، وعند الوسط حزام به دوائر زخرفية، بنسيج ملون، والكمان زرقاوان، من قماش فانلة، وبعض السيناويات يحطن رؤوسهن بمنديل من نسيج رقيق أسود،

يتدلى طرفه على صدرها، فيخفي جزءًا من زركشته، ويلف بوجنتيها، فيبرز البرقع أكثر. وعيونهن جميعا، تناديك، وهن يتوقعن ألا تخيب رجاءهن.
همس سعد للباشمهندس :
- عجبك شيء.
- والله ما أنا عارف.

رجاء أن تعرف، ودعك من ترددك.. الشتلة، إذا كانت على وشك الإزهار، من الصعب ملسها من الأرض، وإذا زرعتها فى مكان آخر، ستزوي وتموت. فإذا أردتها أن تصح فلابد من نزعها بصلاية كبيرة من الطين حولها، والتربة هنا رملية، فإذا انتهت مأموريتى، هل ستوافق، وهل ستوافق أمها، أن ترحل معي، أم سترفض كما فعلت مع السكندري حين نقل إلى بلده.

يا عم، وقتها تكون صلاية من العشرة، وربما من طفل، ومن الألفة قد تكونت. عربة يد، عليها أقمشة وملابس وقمصان، مصنوعة فى تايوان وهونج كونج، وعلى جانب من العربة، وضع البائع صورة كبيرة مبروزة للرئيس السادات.

وطالعتهم الأعلام الصغيرة، فى جوانب العربات، ولاحت الكبيرة، مرفوعة على واجهات المحال، فى ذكرى جلاء الإسرائيليين عن سيناء.

كان يحلو له وهو صبي، أن يمشي مع أقرانه، فى شارع السكة الجديدة بالمنصورة بعد الخروج من المدرسة، يغازلون الفتيات، ويشاهدون المعروض فى واجهات المحال. وعشية إحدي الاحتفالات بذكري 23 يوليو، ذكرى استيلاء الضباط «الأحرار» على السلطة، كان مخبر يسير ومعه خيزرانة. يخبط جانب باب كل محل، ويقول بصوت أجش : علق العلم. لا يجيبه صاحب المحل ولا ينظر إليه، كأنه كلم أحداً غيره، ويظل

المخبر يتلكأ، وعيناه جامدتان على صاحب المحل، حتى يعلق العلم على سارية تطل على الشارع، مائلة فى جانب من باب المحل

وفي اليوم التالي، حيث الرئيس عبد الناصر، سيلقي خطابه المعهود فى هذه المناسبة، قبل العرض العسكري، الذي يسهب المذيع فى وصفه، وفي استعراض قواتنا العسكرية، يطوف المخبر، مرة أخرى، ليتأكد أن الأعلام، مازالت مرفوعة، ويفاجأ الأولاد، أن أغلبها اختفي. يتراخم المخبر، حتى تعود الأعلام إلى سواريها. ولا يدري حمدي، لماذا انسحب من لسانه، أمام أحد المحال، تجاهل صاحبه المطلوب منه، والمخبر لا يتعتع، وقال : ليس عنده. ركب المخبر شيطان، وتخلي عن بلادته، ورفع خيزرانته، التى طالت ظهره، وهو يقفز جارياً، يلاحقه زعيقه : وأنت مالك يا ابن الكلب.

جمع من النسوة، علقن أكلمة صوفية، صناعة يدوية، تمازج فيها البني والأصفر بدرجاتهما، راحة للنفس والعين. وضع راحته خلف، أحدها:

- صوف

- جملي وخراف.

قلب فى حقائب مشغولة بمنمنمات من الخرز الملون. أمسك واحدة، وقد أشرق وجهه.

- من غير فلوس.

تمتم سعد، وحمدي يعرض عليها ما تريد من نقود دون مساومة :

- أخيراً

وأخذه من يده، إلى جمع آخر من النسوة، يعرضن عقودًا من الخرز والكهرمان الأحمر النقي، والفيروز، أخضر، فاتح وغامق، يشع بعضه بأزرق سماوي، ومجزع بخطوط هشة سوداء. وأساور معدنية. تناول حمدي إحداها وقال :

- فضة

- مطلية

وناولته، أسورة، وقالت :

-فضة، وقيمة.

تأمل حمدي نقوشها الرقيقة، متفهمًا، ومساومًا. ولفت سعد نظره لأحزمة عريضة، مشغولة بالكانفاه فى أشكال زخرفية، مربعات ومثلثات، وتتدلى منها خيوط من خرز دقيق أزرق وأخضر.

- بكم الحزام؟

همهم سعد :

- يسمونه سيرًا

قالت المرأة :

-بما تأمر به.

ضحك حمدي، وقد لفت نظره أن أكمام هذه النسوة ليست من قماش فانلة، ولكن من قماش أزرق وأخضر قاتم، عليها ورد أحمر وبمبي.

انتقى سعد سيراً لندا، ولحظ تردد الباشمهندس فى الشراء، فأشار إلى العقود. انتقى حمدي أحدها، ولحظت المرأة الجالسة أمامها شغفه، فقالت :

- كهرمان، ليس له أخ.

- كم.

- من أجل خاطرك، سبعون جنيها.

هز رأسه معترضًا، فأخذت السيناوية تباهي بالعقد على صدرها وتقول:

- أحس من الذهب.

وإزاء، تردده، عرضت عليه عقداً آخر، سألها مستنكراً، وقد لحظ لونه الفاتح :

- كهرمان

- كباس، تلبسه المرأة بعد الولادة.

همس سعد :

- ليقيها من شر حاسد إذا حسد.

لوحت المرأة بعقد من الفيروز أخضر غامق :

- يحمي من العين.

وأكمل سعد ضاحكا :

- ويفلق الحجر نصفين

لوحت المرأة بعقد آخر من الفيروز أخضر فاتح :

- وهذا يريح القلب

تبادل حمدي وسعد النظرات، وأمسك سعد بالعقد، فعاجله حمدي:

- لك، أم لندا.

لم يلتفت إليه، وتطلع إلى السيناوية، فقالت :

- من غير فلوس.

أدرك سعد أنها ستتهاون في السعر، وأمسك حمدي عقد الكهرمان الذي كان أعجبه، ولوح به ناظراً إلى سعد، فطمأنه بإيماءة من رأسه.

هبت نسمات طرية من ناحية البحر، خففت من حرارة الزحام. وتخلل الهواء أعطاف السيناويات، فانتفخت جلابيبهن الفضفاضة من أسفل، وتطايرت أجزاء من المناديل السوداء، التى تغطي رؤوسهن، وأجزاء من صدورهن، فبانت الزخارف المشغولة بالخيط الوردي والأحمر، والخرز الأزرق والأحمر والأخضر.

وبان الخجل في عيونهن الكحيلة، وهن يلملمن الأطراف.. وبدت البائعات، والباعة، أقل شدة فى مساومة المشترين، ولاحت، على البعد، الأعلام، فوق الدور، وعمارات الفنادق العالية، وكأن الهواء، قد بعث فى ثناياها أصداء ضحكات مرحة، فأخذت ترفرف، ممازحة، فى بهجة وخفة.

عربة عليها بعض الدمى. شغل صاحبها عروسًا، أخذت ترقص، وقد أفسح لها مكانًا، وتحلق الناس حولها.

كانت الدمية المحشوة بالقش، يتدربون عليها بـ الطعن بالسونكي، وهم يصيحون «هع». كان سعد يزعق، ولا يأتي صوته خشناً. طلب منه الرقيب التكرار، وحين يئس منه، أشار لمن يليه، ليتقدم. لفت هذا نظر واعظ حضر إلى الكتيبة لمحاضرتهم. فاستأذن من الرقيب أن يستبدل بـ هع، الله أكبر.

طاوعه الرقيب، مرخيًا ذراعيه إلى جانبيه. أشار لسعد، ونظر للواعظ، كأنه يريه ألا فائدة من الأمر.

صاح سعد : الله أكبر، ولم يصدق نفسه، حين سمع الرقيب يقول : أحسن. ويشير له أن يعيد الطعن.

الله أكبر فوق مياه القناه. الله أكبر فوق الساتر الترابي فى الشرق وفي الغرب. كسب سعد وزملاؤه الرهان. أين الجندي لأخذ رهانهم منه. فى البداية حدثت هرجلة، ثم انتظمت الأفعال.

المدفعية تضرب على حافة الماء فى الشرق، ما أن وصلوا، حتى ارتفع الضرب إلى الطريق، لقطع أية إمدادات إسرائيلية، ولم تلبث المدرعات البرمائية أن لحقت بهم.

الصيحة فى أمر القتال : الله أكبر. قبل فتح الفجوات، كان أحدهم يتسلق الساتر الترابي ويقف أعلاه، ويدلي سلماً من الحبال، بين عقده،

قطع من الخشب يرتقيها الجنود. حامل المدفع الثقيل ينتظر، حتى يصعد باقي زملائه. يربط مدفعه أسفل السلم ويرتقيه ويجذبه من أعلي. يطوي السلم ويلحق بزملائه.

من مطالعتهم لوجه الجندي، حين حضرت عربة التعيين، عرفوا أنه أدرك خسارته لرهانه. ألقي السائق كمية من السجائر على الأرض، وقال:

- نادوا على المسئول ليوزع على العساكر.

عبأوا جيوبهم بالسجائر، وخامرهم إحساس أنها ليست مناورة الخريف المعتادة. وهرب المراهن بعينيه من نظراتهم، حين أحضرت عربة أخري، كمية كبيرة من الألغام.



28

خرج صفوت من بيته في عرايشية مصر. اتجه إلى محطة الباص، ابتاع جريدة، وفكر أن يتمهل قليلاً في مقهى فى الشارع الذي به المحطة.. حيث البواكى قد صنعت ظلالاً لبعض البيوت. وتناثرت أمام بعض محالها أدوات ومساحيق التجميل، وأقمشة وملابس من البرلون.. والجينز.. بركات بورسعيد هلت.. وكلها.. أو أغلبها مصنوع من ألياف مستخرجة من النفط.. تسرع العرب في إعادة ضخه.. وأصغوا إلى المسئولين الأمريكيين الذين طافوا بالعواصم العربية سرًا، بينما فى العلن يصرحون أنهم يبحثون عن بدائل للنفط.. هل سيصنعون الملابس من رياح طواحين الهواء. وهل صدقتهم اليابان وأوربا.. التى ارتعشت عندما خايلها شبح البطالة.. واحتمال الموت برداً من شتاء على الأبواب.

عدل عن الذهاب إلى االمقهى وقال : البدري بدري. أظل رأسه بالجريدة، وصعد في الشارع المؤدي إلى خارج الإسماعيلية. وجد حاجزًا وضعه رجال المرور، ويحولون سير العربات.

وضعت الشرطة حواجز فى عرض الشارع أمام اللجنة الانتخابية ووقفت غير بعيد عربة الأمن المركزي، وبها الجنود بالمدافع الرشاشة، وكلما اقترب أحد من الحاجز، زعق به ضابط يحيط به جنديان، شهرا مدفعين رشاشين : بطاقتك.. أسرع.. لا نريد جمهرة.

ولما كنت غير مزنوق على هذا، فقد عرجت إلى شارع جانبي ومضيت. وفي رأسى ما أذاعه التليفزيون فى المساء، ويذيعه عشية كل انتخاب عن ضرورة ذهاب الناس إلى صناديق الاقتراع، وأنه لشىء مؤسف ألا يؤدي

الناس حقهم الدستوري. وبعد الانتخاب، ينسى التليفزيون ما أذاعه، ويتحدث عن إقبال الناس على الاقتراع، وحضور أكثر من خمسة وتسعين فى المئة. صعد إلى الطوار، متفاديًا الحاجز، إلى يساره مجري مائي، لطف قليلا من الصهد الذي يبخه الأسفلت، وهبت نسمات من أطراف بحيرة التمساح، خففت قليلا من حرارة الشمس.

وطالعته على البعد لافتة زرقاء، وسهم يشير إلى طريق القاهرة. وإذا لم تخنه الذاكرة، فبيت المقاول، فى ثانى شارع إلى يمينه.

دعا الله أن يجده فى هذه الساعة. سمع أنه فى حاجة إلى لحَّام بالأكسجين. فإذا وفق إلى عمل معه، سوف تبطل حجة السيد حمدي.

ماذا يظن نفسه. هل سيصلح الكون. كان يحمل هم زيارته، لكنه أراد أن يقطع عرقاً، فنابته دروس فى الجغرافيا والتاريخ، ولابد من إرجاع فلسطين عربية، يا سيدي الحكومة ارتضت السلام الآن، فما شأنك أنت. ومن سيصغي لك، والكل ملخوم فى البحث عن أكل العيش. لوح بيده وأكد : هذا هو الطريق لأكل العيش.

صمت يلوك في ذهنه : مصيبة حارة هذا الرجل، هل سأنتظر دون عمل، حتى يتم القضاء على إسرائيل، بينما استمر حمدي : عندك العراق كان على وشك خلع ثوب الدولة النامية، أقام بنيته الاقتصادية، وعنده رصيد كبير من الدولار وغيره، وسنوات قليلة، وتجده دولة متقدمة مثل فرنسا، فتحت له أمريكا بالوعة الحرب الإيرانية.. ابتلعت رصيده، وشبابه، ورصيد العرب من عوائد النفط. نظر إليه دهشًا، فأكمل : ألم تساعده الكويت والسعودية والإمارات، كل هذه النقود ذهبت لتجار السلاح فى الغرب.

وعندما سأله ما دخل هذا بنا، ضحك وتحدث، كأنما إلى ساذج، وقال : ألم تقرأ فى الجرائد عن ضغط الميزانية في السعودية.. تصور

السعودية تتقشف، وبعد قليل تستغني عن العمالة الزائدة، وفي مقدمتها عمالنا. قال صفوت في نفسه : ما لي وهذه المسائل، لقد جئت من أجل التحدث في خطبتي لحمدية، تدخلني في متاهات، ومحاولاً التخلص: على أية حال مصر شيء آخر. وكأنما كان حمدي ينتظر هذه المقولة، قال: وماذا عن بالوعة حرب 67.. ؟. قال في نفسه : أنت فالح في الكلام، وخيبتكم قوية، وراغباً في إنهاء النقاش : يا سيدي.. الله يصلح حالك.. ماذا قلت..؟ تطلع إليه نافد الصبر : قلت عندما توفق إلى عمل، وتحصل على شقة، تعال نتكلم. هل ستتكلم ثانية.. ؟

وهو ينهض، داعبه حمدي ضاحكا : حبيبك بهاء الدين كتب من يومين، مشيدًا بالغزو الأمريكي لبنما، ويأخذ رئيسها لمحاكمته في أمريكا. هل القانون الذي درسه يدعو لخطف الناس، والاعتداء على سيادة الدول. حملق وهو يقول: عميلهم وأخذوه، فعاجله : قصدك خرج عن طوعهم ويودون تأديبه. صمت وهو يقول في نفسه : ماله، بهاء الدين، كاتب وطني، وآراؤه يقدرها الجميع، عداك أنت الذي لا يعجبك العجب. ولم يشأ التسليم فقال : رأيه، وقد يخطئ ويصيب، ولكنك لا تستطيع القول أنه باع نفسه لهم، الدور، على من يبيع أرضه وعرضه. ولم يكن يدري أنه بذلك فتح بوابة الجحيم، فانطلقت الحمم : يا أبا جهل هل تعرف ماذا فعل الإنجليز في فلسطين، ولم يصغ لاحتجاجه أنه لم يقصد إلى شيء من ذلك، واستمر : أمر الحاكم الإنجليزي بزراعة محاصيل للتصدير وأعطاهم السلف لذلك. وبعد نضوج المحصول منع التصدير، فانخفض السعر، ولم يجد الفلاحون مالاً لتسديد ديونهم، فبيعت أراضيهم بسعر التراب للجمعيات الصهيونية، وليته اكتفي بذلك.. باع وقف السلطان عبد الحميد، من أخصب الأراضي في غور الأردن، لنفس الجمعيات،

وطرد المزارعين الفلسطينيين منها.

هذا هو الشارع، بالتأكيد، دعا الله ثانية، أن يجده، حتى لا يشمت فيه هذا الحمدي. وطمأن نفسه، أن الرجل خبره جيداً، فإذا كان فى حاجة لمثله، فلن يتردد. كان يستعين، به، عندما كان فى سرية الحراسة، حين علم أنه فني، في بعض المهام، التى كان يحتاجها العمل فى إنشاء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات. وانتقل مع شركته من موقع إلى آخر على خط القناة، حيث تم صب ما يقرب من ميلوني متر مكعب خرسانة مسلحة ومليون ونصف خرسانة عادية، ورأي بعينيه عمال شركات المقاولات والجنود ينقلون ما يقرب من خمسة عشر مليون متر مكعب من الأتربة، لإقامة سد ترابي فى الضفة الغربية حتى لا يراهم الإسرائيليون، وهم يمدون مئات الكيلو مترات، من الطرق الأسفلتية، ومن الطرق الممهدة بمواد تثبيت للتربة.

ما أن يصب العمال القاعدة، حتى تحلق الطائرات الإسرائيلية فى الجو، يسرع العمال إلى الملاجئ، وتطارد كتائب الحراسة الطائرات.. ما أن تختفي حتى يعود العمال.. ولم يكن الموقف يطاق عندما يسقط العمال، من قصف الطائرات.. ويضطرون لسحب الجثث تحت القصف، قبل أن تضيع معالمها. وذات صباح، ذهب ما أحسوا به من غصة، عندما لحظوا أن الطائرات الإسرائيلية، فوجئت بحائط من صواريخ الدفاع الجوي.. لا ينسى هذا الصباح.. كانت الجرائد بالعناوين العريضة تعلن عن احتفال أول مايو بعيد العمال.. كان صباح الثلاثين من يونيو عام سبعين.. عندما سقطت ثلاث طائرات من خطاف السماء (سكاي هوك) والشبح (الفانتوم)،

وفي اليوم الثاني من مايو سقطت طائرتان وثلاث فى اليوم الثالث.. وتوالي سقوط الطائرات، وبدأوا يتحدثون عن تأكل السلاح الجوي.. ولكنه وقتها لم يحس بأهمية ذلك تماما.. أحس بذلك حقيقة، عندما كان فى سيناء، فوق جبال سدر، وجاءتهم الأنباء أن إسرائيل أعطت تعليمات لطياريها بعدم الاقتراب من خط قناة السويس لمسافة خمسة عشر كيلو مترًا.. ساعتها اهتز جسده بفرحة داخلية طاغية.

قال لصفية :

- متى تعيشين حياتك.. وتنجبين طفلاً نفرح به وبك؟

- صدقني.. لا ينقصني شيء.

- والسفرة التى ضاعت.. ؟!

- لم أعد آسفًا لضياعها.

نظر إليها مدهوشًا، فقالت :

- هل يرضيك أن أرضخ لفكر من العصور الوسطي.. مِحْرم.. ؟!

تفكر فى كلماتها ملياً، وقال :

إذا كان الأمر خلافاً من وحي ساعتها، يمكن معالجته.

- وأكرر غلطة زواجي الأول.

لم يشأ أن يضغط عليها أكثر من ذلك، خشية أن يضطرها إلى ما لاتحب، وخشية أن تفسر كلامه أنه يزحلقها لتخلو له الشقة، مع أنه أفهمها أكثر من مرة، أنه يعتبرها شقة العائلة.. وأخوها شقته فى بورسعيد على كف عفريت.. ومن الممكن أن يفاجأوا به وبعياله فى أية لحظة. وتذكر عبارات، سمعها منها دون قصد. كانت حمدية عندها. وهو يرتدي ملابسه فى الحجرة المجاورة، والباب موارب.

- لم أحبه، ورضيت بقدري.
- لماذا تزوجتيه.. ؟!
- لأكون أماً.

وبعد فترة أكملت :

- لا أذكر يوما، ربت على كتفى، أو أراح ظهري على صدره.
- مشاغل الحياة.
- أية مشاغل، لم نتحاضن أبداً فى غير الجنس. هل تصدقين.. عذوبة الجنس ليست فى الوصول للنشوة، لكن فى الإحساس بالحنان.

ويبدو أنها استشعرت وجوده فصمتت، وأحس هو بالخجل، وأسرع يكمل ارتداء ملابسه، وقد تعجب من كلامها، وهي الجامدة، التى لم تذرف دمعة واحدة، يوم ماتت أمها، وود لو يحيط كتفيها بأحد ساعديه، ويشعرها بالحميمية.

أحس بالعطش. تردد فى الوقوف عند ثلاجة أمام محل بقالة، ممنياً النفس، أنه سيشرب بعد قليل تحية المقاول. وسرعان ما قال فى نفسه: لا.. دائما عندما أنتظر شراب المضيف، لا أجده، وإذا وجدته، يكون متعجلاً، المهم لأي سبب لا ينوبني شيء. وأصبح يتشاءم من انتظار هذا المشروب. فتح غطاء الثلاجة، ينتقي زجاجة مياه غازية ساقعة.

كان العمال يصبون إحدى القواعد الخرسانية، بعد فايد بقليل، فى طريق السويس. تأخرت عربة الماء، والشمس تصب الحمم. جس أحد المهندسين الرمال، بحثا عن الرطوبة. دلهم على منطقة غير بعيدة، يحتمل وجود ماء بها. كيف يمكن سحب بعض العمال، وقد اسودت جلودهم، وكاد يسقطهم الإعياء، للحفر، تحت نار الله الموقدة.

أطلقت دبابة من الضفة الشرقية قذيفة وصمتت. تطلعوا بانزعاج. قال صفوت:

- لا شيء، تقيس المسافة.

ولمعت عيناه فجأة :

- أين الهيئات الهيكلية.

أسرع بعض أفراد الحراسة، وسحبوا بعض الهيئات.. دبابات خشبية.. باب ملجأ.. قاعدة مدفع مموهة بفروع من شجرة.. ووضعوها قرب الرمال الرطبة.

سرعان ما جاءت طائرات الاستطلاع الإسرائيلية، رصدتها، ولم يأت أحد لضربها.

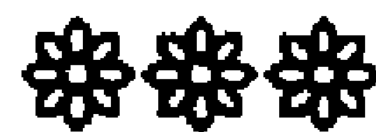
نظروا إلى صفوت ، فى خذلان، لكنه قال:

- غيروا من وضع الهياكل، وأضيفوا لها هيكلاً على شكل قاعدة خرسانية، وعندما تأتي طائرات الاستطلاع، اضربوا عليها.

أطرقوا وقد ملوا النظر إلى السماء، وإذا بالطائرات القاذفة، تلقي قنابل الأعماق.

راقبوا بقعة الرمال.. ولم يمض وقت طويل حتى فاض الماء.

أظل صفوت رأسه بالجريدة، وأخذ يطالع البيوت، حتى تأكد من الباب.



29

سُر لاشتداد عود الشتلات قرب الحدود. وسُر أكثر لتنفيذ العمال تعليماته بالحفر أعمق لكنه ما زال على غير يقين من سرقة الماء.

أحس بالظمأ. واشتاقت نفسه لفاكهة مرطبة.. مثل البطيخ، أو الكانتالوب، تنعشه. ترك الأغوار إلى الشارع الطويل المؤدي إلى الشاطىء. لا يمل من مطالعة البيوت المنخفضة إلى يساره، مقامة على رُبى رملية، تحيط بها أشجار أكاسيا، وتلمح من فرجات أسوجتها أشجار التين بأشواكها المشرعة. وكما تعود لم يخدش سمعه أى صوت، ولم يخايل نظره ظل لشيء يتحرك. ويكرر أمنيته : لو يعيش الإنسان في مكان كهذا. وتطلع ببصره إلى يمينه، حيث لا توجد مبانٍ، وحيث تسلم حافة الشارع نفسها لرمال ممتدة، حتى سور الحدود. فكَّر أن يتجه إلى الشاطئ، حيث لا يري سوي آحاد الناس، وحيث المياه زرقاء عميقة. لم تطاوعه قدماه، وعرج إلى الشارع المؤدي إلى بوابة الحدود، ولا يعبر منها سوي المشاة، بخلاف البوابة الأخري والتي يسمونها منفذ رفح وتعبر منها سيارات الأجرة والخاصة والشاحنات المحملة بالبضائع، وفيها جمرك. طالعته محال الفاكهة وبعض المقاهي على الجانبين، أسفل بيوت لا يزيد ارتفاعها عن دورين، ووشت هيئتها بقدم موادها من الآجر والخشب.

أنعشته رائحة الكانتالوب، فجلس على مقهى بالقرب منه عربة يد تحمله، وبينما يعد له العامل « البوري» ويحضر شايه، تطلع ببصره عبر امتداد الشارع. صدمته بوابة الحدود الضخمة. عالية بعلو السور الممتد إلى البحر من يمينها، وإلى ما لا يدركه البصر من يسارها وترددت عيناه

فوق القوائم الحديدية التى دُقت في الأرض، وفوق شباك الأسلاك العنكبوتية الممتدة بينها.

جذبت انتباهه جمهرة عند البوابة. نهض لإشباع فضوله، متجاهلاً قدوم العامل بالبوري في يد وبالآخري يلوح بمصفاة فيها جمرات، ليزيد من توهجها.

اقترب من البوابة، نظر إلى البوابة المقابلة، يفصلها عن بوابتنا بالعرض طريق طويلة، ممتدة بامتداد السور، والجنود الإسرائيليون يمنعون امرأة من العبور، وهي تصرخ وتولول. صاح جندي في وجهها :

- ليش ما جئتِ في الميعاد.

فجأة اصطدم طائر لقلق بشبكة السلك، أحدثت قوة الصدمة نزيفاً، وأخذ دمه يتساقط أحمر قانياً. وحتى لا يسقط أخذ يتشبث بفتحات السلك، ويخمشها بمخالبه.

تشبثت صفية بذراعي القريب منها، وأحسست بأظافرها، رقيقة ، مستجيرة، وكنت ألبس قميصاً بنصف كم، في جو صيفي طري.

اندفعت المرأة، فاعترضها الإسرائيلي ووضع مدفعه الرشاش بالعرض على بطنها، وشهر باقي زملائه مدافعهم في وجوه جمهرة تجمعت ناحيتهم.

فجأة وجدنا أمامنا مجموعة من الكلاب الضالة. كنا عائدين من سهرة عند أحد الأصدقاء وسرقنا الليل والكلام. وقفت الكلاب على بعد غير قليل. لمعت عيونها الفسفورية، وفتحت أفواهها نصف فتحة. بانت أنيابها، وأخذ لعابها يسيل. نظرنا إلى بعضنا بعضاً في خوف، وزادت صفية من تشبثها بذراعي. قلت لهم : تجاهلوها واستمروا في المشي.

رفرف اللقلق بجناحيه، محاولاً الطيران. نحت المرأة المدفع جانباً، واتجهت إلى طائر اللقلق. قفزت محاولةً الإمساك به. عادت إلى الجنود

وأخذت كرسياً، وضعته عند السور وصعدت فوقه. أخذت الطائر في حضنها، غر مبالية بالدماء التي خضبت بلوزتها البيضاء بزهورها الوردية المنمنمة. أحاطت الطائر بإحدي ذراعيها، وأمسكت بالأخري الكرسي. وضعته في غل عند الجنود. زادت من حدبها على الطائر، وولت وجهها ناحية البوابة المصرية، وسارت بخطوات ثابتة.

كان لابد أن نمر بجميع الكلاب، لكي نعبر الشارع وإذا تراجعنا فسوف تطاردنا. سمعنا زوماً مكتوماً، متحرشاً، باحثة، فيما بدا، عن تكئة لتنشب أنيابها في أجسادنا. حذرتهم من أى اضطراب، مدارياً رعباً في داخلي، وحين مررنا بالكلاب، زاد غرس الأظافر في ذراعي، بينما أحاول التماسك، والخطو بثبات. لو أحست الكلاب بلمحة ضعف، ستنقض علينا.

تخطيناها، فتنفسنا جميعاً بارتياح.

عبرت المرأة البوابة المصرية، ووضح أنها في عجلة من أمرها، اقترب منها حمدي، ومد يديه إلى الطائر. وقفت برهة مترددة، فطمأنها أنه سيذهب به إلى طبيب بيطري، في الوحدة عندهم، ووسد بيمناه زغب صدر الطائر النافر، ثم مسح على ريشه الأبيض، العامر بالسواد في جانبي جناحيه، والتي نالت من زهوة سواده بقع الدم المتجلطة، والطائر يحاول في ضعف إزالتها بمنقاره الطويل، وحمدي يهدئ من حركة رقبته الطويلة، محاولاً طمأنته. غادرت المرأة، فجأة دون كلمة، فتمتم أحد الواقفين.

- ربما لتلحق بأولادها.

تطلع إليه حمدي متسائلاً، فأردف الرجل :

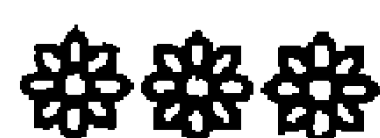
- كثير من العائلات مقسمة، بين رفح فلسطين، ورفح سيناء. الأ ب يعمل هنا والأم بصغارها تسكن هناك أو العكس. من قبل لم يكن هناك مشكل، كانت كمدينة واحدة.. والناس تروح وتجئ.. لكن الآن (وأشار نحو البوابة).

ترك ورقة مالية على منضدة المقهي، ثبتها بطرف كوب الشاي الذي لم يمسه، وأصبح كل همه أن يجد عربة، تسرع بهِ إلى العريش.

حاول أن يزحزح الطائر إلى اليسار قليلاً، حتى يتمكن من إحاطته جيداً بسترته، لكن هذا كان يتشبث بمخالبه في قميصه، وقد استراح لدفء صدره، واستكان منقاره بالقرب من إبطه الأيمن. استعاد حمدي إحساسه بملمس غرز الأظافر في ذراعه. ملمس أنثوي، منبه للذكور والرجولة، أفصح عن ود دفين. تساءل : لعل ما دفعها لذلك هو إحساسها بخطر مفاجئ، وليس في الأمر ود ولا يحزنون. ولكن.. لماذا أنا وكنا ثلة من الأصدقاء. لعلي كنت الأقرب إليها أثناء السيرِ.

وراح يعصر ذاكرته : هل كنت الأقرب فعلاً..؟!

أحس باستكانة الطائر، داعب ساقيه الطويلين الحمراوين، وضمه إلى صدره.



30

وافقت ندا أن تجالسه، مدة قصيرة، في طراوة العصرية. وها هو سعد، الذي ماصدق أنه نجح في محايلتها، قد وقع فى حيص بيص، لا يدري أين يذهب بها، بعد أن اتفقا على اللقيا عند قلعة سليمان، بالقرب من البحر.

اقترب من أطلال القلعة، بقايا أعمدة حجرية، زحفت الرمال بينها، صانعة تبابًا صغيرة. اقترح أن يذهبا إلى مقهي أحد فنادق الشاطئ، وقد احتاط لذلك بسلفة عاجلة من الباشمهندس، لكنها تمنعت، فأغلب مرتاديها من الأجانب، وقد يتعرف عليها أحد العمال.

- وماذا فى ذلك.. ألسنا..

أطرقت بوجهها إلى الأرض، وقد وشت عيناها بفرحة غامضة. قالت فى خجل:

- لم نعقد..

فكر فى مقهي صغير، اعتاده، في حارة رملية، متفرعة من الشارع الجديد، أو حسب تسمية الباشمهندس، العريش الجديدة، وهو مواز للشارع الرئيسي، غربا، وقد حفل بالعمارات والمقاهي الحديثة والفنادق، وتخلت عمارته، عن النمط العريشي، حيث البيوت من دور واحد، أمامها باحة، محاطة بسور، تطل منه النخيل. والمقهي رواده قليل فى هذه الساعة، وهواؤه طيب، لقربه من الشارع الموازي للشاطئ. ما أن أبدي رغبته، حتى قالت مستنكرة :

- مقهي....

طرفت عيناها، وظلال الأعمدة، تنسحب إلى الخلف، ووشوشة البحر تتخللهما. تلقائيا جلسا على الرمال، وطالعته براءة تغلف وجنتيها،

وقد برزت ذقنها قليلاً، ببياضها الأخاذ.. وعندما نظر فى عينيها، طالعه السؤال. قال :

- قريبا أنزل مع الباشمهندس إلى الزقازيق، وليتك تمرين على محال الأثاث بالعريش، لعل طرازا يعجبك.

حركة يديها، كأنها تريد التخلص من كميها الطويلين، وابتسمت :

- وهل قلت شيئا.. ؟!

- أقول يعني..

- ما تحضره سيكون جميلاً.

ود لو يحتضنها، ويقبلها، ويداعب ذقنها بأصابعه. نظرت إلى بعيد، كأنها تهرب بنفسها من أمامه. أمسك بكفيها، وهي تعافر.

- سعد.

- عين سعد.

صعدت ببصرها إلى السماء، تنبهه إلى بشائر المساء.

- لم أشبع

نهضت، فشبك ذراعه اليمني فى ذراعها اليسري، وغير وجهتها إلى الشاطئ، بدلاً من المدينة.

اقتربا من البحر، صامتين، متناغمين، وأطراف الأمواج، تداعب حواف الشاطئ العريض الممتد تحت غلالة المساء الشفيفة وقد أطلت سعف النخيل وبعض الباسقات من الكافور من خلف البيوت المنخفضة، المتناثرة على حافة الشاطئ من الجهة الأخرى. بينما تنسحب بقايا الأشعة، وقد رقت، وازدادت الرطوبة، وتلاقت العيون. أحاط خاصرتها بذراعه جهتها، فاستطابت ليونة مستكينة، مدت يدها من الجهة العكسية، تزيح يده، برفق، فتشبث بها.

- وبعد..

- ولا قبل.

تفلفص فى دلال، وهو بذراعيه على جنبيها. كفاه أعلى ظهرها، وعيناها بثران من المودة والترقب. اختلطت الأنفاس الدافئة، وضغط أكثر، وقد تذوق رضابها.

أحس فجأة، أنه لم يعد وحيدًا، وزايله إحساس باليتم، كان يعانيه. تملي فى عينيها، وقبلها ثانية. كفت عن الفلفصة، وقد تسرب الحنان عبر شفتيه، وبادلته حناناً بحنان. وصلا إلى الشارع المسفلت بموازاة الشاطئ، طلبت منه فى خفوت، أن تمضي خشية أن يرهما أحد. استجاب دون قناعة داخلية.. ولم يلبث أن رجح ما ارتأته..

ربما رآهم أحد وأفسد الأمر كله، ألا يكفي أنه ليس من قبيلتها وليس سيناوياً، ووافق أهلها على زواجها منه. فكر أن يذهب إلى الباشمهندس، لكنه لم يجد فى نفسه ميلا للكلام، سار على مهل، مخلفاً القلعة وراءه. ولايدري، لماذا بعثت صورة أحجارها، التى انطبعت فى رأسه، المنيا، ومقهاه فى شارع غير بعيد عن النيل. ينتقل الإنسان فجأة من الأبنية الحديثة والفنادق الملأى بالسياح، إلى مبان قديمة.. يظهر طوبها الأحمر من ظهورها، ومن واجهتها أحيانا دون طلاء بالآجر، والمقاهي البلدية بكراسيها المجدولة من سعف النخيل، والحرفيون وباعة سوق الخضر وعمال المحال التجارية، يدخنون المعسل، ويشربون الشاي الثقيل.

كان يحلو له بعد جلسة المقهي، أن يمشي على النيل، حيث النجيلة فى مساحة عريضة.. عليها دكك خشبية، تحف بها الأشجار.. وأمامه على الشاطئ الآخر، جبل، تتعاقب عليه الألوان، من رملي فاتح، إلى رملى داكن، مع حركة الشمس. والقوارب بين الشاطئين، وحين يصل الرجال إلى الشاطئ الآخر، يختفون بين شعاب الجبل. سأل أباه مرة، فضحك مبرزاً لساناً بين نابين صفراوين وقال :

– أرض مزروعة فى جوانب الجبل يوالونها.

كثيرًا ما تمني أن يعبر ويجوس فى الجبل. الدار أخذها الأخوال. رحمك الله يا أمي. ورحمك الله يا أم ميلاد، وماذا لو كانت عائشة.

الرحمة تجوز على الميت والحي. كان لا يحلو لها وضع فرشتها إلا بالقرب من ترابيزاتهم فى المقهي، الممتدة إلى جزء من الشارع. تعلق على أحاديثهم، ويوصونها أن تحتفظ لهم بما يريدون من خضراوات. يشاكسها عامل المقهي، لتبتعد بفرشتها قليلا. تتصعب وتقول :

- لا تتخير عنه.

يتساءلون متصنعين السذاجة :

- من ..

- وهل هناك غيره.. كلمة مسموعة ويد ملطوعة (تلطع عليها القبلات) وفلوس مدفوعة.

يغرقون فى الضحك، لنأورتها على القس، الذي لم يوفق بعد فى الحصول لها على حجرة فى المساكن الشعبية.

ليتك كنت هنا يا أم ميلاد. عمارات المساكن الشعبية فى المساعيد لا تجد من يسكنها، لكن إلى متى ستظل العريش بعيدة عن غول الزحام.

يا سلام يا «غول» ..

في صباح التاسع من أكتوبر نشط لواء مدرعات تدعمه المدفعية والمشاة فى شن هجوم شامل، على القوات الإسرائيلية لإجبارها على التراجع. موهوا أماكنهم جيدًا، وفي انتظار أوامر جديدة، احتدم القتال، وضغط الإسرائيليون ضغطا رهيباً، أجبر القوات المصرية على التراجع إلى وادي النخيل، لإعادة التنظيم لمعاودة الهجوم.

رأي سعد الدبابات يتصاعد منها الدخان، والأنفار تجري. طلب منه قائد الفصيلة أن يوجه مدفع دبابته ناحية اليمين، وأي قوات تعدي، يقصفها.

استمع للأمر فى اللاسلكي ولم ينفذه، مر القائد، فاستشاط غضباً.

قال القاذف :

- لا شأن لي، سعد هو المسئول..

أخرج القائد طبنجته ووجهها إلى رأس سعد، فقال :

- يا أفندم.. أراقب المعركة، والقوات الفارة من عندنا.

بدا القائد غير مقتنع، فطلب سعد أن ينادي قيادة اللواء أو قيادة الكتيبة ليعرف الحقيقة. وبينما فوهة الطبنجة في رأسه، أخذ القائد ينادي :

- نعم يا «غول».. حول يا «غول» .

ولم يكد القائد يقول : الجانب الأيمن، حتى سمع سعد من قيادة اللواء: لا تقترب من جهة اليمين، فاسترد أنفاسه.

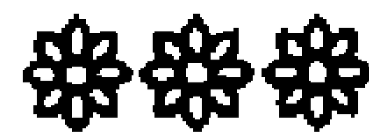
قرب الظهر مر قائد الفصيلة :

- ما اسمك

- عريف مجند خمسة مليون خمسمئة أربعة وعشرون سعد الدري يا أفندم .

- ما زلت تحفظ رقمك..

داعب شعر رأسه بيمناه، ومضى.



31

قال حمدي أبو زيد :

- دخلنا فى الجد ..؟!

ابتسم سعد الدري ، وقال :

- عقبي لك .

ضحك حمدي ، وأردف :

- من فمك لباب السماء .

سأل سعد :

- ما رأيك .. هل نحضر الأثاث من دمياط ..؟

قال حمدي :

- نكتفي بحجرة نوم ، ونلتقط طقماً من النوع الأسيوطى، أم اشترطوا عليك شيئا.. ؟

قال سعد :

- قالوا : بيتك .. افعلِ ما تشاء.

- صمت حمدي قليلاً و قال :

- فى البكور نطمئن على الزرعة .. ونخلع إلى الزقازيق .

ولم يعر دهشة سعد أهمية واستمر :

- هم أيضا يحضرون العظام (هياكل الأطقم الخشبية) من دمياط ، ويكسونها ويدهنونها .

قال سعد :

- لكن السعر يكون أعلى .

عاجله حمدي :

- دمياط مشوارها طويل ، فكر فى النقل والبهدلة ، وكله بثمنه .

وصلا محطة الباص ، وهو على وشك الإقلاع . ولما كانت العربة مزدحمة ، فكرا فى النزول . لحظهما السائق ، فطمأنهما أن بعض المقاعد ستخلو عند المساعيد ، على طرف العريش . المساعيد . هل كان حقا عيدًا بالنسبة لعمرو بن العاص ، وكيف يكون عيدًا وقد وصله خطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ينصحه إن لم يكن دخل أرض مصر ، أن يعود من حيث أتي .

هل أخفي عمرو الخطاب ، ودخل مصرًا واعتبر ذلك عيدا ، أم الصحيح ما يردده العريشيون أن عمرو حين وصل إلى هذه المنطقة ، دون مقاومة تذكر من الرومان ، قال لمن حوله : المساء عيد ، وأصبحت عبارته من ساعتها اسما لهذا المكان .

مط حمدي شفتيه . اهتزت العربة ، وكاد يقع على أحدهم ، لولا تماسكه وسط الواقفين ، وقد لفحته أنفاسهم .

رفعت رأسى إلى سقف العربة ، فى طريقنا إلى رأس البر . كانت صفية جواري . ورغم الزحام ، لم يتلامس جسدانا . كيف كانت تحاذر ، رغم الزحام ، وتتفاداني . لكنها لم تفلح فى منع أنفاسها ، أو لعلها لم تنتبه إلى ذلك . كنت مترددًا فى البداية ، كمن يتلمس تذوق طعام لم يصادفه من قبل . وسرعان ما تركت نفسي على هواها ، وقد شعرت براحة ، ونشوة غامضة .

- المساعيد .. النازل .

جلسا . من النافذة ، تأمل حمدي البيوت الواطئة ، من دور واحد ، متباعدة وسط التلال الرملية ، تحيط بها النخيل ، مخففة من وحشة الصحراء المترامية .

بالقرب من الطريق ، رأي حجرة ، منفردة مهجورة ، وقد زحفت إليها

الرمال من كل جانب . أتراها لملاحظ السكك الحديدية ، عندما كانت تمر من هنا قبل عام 67 . لماذا لم يمدوها ثانية .. ؟!

وصلا إلى الزقازيق، وقد استتب المساء . لم يحبذ سعد أن يطوفا على المحال ليلاً. فالتيقن من جودة الأشياء فى ضوء النهار أفضل . ولكن أين المبيت . هل نشد عجلنا إلى المنصورة ، ونتحمل ساعة أخري من الزمن، أم نبحث عن أي خن فى الزقازيق .

وصلنا الزقازيق ، وقد أفصحت الشمس عن هويتها . ركبنا بعض الشاحنات، وطفنا فى شوارع المدينة ، أعجبني بحر مويس ، تلك الترعة التى تقطع المدينة طوليا ، فوقها جسور صغيرة ، وثمة ترعة أخري ، متحاورة معها ومع الشوارع في تناغم وونس . والخضرة تحف بالترعتين والأشجار تتدلل عليهما ، وباعة الفاكهة والخضراوات ينتشرون على الشطآن والناس غير ملقية بالاً ، لهذا الجمال ، الوجوم ينضح على وجوههم ، وتكاد الأسئلة تقفز منها :

هل سينجح البريطانيون فى السيطرة على بورسعيد ، ويتقدمون صوب الدلتا، بعد أن أمن الفرنسيون ظهرهم باحتلالهم بور فؤاد ، أم سيواصل البريطانيون زحفهم للاستيلاء، على مدن القناة ، واحدة تلو أخرى ويشهد عام 1956 انتهاء حكم «الضباط الأحرار»؟ وفي الحالين ستكون الزقازيق مهددة . وهل سيتجاسر الإسرائيليون ، ويقتربون من حافة قناة السويس ، ام يقنعون بما حدده ، الإنجليز والفرنسيون لهم ، ويظلون قابعين خلفهم فى سيناء .

ورغم هذه الأسئلة القلقة ، كنت تلمح همة واستبشارًا على وجوه الناس، فقد أممت شركة قناة السويس العالمية للملاحة ، وعربات الجيش ذاهبة وآتية ، في حركة لا تهدأ . ومنذ قليل خطب الرئيس عبد الناصر ، من فوق منبر الجامع الأزهر . . منهيا كلماته بـ : سنحارب . . سنحارب .

ونحن نهدر من فوق الشاحنات بأبيات لزميل شيوعى :

من خاف فى الصف يرمي بعار   من خاننا سوف يلقي الدمار
لن نستجيب لصوت الهدوء   إن الكفاح هو الانتصار

ونلوح بالبنادق فى الهواء :

شعب الشمال وشعب الجنوب   وحد أيادي ووحد قلوب
نرمي بها قلب مستعمر   فالاتحاد سلاح الشعوب

عند الظهيرة ، وصلنا قرية أبو حماد . وجدنا متطوعين كثيرين سبقونا .

نظرت إلى الهواري ، وقلت :

- الولد سمير لم يأت .

أردف :

- ولا رجائى .

- أوهمانا أنهما سيحضران .. ضحكا علينا .

- لا تبال .. عيلان .

كنا سمعنا أن مكتب محام بحي الحسينية بالمنصورة ، يجمع متطوعين للسفر إلى الجبهة ، فاتفق أربعتنا على الذهاب .

رنة البشر والتفاؤل ، وأصحابها الوافدون من جهات شتي يتعارفون، خففت من مرارة ما أحسست به تجاه سمير ورجائى . وأهالي القرية تجمعوا حولنا ، فانطلقنا نردد، والفلاحون يحاولون مجاراتنا .

يـا شـعوب الشـرق هـذا وقـــت رد الغاصبيـن
فاركبـوا الهـول الشـداد واصطلوهـا باسلـين
طـال عهـد النـوم فيكـم والأعـادي سـاهـرون
أنعيـــم وبنوكـــم فـــي المنافـي تائهـون
شـتتونا فـي المنافـي واملأوا منـا السـجون
سـوف تأتيكـم ليـال برقهـا حتـف المنـون

قادنا الفلاحون إلى قاعة أعدت لاستقبالنا ، مفروشة بالحصر . وجدت

الهوارى قد سبقنا ، ووقف فى ركن ، يجمع فيه البنادق من الداخلين . وقبل أن أسأله عما يفعل، انطلق ضاحكًا :

- السلاحليك .

جاويته بضحكة عالية . فهو لا ينسى عادته في أي مكان نذهب إليه. أشار إلى ركن آخر وضع فيه بعض الجرائد ، وكتبا ، لا أدري من أين حصل عليها ، وقال :

- المكتبة ..!

أحضر الفلاحون وجبة بسيطة ، على حد قولهم . خضرة ، جرجير وفجل ، جبن وحلوي طحينية ، عيش مرحرح ، مفرود ، طري ، يسيل اللعاب .

اختارا فندقًا متواضعًا ، قريبًا من محطة السكك الحديدية . طالعتهم أنوار النيون البيضاء ، منبعثة من محال الحلويات الشرقية . اللديدة المصنوعة من المبشور العريض لجوز الهند ، وأقراص الشكلمة الصغيرة من المبشور الرفيع لجوز الهند . ومحال الفول والطعمية ، ذات الروائح الحريفة . ومحال الفاكهة وقد صفت حبات البرتقال واليوسفي فوق مدرجاتها الخشبية الهرمية . تداولا فيما ينبغي شراؤه أولاً، وهل يأكلان على المقهي ، أم يأخذان زادهما ويصعدان إلى الفندق .

قال حمدي :

- الخبز أولاً .

رد سعد :

- لن تجد خبزاً بلدياً الآن .

بعد أن لفا في بعض الشوارع ، وقفا أمام فرن أفرنجي . عند الحساب وجدا سعر رغيف الفينو عشرة قروش . لم يستطع حمدي أن يحفظ لسانه:

- معدل .. ولا محسن .

رد الرجل :

- خارج التسعيرة .

ضحكا ، وقال سعد :

- أي تسعيرة يا حاج .

نكس الرجل رأسه ، وانصرف إلى بضاعته . تمتم حمدي ، كأنما يكلم نفسه:

- من قرش إلى عشرة .. والبلدي من خمسة مليمات إلى خمسين ..!

حدثت هزة فى الشارع ، تجاوبت أصداؤها فى البيوت والحارات . وعلت الفرحة وجوه الناس . سألت أمي . أخذتني فى حضنها .. أطلقتني برفق وقالت:

- النحاس رخص الرغيف .

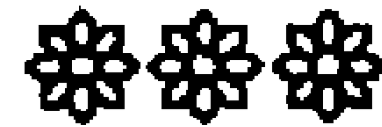
وسرعان ما جاء أبي متهللاً ، ليزف البشري ، فوجد أمي قد عرفت . جريت إلى الشارع ، أتقافز مع الأولاد ، ولم نتفق على لعبة معينة ، كما تعودنا ساعة العصاري . واستطعنا أن نلتقط من أفواه الكبار ، أن رئيس الوزراء، خفض ثمن الرغيف من ستة مليمات إلى خمسة ، وقلت فى نفسي، لن يربك المليم أمي وهي تحاسب أبي عما أنفقت من العشرة قروش ، التى يعطيها لها مصروفًا يوميًا للبيت.

لم يجدا فى الفرن كيسًا بلاستيكيًا ليضعا فيه الخبز . نزع حمدي الصفحة الأولى من جريدة كانت فى يده . شد عيونهم عنوان بالخط العريض : الحكومة تشدد رقابتها على المتلاعبين فى وزن رغيف الخبز.

سارا صامتين حتى وجدا مقصفًا مازال ساهرا ، نظر حمدي إلى سعد وفجأة :

- ها .. ها ..

- ها .. ها .. ي ..
ومعًا :
- ها .. ها .. هاى .
اشتريا بيضًا مسلوقًا ، وكيسًا من المخلل وطعمية . سارا بجوار بحر مويس ، وقد غشتها الظلمة . سمعا حفيف جناحي طائر . تطلع حمدي إلى أعلى وقال :
- يبدو غرابًا ..
- معقول .. ؟!
الغربان اختفت من زمن ، ولكن أحد أنواعها ، لمحته فى مكان مهجور، على شط البحر ، لعله تسلل ، بحثًا عن طعام . وغالب ضحكة وهو يقول:
- يهوي بيض الصقور .
جاوبه سعد ضاحكًا :
- نقبه على شونة .



32

- بالمرة .. نشتري الدبلتين .

نظر حمدي إليه مستطلعاً . أخرج سعد من جيبه فتلة بيضاء ، ناولها له . وجد علامتين متباعدتين بالكوبيا ، ففهم أنه أخذ مقاس إصبع ندا . حاول لفها على إصبعه، فاعترض سعد :

- من فضلك ..

لوح الجندي الإسرائيلي بالرشاش المعلق فى إحدي كتفيه ، وبأصابع يده الأخري تحسس دبلة فضية فى إصبع لي . تعلقت بعينيه . وضع يده على صدره ، مكوراً ثديي امرأة . هززت رأسي إلى أسفل . ربت الجندي براحة يده الهواء إلى أسفل ، بما يعني وجود أطفال . أبرزت له أربعة أصابع . ترددت أصابعه على الدبلة ، برهة، تاهت فيها روحي . ألقي بيدي جانبًا . تنفست ، غير مصدق . دبلتي عادة تعصلج فى إصبعي . ولن يجد حرجًا ، مثل غيره ، فى قطع الإصبع ، وأحيانًا قطع اليد كلها ، وإذا انبثق نزيف ، فرصاصة فى الصدر أو الرأس ، تنهي كل شيء.

قال حمدي :

- ليتك أحضرت ندا ، تشتري بنفسها ، وفرصة لنزهة معًا .

تفسحنا فى النيل أمام رأس البر . القمر يفرش أشعته فوق الماء ، والدرافيل تتقافز حول المركب مداعبة . نمد أيدينا إلى الماء ، فتغطس رؤوسها ، وتعاود الظهور . أخوتي وأصدقاء لنا يتسامرون . عيناي على

عيني شقيقة الهواري . أحس بجاذبية خاصة لسمارها وجسمها اللدن . «أنا قلبي إليك ميال» . ظللنا جميعا نحاول اكتشاف ماهية الصوت الجديد الذي أعلن عنه المذيع منذ لحظات . «والبهجة أنت فرحتها ، والفرحة أنت يا حبيبي حلاوتها وابتسامتها» .

- كلمات جديدة .
- اسمها
- فايزة أحمد

زحفت ساقي القريبة منها ، تتحسس سمانة رجلها المجاورة لي ، حركت ساقها قليلاً ، دون أن تلفت نظر أحد ، أو .. تنظر في وجهي .

نزلنا من المركب ، ومشينا في الطريق إلى اللسان . هذا الطريق الخرساني ، على يمينه النيل ، وعلى يساره موج البحر الأبيض المتوسط . والرذاذ يناغي وجوهنا، وأحياناً موجة تقل أدبها ، تصفع سيقاننا وتتطاول إلى الأفخاذ وقد تطايرت الفساتين، تتعالي صرخات البنات ، ويحاولن تفادي الموجة ، فنلتصق بعضنا ببعض.

ووجهها يقارب وجهي ، والرذاذ يغمرنا ، وهواء النيل والبحر ، في أول الليل ، ينبت في أجسادنا أجنحة ، تحمل قلوبنا وأرواحنا ، إلى بهاء ورحابة الأفق ، الحادب على البحر ، ويتلاشى قوس التماس في غموض. وثمة أشرعة بيضاء ، تظهر وتختفي.

لحظ الهواري حالي ، فألمح لي : على سنة الله ورسوله .

ذهبت إلى بيت الهواري . شككت في الأمر . عدت إلى اللافتة الزرقاء المعلقة في أول الشارع من جهة سوق الخواجات ، عليها بخط أبيض شارع على محمود طه . قالت العجوز في محل البقالة في المواجهة ، لما كان، من الناحية الأخرى من الشارع :

- وقع من زمان .

وأخبرتني أنهم ذهبوا إلى مساكن الإيواء . عمارة وسط المساكن الشعبية ، في أحد أطراف المدينة . احتلت النسوة المدخل . هذه تنقي أرزاً، وتلك تقمع بامية ، وأخرى تطرقع بلبانة ، ويلكن في الحديث، تأملنني بعيون جريئة ، ولم يجبن بسهولة ، مررت من بين أرجلهن ، وأنا في نصف ملابسي ولم أكد أرتقي السلم ، حتى اصطدمت بالأطفال يلعبون .

قادني أحد الأطفال إلى ممر طويل ، ضيق ، على جانبيه أبواب مخنقة . وقف الطفل أمام أحد الأبواب وتركني وجري . طرقت الباب .. لم يجبني أحد . صفقت بيدي وأردفت :

- يا ساتر .

أطل وجه امرأة شابة

- جماعة الهواري

- في الآخر على اليمين

كانت الحجرة بجوار الحمام . بالقرب منها وقفت شابتان ، بينما شاب يخبط باب الحمام، مستعجلاً من بالداخل . مرقت فتاة من الحمام كالسهم ، قاصدة الحجرة . طرقت الباب ، فجاء صوتها :

- وبعدها معكم .

تنحنحت ، وقلت:

-لو سمحت .. ؟!

واربت الباب قليلا . كانت الفوطة تلف شعرها المبلول ، وقطرات من الماء تتساقط من جبينها .

- ماما موجودة .

- اترك عنوانك ، وعندما تشفى
- يا آنسة .. افهميني .
- خلاص .. شف لك غسالة أخرى.
- أنا زميل الهواري .
اضطربت الفتاة ، ووسعت من فتحة الباب ..
- لا مؤاخذة .. تفضل.
وجسدها لم يزل يعترض فتحة الباب ، حتى جاءت أمها . ما أن رأته حتى نهرت الفتاة وهي تنحيها عن الباب :
- اخص عليك .. ألم تعرفيه .. كنا جيرانًا .
-كانت أيامها طفلة .
زغدت الفتاة صبياً ينام على كنبة في الحجرة لتوسع مكانا . .
- لا تؤاخذنا يا بني
طالعتني على الحائط ، المواجه لي صورة لعبد الوهاب وأم كلثوم ، وقد مال كل منهما إلى الجانب الخارجي للإطار من أعلى .
ياه يا «هواري» ..
لا أذكر هل كنا أمام باب الدرجة الثالثة لسينما عدن ، أم لسينما ركس. والأولاد يدفعوننا بعنف ، والرجل بالباب الحديدي لا يريد أن يفلتنا من الفتحة الضيقة ، إلا إذا تحقق من التذكرة . وبعض الأولاد لم يطيقوا صبرا، فقفزوا فوق الرؤوس، بأقدامهم، وحشروا أجسادهم بيننا وبين الباب الحديدي ، لينزلوا ، والهواري يزاحم بيد ، وبالأخرى رفع صورة عبد الوهاب وأم كلثوم التى أعطاها له بائع التذاكر ، مقابل المليمات الباقية من ثمن التذكرة ، وكانت من نصيبي صورة أعضاء «مجلس قيادة

ضباط يوليو» . وبعد أن دخلنا وأخذنا مكاننا على دكة خشبية فى طرف من القاعة، لوح الهواري بصورته ، ووشت عيناه بالانتصار ، وقد رأى ما بقي في يدي من مزق الصورة .

كثيراً ما عنفت نفسي لقيامي بهذه الزيارة ، ما كان يصح لي أن أراهم على هذا الحال . لاشك أن ذلك آلمهم ، ولكن ماذا كنت أفعل .. أليس من الخسة أن أنقطع عنهم وقد ذهب الهواري .. ؟!

تري .. هل أنقذت سنة الله ورسوله شقيقة الهواري ، من هذه المعيشة..

عزمت صفية على الذهاب إلى رأس البر . قالت : وان شاء الله على السنة المطهرة..! دلقت فوقي جردلاً من الماء ، وأخذت أتساءل .. هل أردت من خلالها ، استعادة نشوة الحب الغض ، أم أَمِلت أن تؤجج الذكريات حبي لها .

ماذا لو هاودتني ، ومشينا معاً على اللسان ، وجلسنا على أحد المقاهي المنتشرة على النيل في الطريق إليه ، والمطاعم تسوي الكباب في أسياخ فوق فحم متقد يشع بالاحمرار.

وفي الجانب الآخر ، المقاهي والمسارح ، وباعة الفيشار والسوداني، بعرباتهم الصغيرة ، يتصاعد دخان أبيض من مداخنها . وباعة الحلي الرخيصة ، أساور من العظام ، ملونة ، ومن القشرة الذهبية . والمناديل مختلفة الألوان ، أطرافها موشاة بالترتر الذهبي والفضي ، عندما كنت أري منديلاً مثلها يلم شعر شقيقة الهواري ، كان قلبي يطب من فرط ما أضفاه عليها من أنوثة ، وما يشع من حيوية وجهها ، التى جعلته محمرًا ،

شمس الصباح عند البحر ، وقد تقشر جلد رقيق أبان البياض تحته أعلى وجنتيها ، وزاد من سمرة ما حوله أعلى ذراعيها .

وهمسات ، يحملها نسيم المساء الطري .. عبد الوهاب يجلس فى مقهي الجندول . الممثلة فاتن حمامة تجلس فى مقهي أبي طبل وحيث يقدمون الفطير واللبن، ومعها الفنان عباس فارس . هل سيغني عبدالوهاب الليلة . حضر للتصييف وليس للغناء . فى مسرح المقهي المجاور يعرضون رواية جديدة . لَمحَت الممثل زكي رستم . انُظر من هذا الجانب لتراه . فى المقهي المجاور استعراض ، رقص شرقي وغناء. أسحبها من إحدى يديها ، تطيعني ، نبص على عبد الوهاب ، وأحيانًا الممثل يوسف وهبي .

طافا شوارع الزقازيق ، وعبرا الجسور ، فوق بحر مويس ، والشرقاويات، البيضاوات ، بملابسهن السوداء الطويلة ، تتلعبط أجسادهن داخلها ، وزاد الكحل على الجفون من إبراز بياض أديم العيون ، واسوداد النني. وعصبن رؤوسهن بالمناديل السوداء ذات النسيج الرقيق ، وتدلت من آذانهن أقراط على رسم أهلة كبيرة ، ذات ألوان فاقعة .

وهما يدلفان إلى محل جواهرى ، سأل سعدًا :

– أحببتها .

تطلع إليه بعينين ، تغنيان عن أي بيان .

«أنا قلبي إليك ميال» . عزمتها على فطيرة عند أبي طبل . الفطيرة الممتازة ، المحشوة بالزبيب والمكسرات بخمسة قروش ، وشوب اللبن، بخيره ، يبنج ، بثلاثة قروش .

· قال حمدي :

- هل سنحبس بالشاى بعد العشاء..؟!

- ولوح بجنيهين ، من طرفيهما بين سبابة وإبهام يمناه وقال :

- باقى الورقة أم عشرة .. وفى كلام فارغ.. عيش وطعمية وبيض..!!

كانت أمي دائمة الشكوي من تصاعد الغلاء . وحكت لنا عن البيضة التى كنا نشتريها ونحن صغار بسبعة مليمات ، أنها كانت تشتريها وهي طفلة بمليمين . كثيرًا ما ضحكنا منها ، غير مصدقين أن تكون الأشياء بهذا الرخص . وهل سيصدق أولادنا أن بيضتنا بخمسة عشر قرشا .

- قالوا : الثمانينات بداية الرخاء ، ما هى أوشكت على الانتهاء . قالوا: بعد السلام مع إسرائيل سيعم الرخاء .

تطلع حمدي وهما يسيران إلى مياه بحر مويس الغامضة . وتساءل .. أين الترعة الأخري وتذكر ترعة أم الجلاجل فى المنصورة وسوق الثلاثاء جوارها ، والذي كان خاليًا طوال الأسبوع حيث يلعبان كرة القدم . وترعة البحر الصغير ، وتسابقهم فى الماء وبلبطة أولاد الحي وهم يعلمونهم السباحة ، وقد أصبحتا شارعين مسفلتين .

كانت عربات النقل تسرع فوق الأسفلت بجوار بحر مويس ، وهم فوقها ، ينشدون:

لكل شجاع إلى الانتصار مضى فى ثبات إلى حتفه
سلام يزلزل قلب الطغاة يحطم من ليس يحيي به
سلام عليكم رفاقاً أباة ومن جاد منكم بأنفاسه
سلام يقيم بناة الحياة نعيم الملايين فى ظله

لمحت شقيقة الهواري خارجة من محل . أحسست ولست أدري

كيف أنها تداري نفسها مني . وقفت فى طريقها . ارتبكت خطواتها . وقفت مستسلمة . ابتسمت ، فاستعدت ما كان منها ومني فى لحظة .

- سعيدة

- يعني

لحظت أن ملابسها ، ليست ولابد ، فخجلت من نفسي .

- لماذا هذا بالذات .. ؟!

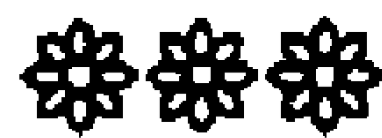
غادرت عيناها وجهي ، فأحست بالحرج ، وندمت على تسرعي بالسؤال.

طال اعتقالي ، وكانت الدنيا أيامها مظلمة ، أو ربما حاولت الهرب من مساكن الإيواء . لكن مع من .. مع فاشل فى تعليمه ، يخب فى ركاب، أحد مقاولي هدم البيوت وبيع أنقاضها ، وكثيراً ما تعرض لسخريتنا ، وكانت هي من أوائل الساخرين.

نظرت إليها وقد حز في نفسي . لماذا أوقفتها .. لماذا .. ؟!. دخلت بيتي، ولم أكن فعلت منذ شهور . ذهبت لأشعل البوتاجاز . فتحت باب الفرن .

عدة فئران غضة ، تحرك أعضاءها الرفيعة بالكاد ، صنعت لها أمها حضانة من ندف القطن .

وقف مدهوشاً .



33

لملمت الشمس غزلها الرهيف من فوق البيوت ، ومن رمل الحارات ، وألقت به فوق مياه البحر . تغطس به حينًا ، وتطفو به حينًا، والموج يداعب القرص الأحمر . يرتفع ويرتفع حتى يكاد يغطيه .. فيستبدل بخيوطه فى ذهبية لون القمح ، خيوطاً من سكر غزل البنات، المشبع بالاحمرار .

يرتفع الماء .. وتحول الشمس وجهتها ، لتنشر خيوط غزلها فى مكان آخر من العالم .

وسعد قد هيأ نفسه ، ليطلب إجازة يومين لندا ، وحين شرع فى الكلام، سبقه حمدي أبو زيد :

-غدا ، سنبدأ حملة لمدة أسبوع لإزالة جميع النموات أسفل سيقان الخوخ .

استبوخ سعد ، أن يفتر من حماسه ، وقد استطالت سيقان الخوخ واشتدت .

ومن قبل ، حاول إثناء ندا عن الإجازة ، لعلمه بما ينتويه الباشمهندس، لكنها أصرت . تحدث أخوها تليفونيًا من بالوظة إلى خالها فى العريش. عندهم حملة لتحصين الأغنام، ضد مرض حمى الوادي ، وفي حاجة لها.

- ألم تخبريني أن أخاك فى المدرسة .

- يترك الأغنام ترعي فى البكور ، ويذهب إلى المدرسة وبعد خروجه يكمل يومه معها .

- ومتى يذاكر .

- وهو معها .

لم يجد ما يقوله فاستمرت :

- حين كنت فى سنه ، لم تكن فى بالوظة ، أو بالقرب منها أية مدارس.

أمسك إحدى يديها ، فتركتها وهى تقول :

- أمى عجوز

- ومالك .. والغنم

- كنت راعية ، قبل أن يلحقنى خالى فى هذا العمل بعد وفاة أبينا .

حار ، كيف يقنع الباشمهندس .

- أقول يعنى ..

- لا تقل شيئا .. وبعد هذا الأسبوع سنعمل رشة باللندين ضد ذباب الفاكهة.

علق سعد :

- وهل هنا ذباب فاكهة .. ؟!

تفكر حمدي مليًّا .. وقال :

- نسأل .

- أقول يعني .. أستأذنك في إجازة يومين لندا .

انتفض حمدي :

- هذا وقته ..

- ظرف طارئ .

- الطارئ عندنا

وومضت عيناه بألق فرح ، واستمر :

بعد نزع الزائد من ساق النبات ، وترك عدة أفرع منتقاة ، نكون حددنا هيكل الشجرة مستقبلا .

عزَّ على سعد ألا يجاريه ، ولكن ماذا يفعل وقد وعد ندا . لم يجد بدًّا من شرح الأمر ، فتفكر حمدي قليلا ، وقال :

- أمرنا لله . . يوم واحد فقط .

عاجله قبل أن يرجع فى كلامه :

- وهو كذلك .

خبأ حماسه ، وتطلع إليه بعينين مترددتين .

- ماذا ثانية .. ؟!

- العربة .. أوصلها وأرجع ، حمامة .

أطرق حمدي ، رفع رأسه وقال :

- أنا لم أقل شيئًا .

وقف سعد متردداً فزغده فى صدره :

- ماذا تنتظر .. ؟!

لحظ العميد جورج أديب ترددهم ذات مرة لحظة الهجوم فصاح :

- الله أكبر يارجال .

فصاحوا جميعا :

- الله أكبر .

بعد الهجوم ، اشتكوا له من قائد التشكيل ، فقال:

- تعرفون المطلوب منكم .. تصرفوا حسبما يمليه الموقف عليكم .

تقدموا لاحتلال تبة القيادة فى القطاع الأوسط . أصر قائد التشكيل أن يصعدوا راكبين العربات المدرعة ب ك . رآهم قائد يحتل تبة مجاورة ، فتحدث مع قائد التشكيل تليفونيا .

علموا أنه أخبره أنه ليس ضرورياً أن تركب قواته كلها المدرعات ، ليقلل من الخسائر ، فرد عليه : أقتحم راكباً كما فعل جنرالات الحرب العالمية الثانية . وحين قال له الموقف مختلف ، لم يرد عليه . لحظوا أن فصيلة من قوات التبة المجاورة ، تشغل جانباً للإسرائيليين من ناحيتها، فقدروا لقائدها صنيعه ، فقد خففت القصف على القوات المهاجمة . كانت كتيبة سعد هي التي ستقوم بالجهد الرئيسي، وباقي القوات أجناب لحمايتها . هجوم بطريقة المروحة . ثبتوا كتيبة ، وتحركت أخرى نصف حركة ، وشرعت ثالثة في التطويق .

انشغل الإسرائيليون في الرد على الجانب الذي فتح النار . لحظ جانب آخر الموقف ، فخفف عنهم بفتح نيرانه . ومع ذلك لم يتمكنوا من احتلال التبة . غيروا في مواعيد الهجوم هاجموا ظهراً ، وفي آخر ضوء ، وأخيراً في أول ضوء في صباح اليوم التالي . ولم يتم لهم احتلال التبة إلا في المساء .

وكانت عربة القيادة، وبها العميد جورج أديب، تتقدمهم . وكانوا يطلقون عليها: الأديبة . الأديبة راحت . الأديبة جاءت . فجأة تعثر جنزيرها في لغم . توقفت العربة، ويبدو أن الإسرائيليين هرشوها، لكثرة الهوائيات التى تتصاعد منها، فركزوا مدفعيتهم عليها . أمر قائد التشكيل فصيلة سعد، أن تتقدم منها ، وتقدم تغطيةً بالنيران، حتى يمكن إخراج من بداخلها .

تقدم سعد بدبابته . وضع المعمر الدانة ، جري المقذوف ، نصف الخرطوشة فى الداخل ونصفها فى الخارج . ماذا جري . . وكان الإطلاق جيداً منذ الصباح . لو أبلغ سعد قائد الفصيلة سيقول : لماذا لم تفتش على ذخيرتك قبل العملية . وهل يستطيع أن يقول له أنهم لم يناموا من عدة أيام. لن يجدي أي اعتذار . وحتى إذا وجد دانة ملقلقة ، متى كان سيرجعها ، وأين . . ؟! آه . . لا وقت لمثل هذا الحوار . فلو أبلغ قائد

الفصيلة قائد التشكيل ، سيوقع به أشد العقاب ، خاصة ، وثمة شكوى فى حقه منذ قليل . تناول المعمر دانة أخري ، ودفع القاذف بكعبها الدانة الواقفة ، جرت الدانة وانطلقت . عمر دانة أخرى.

سعد يعد : ألف وواحد ، واثنان ، وثلاث وأربع وخمس . وثبت بالدبابة حتى يطلق القاذف . نفس المشكل ، أخذ سعد يناور بالدبابة ، سائرًا بسرعة ستة كيلو مترات فى الساعة ، ليتيح له الفرصة للضرب ، والمفروض أن يسير بسرعة خمسين كيلو مترا ، ليتفادي القصف الإسرائيلي ، وليلحق بعربة القيادة . أبلغهم قائد الفصيلة أنهم تأخروا فى الضرب . فالمفروض أن يطلق الدانة فى حوالي خمس ثوان . قال سعد : عطل بسيط يا أفندم وتم التغلب عليه . مصيبة لو غررت به الدانة الثالثة . بم..تراخ . . وتنفس طقم الدبابة براحة .

تقدمت الفصيلة بتشكيل رأس سهم ، ونظراً لاشتداد القصف الإسرائيلى ، أمرهم قائد الفصيلة ، أن يتقدموا فى شكل «زجزاج»، خاصة وقد لحظوا أن طائرات إسرائيلية تحوم فى الجو ، تود التدخل في المعركة.

إشارة عاجلة من العميد جورج إلى الدفاع الجوي : احذروا الطيران المنخفض.

فهموا أنه يطلب منهم ألا يلتفتوا إلى الطائرات المرتفعة ، كانت على ارتفاع يزيد على عشرين كيلو مترًا ، وترسل عادمًا أبيض ، لشد الانتباه ، ولتستجلب الصواريخ ناحيتها ، وهي غير مؤثرة عليها في هذا الارتفاع . وفي نفس اللحظة تظهر طائرات على ارتفاع منخفض جداً ، حتى لا تراها شاشات الرادار ، فلا تكاد الصواريخ تنطلق من قاعدة ، حتى تدكها على الفور . ويبدو أن الإسرائيليين أدركوا من عدم استجابتهم للعادم الأبيض أنهم لم ينخدعوا ، فلم يرسلوا طائراتهم المنخفضة .

اقتربوا من عربة القيادة، فأمرهم قائد الفصيلة أن يأخذ التشكيل رأس سهم معكوس.

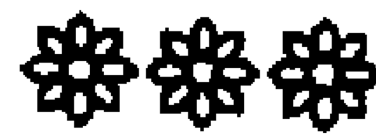
رئيس العمليات ، أصيب بشظية فى ظهره ، حمله أحد الضباط ، وأراحه على الأرض ، بينما العميد يصيح :

- تقدموا يا رجال

شملتهم حالة من اللامبالاة بالقذائف التى تترى حولهم ، وتقدموا .. استولوا على التبة الحصينة . وجدوا ثلاث دبابات إسرائيلية مدمرة ، وكذا بعض المدافع . أخذت قذائف الإسرائيليين تنحسر شيئًا فشيئًا . وانتبهوا لرئيس العمليات المسجي على الرمال . وجهه أسمر ، مشرب بخيوط من الدماء ، وتنشع من فودية ومقدمة رأسه شيبة خفيفة ، أضفت عليه هيبة . ولم يجسر أحدهم على الاقتراب منه . يرفضون تصديق موته.

أمر قائد السرية ، بحمل الجثمان إلى التبة . أقاموا له قبراً أعلاها ، وأطلقوا اسمه على التبة . بعد وقف إطلاق النار ، رفضوا نقل الجثمان من مكانه . حضر قائد الجيش الثاني وحدثهم برفق .. وأن الجثمان من حق أهله .

وافقوا بعد لأي . احتفظوا بشاهد فى مكان استشهاده ، وغرسوا حوله بعض النباتات الصحراوية .



34

وردت إشارة :

أغلق الإسرائيليون قبل رحيلهم آبار المياه ، يرجي العمل على إعادة فتحها . والتأكد من صلاحية مائها للاستخدام .

أربعون بئرًا . كيف أجد وقتاً لإعادة فتحها . ولعل بعضها قد فسد، أو هربت المياه منه . اقتربت العربة من رمانة . طالعته خضرة أشجار متناثرة ، حينا ، وكثيفة، حينًا . وبقع من الأرض معشوشبة . وبيوت بين منخفضات الرمال ، تحيط بها أسوجة من سعف النخيل ، جارت عليها الرمال ، وجارت الشمس ، فتغير لونها إلى ما يشبه البني المؤكسد . وبيوت فوق الرُّبى ظهرت شبابيكها ، بألوان خضراء وزرقاء، باهتة. ولاحت مدرسة على الطريق ، جوارها أبنية ، مخروطية السقوف ، أغلب الظن، حظائر سيارات ، ومخازن لمواد بقالة أو زراعة . لمح مقهي على الطريق ، أُعد بشكل ، كما حدث نفسه ، يسمح باستقبال السائحين أو أصحاب العربات الخاصة وما أكثرها الآن على الطريق.. باحة عالية ، تصعد لها بعدة سلالم.. وترابيزات متناثرة .. فوقها مظلات ملونة ، مثل شماسي الشواطئ .. وراديو يبعث أغنياته .

طلب من السائق أن يركن ، التماساً لشئ من الراحة ، ولكوب من الشاى ..

آه .. لو هفت نفسي وقتها لكوب من الشاي ، لعددتها مجنونة . فقط جرعة ماء.. جرعة .. ! .. فقط بَلّ اللسان المشقق بقطرات..

لسعتنا الشمس .. لسعتنا .. ؟! .. شوتنا .. أحرقت جلودنا. رأينا أمامنا صفا من الدبابات الإسرائيلية ، لا يقل عن الأربعين ، يعني كتيبة ، العسكر فى حالة استرخاء، أطل بعضهم من أبراج الدبابات ، وآخرون قفزوا منها . وعربات مؤن اقتربت ، ومساعد كرشه ساقط أمامه ، وذقنه ، نبت فيها شعر أبيض . التف حوله العسكر . ناولهم زجاجات مياه غازية ، فيما أحسب ، وقطعاً من الشيكولاته ، وعبوات من البسكوت . وحين زادت الجمهرة ، خلع القايش ، وطوح به فى الهوا، وهم زائطون، غير مبالين.

زادت رائحة الشياط ، ونحن ميتون فى جلودنا ، في خنادق مبعثرة على جانبي الطريق المسفلت ، العاري من أية مبان ، فقط ثمة أخصاص ، من جريد ، متناثرة بين كثبان من الرمال ، وأمعز ، تنبش فى الأرض .

- قنبلة يدوية يا عالم.

وتذكرت ما تدربت عليه عام 1956 ، قنبلة فى البرج ، وأخري فى الجنزير ، دبابة فى الأمام وأخريّ فى الخلف أو الوسط ، وتتعطل الكتيبة، ويصبح أفرادها فى متناول بنادقنا الآلية ورشاشاتنا .

حانت مني التفاتة لزملائي فى الخندق . منكمشون خشية أن يلحظوا وجودنا . وحين سمعت أصوات تحركهم ، أغمضت عيني بشدة ، واهتز جسدي ، وأنا أتخيلهم قد عملوا مربعاً ناقصاً ضلعًا ، حول أحد مواقعنا.. وأين يوجعك..

فى الطريق إلى العربة ، انسابت ..«أنا قلبي إليك، ميال» .. رفَتَ

روحه، خضراء، غضة ، في نشوة بكر ، ودّ لو يعود إلى كرسيه ، لكن نظرة إلى السائق الذي سبقه ، جعلته يتبعه .

- اقتربنا من بالوظة .

- على وشك .

طالعته خضرة ، وشجر ، ومبان جديدة ، ومدرسة .. لا .. اثنتان فيما أظن . وتساءل في نفسه ، لماذا هذه المنطقة مشجرة هكذا . هل نسبة المياه الجوفية أكثر . أم أن فرع النيل القديم كان يمر من هنا ، وترك غرينًا احتفظت به الرمال ، وترك ماءً في الأعماق؟

ماذا كان يجري لو إسماعيل خديو مصر ، أو من قبله محمد على ، أراحني أحدهما وحفر ترعةً هنا، تضاف لما حفراه من ترع كانا يفاخران بها. أم تراهما تعمدا عدم الحفر ليسببا لى وجع القلب. ومن يدريك.. ألن يستطيع الإسرائيليون تسميم الترعة؟ يسممونها.. آه .. لكن يغلقوها، كما أغلقوا الآبار لا ، لماذا سعادتك زعلان ، يردمونها.

هدأ السائق من سرعته . انحرف إلى جانب من الطريق . بينما يفك السائق ركبتيه، تطلع إلى الشجر. لو سمم الإسرائيليون الآبار هنا، لانعكس ذلك على مظهر الشجر.

تنبه إلى أن هذه الأشجار لا تروي من الآبار . إذًا لظهر الأثر في الزرع.. تطلع أمامه على مرمي البصر ، وقال :

- بنا .

ما لي أنا والآبار وقلتها . لابد من حسم الأمر . هل أظل أجري وراء سراب اسمه صفية ، أم أتوكل على الله وأتزوج سمية . أنت في سن لا تتحمل التلكؤ ، وإلا فمتى تربي طفلاً ، لو جاء . وماذا إذا لم يأت الحب المنتظر ، وأطلت من الوجدان صفية..؟! ماذا أفعل حينئذ .. ؟!

- هنا .

وأشار ناحية الزرع . أخضر ومرعرع . لمح مجري منحدراً ، مبطن بالأسمنت ، مسور من الجانبين ، لاصطياد مياه المطر من تل قريب ، حتى لا تهرب . جميل .. لم يكد يرفع رأسه ، حتى حضر إليه عماله من خص وسط الزرع لم يلحظه ، كأنهم كانوا فى انتظاره . تبادلوا الشكر ، بعد أن أخبرهم عن مهمته لإعادة تشغيل البئر فى ناحيتهم وصيانته . شمروا عن سواعدهم . وحذرهم من استخدام مائه حتى يخبرهم بنتيجة فحص عينة أخذها .

مال السائق بالعربة إلى مقهي ، بجانب الطريق . تطلع إليه ، وقد افتقد سعدًا :

- ريقي نشف .

أحضر صاحب المقهي ، فيما بدا ، براداً من الصاج الأزرق ، وكوبين زجاجيين ، تحتهما طبقان من الصيني .

- عنك .

أخذ حمدي البراد ، وشرع يصب الشاي ، وهو يتشمم البخار .

- من بورسعيد..؟

- رفح

رمقه بدهشة، فبورسعيد على بعد خطوتين ، وكمنطقة حرة مليئة بالبضائع المستوردة ، والشاي هناك من مختلف الأنواع وبأسعار رخيصة.

- عربات الأجرة ، تذهب إلى رفح يوميًا ، محملة بالعمال ، بعضهم يعبر إلى رفح فلسطين ، يعملون ويتسوقون .

قَلّب السكر . وتأمل رسما لكونت وكونتيسة على الطبق . قالت صفية : كان نفسي تشوف طقم فناجين شاي روميو وجولييت الذي اشتريته من غزة . منه لله موظف جمرك القنطرة شرق ، على حافة القناة . أصر على ضرورة فتح العلب الورقية كلها . كنت أحشر بين الفناجين قمصان نوم من النايلون ، حتى لا تنكسر من الشيل والحط. ظنني أهربها . حاول المشرف على الرحلة أن يقنعه بحسن النية، زنجر طالباً تصريح سلاح الحدود بالمرور في سيناء . خشى المشرف أن يطلع فيه القطط الفاطسة، فسكت . نزع الموظف القمصان فى لا مبالاة وأخرج محتويات باقي العلب . أعدتها كيفما اتفق . ورصتها زميلة فوق ذراعي . سرت منحنية عليها بصدري . وضعت قدمى على السلمة الحجرية ، للنزول إلى المعدية . وعدوك.. لا أدري ماذا جري.. تراقصت العلب . طرحة أمى فردها الهواء، وقميص نايلون حريمي، شبك فى أبزيم حذائى. وصوت دشدشة. آذان فناجين منثورة، وأطباق شرشرت حوافها. وكَسْر به روميو، وآخر به جولييت .

هبت نسمات ملطفة لحرارة الجو ، معبقة بشذا الأشجار . لاشك أن عمرو بن العاص توقف هنا لا عند طرف العريش الغربي ، ليقرأ خطاب الخليفة عمر بن الخطاب ، إذا لم يكن دخل مِصر أن يعود أدراجه .. هل كان يقصد مِصراً ، أم وادي النيل .. ؟! .. على أيه حال كان عمرو على عكس السيناويين ، لم يعتبر الوادي بعيداً، بل على مدي فركة حافر خيل، واعتبر نفسه قد دخله ، أم تراه ، أسرع ، حتى يجب الزمان والمكان ، وتصبح رسالة ابن الخطاب غير ذات موضوع ، لا شك أن موقع «الفرما» كان هنا .. أو بالقرب من هنا .. وأن هذه الخضرة ، أغرت بدويًا مثله ،

ليعسكر بجيشه ، ويأخذ أهبته للوثوب على وادي النيل ، ومواجهة الحامية الرومانية.

سأل حمدي صاحب المقهي ، وهو يحاسبه :

- ألا توجد عربة أجرة من هنا إلى بورسعيد .

- تذهب إلى القنطرة .

سرح حمدي ببصره ، المعيز تبحث فى دأب عن كلأ ، وكبش فى جانب، أضخم منها حجماً ، يحرك رأسه ذات القرنين الملتويين إلى الخلف .

وصل الباص محملا بالأسرى إلى بئر سبع . توافد الأهالي فى هرج ومرج ، يحملون الترامس وشطائر وكعكاً للجنود ، ويحملون إلينا البصقات ، تكاد تخترق زجاج العربة . وحين أنزلونا ضرطوا فى وجوهنا بأفواههم ، ورطنوا بالعبرية ، وقد كشروا عن أسنانهم . مر بنا شخص يحمل دلواً من الماء ، أشار إليه الحارس وقال :

- عربي

طالعتني منه بشرة بيضاء ، شمعية . قال الحارس :

- أخبرهم .. كيف تعيشون معنا .

نظر إلينا الفلسطيني مليًّا . سحب نظره ببطء ، ومضي .

وعند تبة بالقرب منا ، أطل وعل . صخب الجنود الإسرائيليون ، وأسرعوا فى أثره ، وهم يطلقون الرصاص .

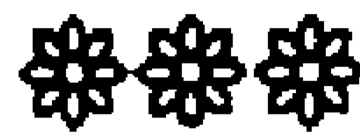
ظهرت رأس وعل . أعجبني لونه البني المائل إلى المشمشي ، لا يكاد يبين من لون الجبل فى غرب أسوان ، وقد التف قرناه للخلف ، وخيل إليَّ أن طول الواحد منهما يزيد على المتر . زيطنا وقد ظهرت وعول

أخرى، الواحد منها فى حجم العجل الذي شب عن الطوق ، أذناه أقصر من أذني الحمار، ذيله قصير جداً ، وأرجله أبيض على أسود . وجارانا فى الزيطة والجرى بعض تلاميذ رحلة الثانوية العامة إلى الأقصر وأسوان من المدارس الأخرى، الذين تصادف وجودهم معنا . وكنا حين نظن أننا اقتربنا من إحداها خلف نتوء نجدها قد أطلت من خلف نتوء آخر . تقطعت منا الأنفاس ، وقال أحد الطلبة .

- دوخ الإنجليز وضيوفهم .

التفت إليه . بشرة سمراء لامعة ، وعود سمهري . عاود الحديث :

- تنظف الجبال من الحشرات ولا تسمح لغريب بارتيادها ، طاردوها بالبنادق ، ففرت إلى تلال وجبال المعادي وبعضها إلى سيناء . لم تسلم من رصاص حاميتهم فيها ، فذهبت إلى سدوم بفلسطين .



35

وجده منهمكًا فى ملاحظة العمال والعاملات ، وقد لاحت شجيرات الخوخ فى الأغوار ، والأراضى المنبسطة ، وأصبح لها منظر .

اقترب سعد منه ، فلم يزد حمدي عن إشعاره، بإحساسه بوجوده. قال سعد :

- تمام .

صعدا إلى العربة . تمتم سعد :

- الله ينور .

طافت عيونهما بالشجيرات . أدار سعد العربة ، وبينما ينطلق ، قال :

- أُدع لمن تركك تزرع وتقلع على حافة القناة .

كانت الطائرات الإسرائيلية تطلع للتصوير أولاً . ثم تأتى للقصف بعد ذلك . الدبابات تتخندق ، ويخفون أية ظلال . يعرفون من ظل المركبة نوعها وتسليحها، يضعون شجيرات وفروعًا من أغصان الشجر فى جوانبها، كى ينبعج ظلها ، ولا يظهر نوعها من الصور الملتقطة ، حتى عربة التعيين ، كانوا يخفون آثار عجلاتها على الرمال ، وعينوا مناوبًا لمراقبة ذلك . وكانوا يعرفون أنهم أجادوا التمويه ، عندما تقصف الطائرات بعيدا، ولا تغير عليهم .

نزل حمدي عند المحافظة ، لتخليص بعض الأوراق ، وأخبره، سعد أنه سينتظره، فى مقهاه . وذهب إلى الحارة الرملية ، بالقرب من شارع الشاطئ .

أسلم نفسه لظهر كرسى من الجريد . تخللت ظهره راحة ، ووَدَّ لو يتمطى، ويفرد ساقيه ، وقد خايلته غير بعيد ، سعف نخلة ، استسلمت مطاوعة ريحًا هينة .

وغير بعيد من المقهي ، كانت نخلة ، حركت سعفها ، ريح جافة ، من جوف الصحراء ، وأم ميلاد ، وقد أصبحت لها عربة يد خشبية ، وضعت عليها سباطات من البلح الأحمر . ومع ذلك لم يسلم القس من لسانها . تتلفت حولها ، مشيرة إلى المحال فى السوق .

- ألست مثل هؤلاء .

- احمدي الله .. بعد الفجل والجرجير .. بلح وفاكهة .

- حمداه قبل أن أراكم .

فينطلقون جميعا فى الضحك ، مفوتين عليها الاسترسال فى الحديث، حتى لا ينالهم رذاذها . حكي له أصدقاؤه ما فاته من صباح السابع من أكتوبر على أرض سيناء. فوجئوا بامرأة تطلب مقابلة القائد . فوق رأسها مشنة ، أطلت من حوافها ، شقق طرية من العيش الساخن ، وفى قمة المشنة سباطات من البلح الأحمر .

أخذ ضابط السرية بعض الجنود ، تكئةً ، للقاء العميد جورج ، الذى كان معروفًا عنه عدم لوم الضباط فى حضرة الجنود .

حين رآهم ، تجهم وجهه ، وأمسك نفسه بصعوبة ، وهو يقول :

- هذا وقته يا حضرة الضابط

وكانت تُسمع على البعد أصوات انطلاق الدانات ، ودفقات متقطعة من رصاص الرشاشات .

مال عليه رئيس العمليات ، بابتسامة هادئة ، وقال بصوت خفيض :
- حضرت المرأة وانتهى الأمر .. لا تكسفها سعادتك .
قال العميد من بين أسنانه :
- شكرًا يا ماما .
ولكن هذه تسمرت ، رافضة إنزال حملها . تطلع العميد جورج حوله، فأسعفه رئيس العمليات بإيماءة من رأسه إلى المشنة .
تقدم العميد جورج فى نفاد صبر ، وأخذ فرعاً من البلح . عندئذ أنزلت المرأة المشنة وأطلقت زغرودة . فلم يملك العميد جورج نفسه من الضحك ، وانتهز الموجودون الفرصة ، فقال قائد السرية :
- سعادتك لم تر الفلاحين .. رجالاً ونساءً يحملون «الصباحية» صَواني، عليها قُرَص وفطير مشلتت ولوازمه من الجبن والقشدة والعسل الأبيض ، والشاي باللبن. ويمشون فوق المعابر .
لوح العميد بيده إلى السماء، بما يعني : وغارات الطائرات ..
قال رئيس العمليات :
- ولا فى دماغهم ..
تناول العميد جورج ، بلحة وضعها فى فمه ، ليزيل الحرج عن الحضور، فمدوا أيديهم وأمر بتوزيع ما أحضرته الفلاحة على الجنود .
قال رئيس العمليات :
- أراهن أنها لا تملك سوى نخلتين ، أحضرت لنا بلحهما .
تطلع سعد فى ساعته . تأخر الباشمهندس . فكر أن ينصرف ، لتدبير الغداء .. تريث قليلا .. الرجل سيجمع أقساط الجمعية . وربما تأخر فى انتظار أحدهم ، ليأخذ قسطه . هل أستطيع أن أطلب منه أن يتم جميله ويقرضنى باقي ثمن حجرة النوم ، لا .. يكفي تنازله لي عن دوره.

ماذا سيكون حاله ، لو جا، ولم يجدني .. يا للنذالة .

الضابط الذي تخلف ، اصطادوه حين عودته ، ليضرب كمدفعي ، على باب أحد الحصون ، مع المدفعية . كانوا يضحكون عليه ساعة الهجوم . واقف فى فتحة برج الدبابة رِجل فى الخارج ورجل فى الداخل .

- يا أفندم انزل .. أنت هكذا معرض للخطر أكثر .

وفى عصبية قال سعد ، وكان الضابط قد تسلم منه قيادة الدبابة :

- أنت الآن تعرضنا لأية شظية قد تسقط من الفتحة .

جلس القرفصاء على مقعده ، مستعداً للقفز في أية لحظة . حاول سعد تعديل وضعه دون فائدة . ركبتاه تخبطان فى ظهره. أطلق قذيفة ، أسكتت المدفع الذي كان يطلق عليهم من تبة الإنجليزي. في ارتداد المدفع ، لبس مسمار مثبت شَدَّواقى المدفع فى إحدى ركبتي الضابط. نزل سائل أبيض ، أعقبه دم . أخرج سعد رباط الميدان وربط له ركبته ، فهو يملكها جواره . وطلب منه أن يغادر الدبابة ، ليبحث عن عربة تقله إلى الخلف للعلاج . فجأة، تغير وجهه ، وقال أنه سيحارب معهم حتى النهاية. في المساء ازداد عليه الألم ، وعجز عن تحريك ساقه تماما ، وأخذ يصرخ ، اضطروا لحمله ، وإرساله إلى المؤخرة .

فى صباح اليوم التالى عرض قائد الفصيلة أن يحتلوا تبة بالقرب منهم ، تدعم موقفهم عند الهجوم على تبة الإنجليزي . اعترض سعد :

- الآن الشمس فى عيوننا .. يروننا جيداً ونحن لا نراهم .

وافق على الانتظار حتى المساء ، على أن يكون الهجوم بثلاث دبابات فقط . قال أحد الزملاء :

- أفاد الاستطلاع بوجود خمس دبابات على التبة .. لازم الهجوم يكون متفوقاً.. على الأقل 3 - 1 .

قاموا بهجمة ، لم تنجح ، فانسحبوا استعدادًا لهجمة أخرى ، وزاد القائد عدد الدبابات المهاجمة .

كانت تبة الإنجليزي صعبة . وتستطيع أن تري منها الاسماعيلية على مسافة خمسة وعشرين كيلو مترًا تقريبًا ، كما تري منها الفردان والقنطرة غرب . وصعوبة التبة ، ليست فى ارتفاعها فقط ، ولكن لأن تبة أخري اسمها تبة العسكري تحميها، والقوات المصرية فى باطن التبة الأولي ، ولم تصل إلى الثانية بعد .

هجم لواء مدرع ، ولم يتمكن من احتلالها . تقرر الهجوم بالمشاة، على أن تساندهم كتيبة مدرعة . حين أخبرهم قائد الكتيبة بالمهمة ، رجفت قلوبهم ، فالتبة حاكمة، ، لن يتخلى عنها الإسرائيليون بسهولة . سبق أن احتلوها ليلاً واستردها الإسرائيليون بسهولة ، بعد أن قصفوها من تبة العسكري ، ومن قواتهم الاحتياطية فى الخلف .

قامت الطائرات المصرية بعدة طلعات . ومهدت المدفعية ، قبل أن تتقدم كتيبة سعد المدرعة ، مساندةً للمشاة . أخذت المدرعات ميمنة قوات المشاة المهاجمة. اشتعلت الدبابات حمية ، ولم تصمت مصادر نيران العدو . تسلقت الدبابات المصرية جانباً من التبة . استرعى انتباه سعد وجود دخان أبيض داخل دبابته خلافاً للدخان الأسود المتخلف عن إطلاق القذائف .

- يا جماعة كل واحد يفتش مكانه .

- لا شيء

- افتحوا فتحة الذخيرة للتهوية .

دخل هواء جديد ، أطل سعد خارج الدبابة ، وصرخ :

- الدبابة مشتعلة .

التفت للملازم أول الذي خلف الضابط المصاب .

- يا أفندم افتح البرج واقفز .

- لا .. لابد من التقدم .

- الدبابة ستنفجر .

- تقدم وأطلق .

وضع المعمر دانة ، وأمسك بيديَّ البرسكوب يراقب اليمين والأمام ، وأطلق الرامي ، فأخذ يراقب اليسار والأمام ولم يشعر سعد إلا بنفسه يدفع الملازم إلى الخارج ، ويقفز ، ووراءه باقي الطقم .

انبطحوا بعد عدة أمتار ، وسرعان ما انفجرت الدبابة . تطلع سعد إلى وجوههم، وقد عمق إحساسه بالأسى . فهذه الدبابة حاربت معه أسبوعاً، ولم تخذله أبداً . قرروا العودة إلى وادي النخيل انتظاراً لدبابة أخرى. لكنهم وقعوا فى مطب ، فقد نسوا الطريق التى شقها المهندسون وسط الألغام قبل بدء الهجوم . حاولوا الاهتداء بآثار جنزير دبابة . وجدوه مطبوعاً فى مكان ، ومطموساً فى آخر.

كانت مدفعية العدو تطلق على الموقع ، فاهتدوا إلى فكرة . كلما قصفت المدفعية مكانا تقدموا إليه . وهكذا ظلوا ينتقلون من مكان إلى آخر ، تلاحقهم القذائف ، فإذا سمعوا تكة مكتومة «بم»، انبطحوا فوراً . وإذا سمعوا صوتًا يشبه الصفير ، أيقنوا أن المقذوف تخطاهم ، وسيسقط

بعيداً عنهم ، فيواصلون السير ، حتى وصلوا إلى المؤخرة . فى المساء علموا أن قواتنا احتلت التبة ، ولما لم يكن هناك استعواض ، فقد ظلوا حتى آخر الحرب دون دبابة.

وانتهزوا الفرصة لزيارة قائد دبابتهم السابق الذي أصيب فى ركبته ، في المستشفي بالزقازيق . ما أن رآهم ، حتى هب فى سعد :

- شفتني ميتاً ، حتى تتشهد عليَّ .

وقال سعد فى نفسه : يا خبر .. رغم أنك حقنت بالأتروبين ، كنت واعيًا .

وتابع الملازم أول :

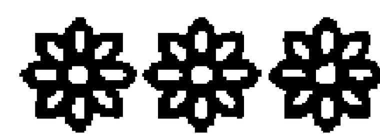
- الحمد لله .. أن جاءت هكذا .

كانت ساقه ، وجزء من فخذه قد بترا ، لتغلغل الغرغرينا .

- الحمد لله أنني ما زلت أعيش .

وأشار إلى ابنتيه :

- أمل وصفاء .



36

- أين الخطر .. ؟!
قال صفوت :
- ليبيا .
- ملمحًا للتوتر على الحدود المصرية الليبية . عاجله ضابط التوجيه المعنوي :
- حمار
جلس صفوت منكسرًا ، واستمر الضابط :
- الشرق .. الغزاة دائما يأتون من الشرق .

وقال صفوت في نفسه : مازلت حمارًا ، كيف وافقت على لقاء عبد السلام فاروق، أحرجت نفسي وأحرجته ، فليس عندي ما أقوله عن صفية. وكيف كان يستطيع رده حين جاءه صوته فى التليفون : ليس كما تتوقع، عندي موضوع مهم.

أعطاه عصًا ، كانت بحوزة اللواء جورج وقال :
- تخص العقيد مصطفى عبد الله .
- من مصطفى عبد الله ..
- مصطفى عبد الله .. !!
- آه .. رئيس العمليات .. يرحمه الله .

انتشرت عادة حمل العصا بين كبار الضباط ، فيما يبدو ، تشبهًا باللواء محمد نجيب ، الذي تصدر حركة «الضباط الأحرار» ، بوجهه البشوش ، وشخصيته الودودة التى أكسبته شعبية هائلة.

أمسك صفوت العصا . تأملها وقال ساخرًا :

- ماذا يسمونها .. ؟!

- عصا المارشالية .

أومأ عبد السلام برأسه إلى قمة العصا .

تملي صفوت من الرسم ، واستمر فى سخريته :

- وماذا يعني ..

- عين حورس يا جاهل ..

تطلع صفوت إلى الرسم وقال :

- عين امرأة من حي المناخ ، لطختها بالكحل

انفجر عبد السلام ضاحكاً ، وقال :

- على أية حال .. الكحل اختراع فرعوني .

- وما شأني بالعصا؟

- وجدها اللواء جورج في عربة القيادة بعد وقف إطلاق النار ، وطلب مني توصيلها لأبنائه ، فوعدته ، ولأني أعرف أن لك أصدقاءً فى منيا القمح .

آه .. دُبست ولا مفر .

وهو يغادر سأله عبد السلام عن مسعاه فى العمل مع أحد المقاولين، كما سمع.

- سافر إلى الكويت .

جاء مندوب من الإدارة المالية ، ومعه حقيبة بها ستة وعشرون ألف جنيه ، مرتب شهر للجنود ، تبرعت به الكويت .

كان الجنود قد شدوا أغراضهم فوق ظهورهم ، وعقولهم مشغولة ، بما هم مقبلون عليه ، والمندوب يريد توقيعهم على استمارات الصرف .

أخذه صفوت إلى قائد الوحدة . كانت أمامه بعض الخرائط . أصدر بعض الأوامر ، ولوح بإحدى يديه لصفوت قائلا :

- تصرف .

أخذ صفوت الاستمارات ، واختلى فى موقعه مع بعض الجنود ، ووقعوها . ابتسم المندوب ، أخذها وناولهم النقود . ذهب صفوت إلى القائد ، طالبًا مهلة لتوزيعها . رد فى عصبية :

- أيعلم أحدكم .. هل سيعود أم لا .. ؟!

- يا أفندم .

أخذ الحقيبة ، وأطاح بها فوق الرمال .

بعد العمليات ، التقي صفوت القائد ، صدفة . قال الأخير :

- تعرف يا ولد . . ليتنا احتفظنا بالنقود .

فتح صفوت التليفزيون ، لشاهد مباراة بين مصر والجزائر ، مريحا نفسه من التفكير في العمل وخلافه . ودعا الله ألا يركب العصبى لاعبينا ، لا لشيء، سوى أن الجزائريين فازوا من قبل مرة أو مرتين .

أعلن المذيع عن أسماء اللاعبين . وأذن الحكم ببدء المباراة .. كرة ضالة عند خط الـ 18 .. ولم تجد من يتابعها .

بالقرب من الكيلو 101 على طريق السويس ، كانت تعسكر وحدة جزائرية، وجوارها وحدات رمزية أخري ، سودانية ومغربية ، وغير بعيد نقطة حراسة إسرائيلية.

كانت الطائرات الإسرائيلية قد قصفت السويس عدة أيام متتالية. وألقوا منشورات تدعو الأهالي للتسليم . وانسحب شارون بفرقته المدرعة من أمام الإسماعيلية ، وانضم إلى فرقتين مدرعتين أخريين ، نجحتا في التسلل إلى الغرب وشرعوا في اقتحام المدينة . انبطح الأهالي بجوار رصيفي الشارع ، في مدخل حى الأربعين، وبالقنابل اليدوية أعطبوا

جنازير الدبابات ، وجنود الجيش الثالث ، استخدموا الـ ر - ب -جـ ، ودمروا جميعًا ، للإسرائيليين أربعين دبابة .

ومن خرج حيا اصطاده الأهالي ببنادقهم من الشرفات والنوافذ . وجرت قوة منهم، واحتمت بقسم شرطة الأربعين . حاصرها الأهالي، والتقط أحد رجال التليفونات إشارة يستنجدون فيها بقائد الجبهة الجنوبية جنرال جرنين .

وهرب من بقي حيًا من قسم الأربعين ، حين حط الظلام، ولم تعاود الدبابات الهجوم ثانية على السويس ، وقد تداخلت خطوطهم مع خطوطنا، حين نفذ قرار وقف إطلاق النار .

وكانت تمر من أمامهم ، قافلة المؤن ، خضراوات ، ووقود للسيارات، وأغراض طبية ، إلى الجيش الثالث في سيناء . ودائما تحدث مشادة بين جنودنا ، وبينهم . . وبعد أن يتبادلوا الشتائم فى حراسة القوات العربية ، تمر القافلة ، ويفاجأ قائد المنطقة بالجزائريين يطلقون النار على الإسرائيليين . يرسل مندوبًا ليكفوا عن الإطلاق ، فقد مرت القافلة وانتهي الأمر . يعدونه بذلك ، وما أن يغادرهم ، حتى يعودوا إلى إطلاق النار .

كاد أن يفعلها قلب الهجوم المصري ، ويسجل هدفاً مبكرًا .

ضحك صفوت من نفسه ، وقد ضبط جسده ، قائمًا نصف قومة ، يتابع الهجمة. وضحك أكثر حين تذكر مباراة سابقة ، شاهدها معه حمدي أبو زيد . كانت مع تونس، يومها سجل التوانسة هدفًا مبكرًا ، وناموا عليه ، الوقوع أرضًا ، وادعاء الإصابة لإضاعة الوقت ، حتى شاطت أعصاب المصريين وعجزوا عن التعويض .

بعد المباراة انفجر حمدي ضاحكا ، بينما كان صفوت يغلي . قال حمدي :

- أفتي زميل لنا .. بما أننا دولة متخلفة ، وذوقيًا نقول نامية ، وكل شيء

متخلف.. زراعة وصناعة وتعليم ومواصلات، فلماذا تشذ كرة القدم..؟! اقتنعت بهذا المنطق زمنًا .. وبدا كأنه تحليل ماركسي لا يخر الماء .

ردد صفوت فى نفسه : الرجل رغم غلاسته ، لا يخلو من ظرف . قال:

- لا ماركسي ولا يحزنون .. فقط أحد عشر ولدًا يجيدون الرمح زمن المباراة ، مع صقل مهارات اللعب .

تلقف حمدي الخيط :

- لفت نظري أن تونس دولة صغيرة .. واقتصادها على قدها وتفوز علينا .. والبرازيل من أفقر الدول ، وكثيرا ما فازت بكأس العالم ، متخطية الدول الغنية ، والمتقدمة في التقنية .

وانفجر ضاحكًا .. تجاوب معه صفوت .. وقد بدأ يخفف من غلوائه عليه فى داخله ، وردد فى خاطره .. يبدو أن عنده ، نفس عرق الظرف الذي عند حمدية.

رجته مرة ، أن يعبر بها من السويس إلى بور توفيق فى سيناء . فوجئت بالوحشة تلف العمارات . أغلبها من طراز واحد كالعمارات الشعبية وقد شوهت طلقات الرصاص واجهاتها ، وأحدثت الدانات ثقوبًا فى الحيطان والشرفات . والريح تعبث محملة بالغبار فى الشوارع . نظرت إليه ، كأنما معتذرة . لف ذراعه الأيمن حول خصرها، وقادها ، برفق إلى مدخل إحدي العمارات .. تطلع إلى عينيها . اختفت يماماتها الوديعة ، المنطلقة إلى المرح . حك أنفه بأنفها ، وأراح خده الأيمن على خدها الأيسر ، وحكه ببطء . مستمرئا نعومة مثل نعومة حبة الجميز . استكانت إليه واستكان إليها ، وشملها

بود . قطرات خفيفة من العرق فوق شفتها العليا . مزازة البرتقال الشموتى بين شفتيها . استنشق عبير جسدها بعمق ، حانت منه نظرة خاطفة إلى عينيها . يمامة منكسرة تحرك رقبتها وعينيها فى ترقب.

سارا صامتين وقد أحس بمنقار العصفور ، ينقر فى صدره . استغيبته .. لكزته بذراعها جهته .. توه فى الكلام ، وقال :

- أليس غريبا تسمية هذه المدينة باسم الخديو الذي خان مصر .

وكأنما استردت لياقتها فى الشقاوة فجأة ، قالت :

- لو أسموها بور عرابي لاحتلها الإسرائيليون ، وما تركوها أبدا ..

علت ضحكته ، وجذبها نحوه فى مودة .

الجزائريون يهاجمون . يريدون خطف هدف ، ليتلفوا أعصاب المصريين . وهؤلاء أقاموا خط دفاع قوي . هل سيصمد طويلاً .. وهل ستقع أخطاء يستغلها المهاجمون . أخذ المذيع يردد :

«صرح المدرب قبل المباراة ، أننا لسنا فى عصر الكرة الذهبي ، أيام الخطيب وحسن شحاته» .

قال له الصحفي الذي يحاوره ، أي مدرب يتمني أن يكون عنده أساطين اللعبة مثل، بيليه وبوشكاش ودي ستيفانو ، ليفوز . البراعة أن تفوز بما لديك .

استمع الرئيس السادت لطلب اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني، من الأسلحة والمعدات الحديثة . ولكن .. من أين .. الغرب لن يعطينا، والروس لا يلبون كل طلباتنا. قال الرئيس حسمًا للأمر : معك قوات ومعدات تفوق ما كان مع مونتجمري فى صحرائنا الغربية فى الحرب العالمية الثانية .

ثغرة فى الدفاع المصري ، مهاجم جزائري ، أطلق قذيفة أرض جو .. الحمد لله.. مرت فوق العارضة .

أخبرته صفية ، أنهم عاشوا ساعات لا يعلم بها إلا المولي . سمعوا أصوات قذائف ، وانتشرت الأنباء فى الإسماعيلية ، أن شارون على رأس فرقة مدرعة ، يطرق أبوابها.

ابتسم صفوت ، وهو يستمع لها . كان الجيشان المصريان الثاني والثالث ، قد دمرا خط بارليف ، وكشحا الإسرائيليين إلى الخلف ، واستوليا على منطقة بطول القناة ، عرضها من عشرة إلى خمسة عشر كيلو مترًا ، حين تفتقت حيلة الإسرائيليين عن دفع بعض قواتهم إلى الغرب .

كانا ، يتغديان ، وقد قليت صفية سمك الدنيس ، المفضل لديه ، وأعدت جواره الأرز الأحمر الذي يعشقه . نفد أرزه ، فمد ملعقته إلى طبقها . جذبت الطبق ناحيتها، مهددةً ظهر يده ، بشوكة ظهر سمكة التهمتها . لكنه لم يتراجع ، وغرف بملعقته من طبقها .

واستمرت صفية : تصور .. ضابط مدفعية مضادة للطائرات ، حول مدفعيته وأخذ يقصف الدبابات الإسرائيلية ، وأسرع الناس وفتحوا المياه فى منطقة الجناين ، ووجد شارون دباباته فى مخاضة موحلة ، فأسرع هاربًا بقواته .

أراهم المخرج أفراداً يسخنون خلف مرمانا ، والمذيع يعلق :

«هل سيبدل مهاجمًا بمهاجم ، أم سيدعم الدفاع .. أرى أن يدعم الهجوم .. فإذا لم نكسب على أرضنا .. فأين نكسب» .

خيب المدرب توقعه ، واستعد لتدعيم الدفاع .. وبعد أن وقف اللاعب على خط التماس استعداداً للنزول ، غير المدرب رأيه .. وأجل التبديل .. هجمة جزائرية .. والمذيع فى ضراعة :

«استر يا رب» .

مرت الكرة بجوار القائم الأيسر . تنهد المنيع وقال :

«الحمد لله» .

وقع أحد اللاعبين الجزائريين على الأرض . استدعى الحكم رجال

الإسعاف. انتهز اللاعبون الفرصة ، وتلقفوا بعض زجاجات المياه .. هذا يشرب ويناولها لزميل.. وآخر يدلق الماء على رأسه ووجهه .

قال المساعد :

- نتوضأ ونصلى

- يا أفندم الماء لن يكفي الشرب .

- واجب ربنا أولاً .

توضأوا جميعًا ، وحين شرعوا فى الصلاة ، صفرت دانة . نظر المساعد إلى أعلى وصاح :

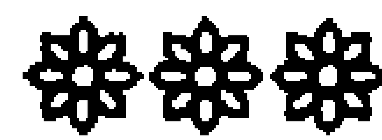
- الحفر

أسرعوا ، وهم يتمألسون عليه .

أغلق صفوت التليفزيون ، بعصبية ، وفي كل مرة تلاعب فيها مصر دولة من الشمال الإفريقي ، يقرر عدم رؤية المباراة حتى لا تتلف أعصابه، ولكنه يفعل .

ولم يكد ينهض ، حتى سمع ما يشبه «هيه» فى الفضاء ، فأسرع وفتح التليفزيون:

- مصر سجلت هدفاً .



37

لحظ سعد أن ندا تخطت جامع العباسي ، ولم تعرج ناحية قلعة سليمان ، كما طلب منها . كانت لاوية بوزها طوال النهار ، فخمن أن فى الأمر شيئًا .

اقترب منها ، فأسرعت فى مشيتها فى الشارع المسفلت بحذاء الشاطئ.. حاول اللحاق بها ، قبل أن تقترب من منطقة الفنادق ، حيث سترفض الحديث خشية أن يراهما أحد .

كلما اقترب أسرعت أكثر . عليه بالصبر ، حتى تتخطي الفنادق . حانت منها لفتة، فراعه احمرار وجهها .

فى الضحى ، وبينما كانوا سعداءً بدفء شتاء هذا العام، إذا بالباشمهندس حمدي، يخشي ، أن يخدع الدفء النبات ، فيزهر قبل الأوان .

اجتازت منطقة الفنادق ، وبدأت الأرجل تقل ، ولسعة برد خفيفة . لو زاد البرد ، ربما ذبلت الأزهار ، وتلفت البراعم .

ذاب الشارع وسط الرمال الشاسعة ، حيث نمت بعض الأعشاب على الروابي والمنحدرات ، وحدت الطريق ، ناحية البحر ، أشجار نخيل قصيرة ، وقد ظهرت واحدة طويلة ، وسط كل مجموعة كأنها ترعاها .

- على مهلك .. قلبي وقع .

- لا كلام لك معي .

- ماذا حدث .. ؟!

-ما تقرب مني أربعين مربعاً ، ولو قربت عليك أربعة مربعات .

وقف سعد حائرا ، لا يدري ماذا اقترف ، بينما استمرت ندا :

- في الصحراء ، ممنوع الاقتراب مني لأكثر من أربعين خطوة .

ضحك سعد .. وقال :

- لسنا فى جوف الصحراء

أشارت ندا لما حولهما من رمال ، امتدت على مرمي الأفق ، وإلى يمينها ، كان الزبد ينداح عن الأمواج الفاروزية ، ويرغي على حواف الشاطئ .

حاول إمساك إحدي يديها ، فهددته :

- خطوة واحدة ، وأشكو لشيخ القبيلة ، تغرم عشرين ألف جنيه .

- شغلي طوال عمري ، وطوال أعمار أولادي من بعدي .

أشاحت بوجهها عنه . قال :

- لكننا فى المدينة ، ولسنا فى الصحراء.

- من سيصدقك.

لمس فى لهجتها شيئًا من الدلال ، فأدرك أنها على وشك أن تلين . قال:

- فى الصحراء .. أليس مسموحاً بالاقتراب من أجل شربة ماء ؟!

- ليس معنا ماء .

- للسؤال عن الطريق .

- لا نقتفي الأثر .

- لم يبق إلا إبداء الرغبة فى الزواج .

جاء صوتها موشي الحواف بغنة مستترة :

- كسبت يا خائن ..!!

- .....

- منذ وصلت شقيقة الباشمهندس ، وأنت لازق هناك. أوصلني يا سعد ، فسحني ياسعد ، وآخرتها معها إلى الموقف لتركبها بنفسك .

ضحك سعد ، مقتربًا منها . أمسك يديها ، وقال :

- تغارين .. ؟!

لوت شفتيها ، وحولت عينيها .

- الباشمهندس يعتبرني كأخ أصغر ، وهذه ضيفة .

ارتخت يداها في يديه ، فترك إحداهما ، وطوق خصرها .

- نحن على الطريق .

دفعها برفق ناحية النخيل ، وقد استشعر ليونة جسدها ، وحرارته .

- احذر .. الغرامة .

- عرج بها ناحية البحر .

- الغرامة تكبر .

التصق بها أكثر ، وجاسا في الشاطئ ، وهو يضمها قائلاً :

- عليه العوض لي ولذريتي من بعدي .

ضحكت ، فلم يملك نفسه ، وقد تدفق الوجد من نظراتها ، ومن انفراجة شفتيها. قبلها بسرعة ، فأدارت وجهها. انطبعت القبلة على أحد خديها . أحس بحرارته ، فعاود المحاولة ، لكنه أحس بنفور جسدها ، فانبثقت في ذهنه خشية الباشمهندس حمدي : أن التزهير قبل الأوان قد

يعني الذبول السريع .

أخذ راحة يسراها فى يمناه ، ووضعها على صدره ، وقد تلامس جنباهما المتجاوران . نظرت إليه بمحبة . اقترب برأسه من وجهها وهو يمد شفتيه ، تراجعت برأسها فى خفة .

- أردت أن أثبت لك .

وضعت سبابة يدها الأخري على شفتيه ، وهمست :

- لا تثبت شيئًا .

كان سعد جريحا فوق الرمال ، وقد نال منه العطش . تقدم منه الملازم مجدي الشبة . أعطاه جرعة ماء بقيت في زمزميته ، وربط له ذراعه المجروحة . وذهب ليملأ زمزميته قبل الرحيل ، فأخبروه أن المياه معطلة لبعض الوقت .

كانت وحدة خاصة ، تمد أنابيب المياه ، خلف القوات كلما تقدمت ، مجلوبة من الضفة الأخري ، على طوف فوق مياه القناة . وخلف القوات ينشئون حنفيات ، وكان الجنود يسمون الحنفيه الغراب . ذهب الملازم إلى الغرب ، ليسأل عن سبب تعطيل المياه . فى الضفة الغربية لمحه القائد السابق لعمليات الفرقة ، وكان يعرفه .

- شبة .. ماذا تعمل هنا .. ؟!

- المياه تأخرت

- العساكر عطشت.. ؟!

ورفع يمناه ، وضربه قلمين .

- على وحدتك فورا يا ابن الكلب .

- يا أفندم .

- يا جبان .. يا ابن الكلب .

رجع مهمومًا وحكي لهم عما حدث ، ولم تمض ساعات حتى كانت وحدتهم تستعد للهجوم . انهالت قذائف مدافع الإسرائيليين .

نزلوا إلى الحفر حتى تنتهي القصفة . فجأة ، خرج مجدي الشبة من حفرته ، وصاح :

- الله أكبر .

وتقدم إلى التبة المطلوب الاستيلاء عليها ، وسقط قتيلاً .

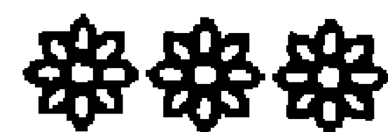
بعد انتهاء القصفة ، تقدموا واستولوا على التبة . وقتلوا بعض الإسرائيليين ، وفر آخرون ، وأسروا ثلاثة . وأخذت الحمية الجنود فتقدموا حتى مدي اثنين وعشرين كيلو متراً ، ولاحقتهم الطائرات الإسرائيلية ، فاضطروا للعودة إلى التبة القائدة ، ومع أن مدي صواريخنا المضادة للطائرات اثنان وعشرون كيلو مترًا ، إلا أنها عندما تنطلق مائلة، يصبح مداها المؤثر ستة عشر كيلو مترا . وفي هذا المدي ، لا تستطيع طائرات إسرائيل التحليق .

عندما أحسوا بإمكان التقاط الأنفاس . أخذوا أوراق الملازم الشبة ، ومتعلقاته الشخصية لإرسالها إلى أبيه . حكي مجدي الشبة عنه أنه كان عامل ترحيل ، امتلك قطعة أرض فى مديرية التحرير . وكان حلمه أن يري ابنه ضابطًا مثل الضابط مجدي حسنين، الذي أنشأ مديرية التحرير فى قلب الصحرا، الممتدة من القاهرة حتى الإسكندرية ، وخضرها بالزرع. وقد نشأ مجدي مع بنت عمه إجلال . وتعاهد الأهل على زواجهما. وحين

كبرا أحب كل منهما الآخر . وتحقق حلم الأب فى ابنه ، بينما تخرجت إجلال من مدرسة المعلمات ، وعملت فى مدرسة ابتدائية .

استخسر الأب ابنه الضابط فيها . وكان الأب يطلب من ابنه أن يرتدي بدلة الفسحة ، حين يحضر في إجازة ، ويضع عصًا تحت إبطه كما يفعل كبار الضباط ، وينتظره على محطة إيتاي البارود ، ويحمل عنه شنطته ، وأراهم مجدي خطاب أبيه، الذي طلب منه فيه ذلك ، دون خجل ، وقد قربت بينهم الأيام على الجبهة . فأحبوه لصراحته ، وروحه المرحة ، التى جبت عدم وسامته . كان جلده أسمر غطيسًا ، بوجهه آثار بثور حب الشباب ، وشعره مجعد ، والشيء الوحيد الذي خالف أباه فيه ، عدم قطعه صلته بإجلال، واستمر فى حبه لها .

اقترح أحدهم إرسال أوراقه إلى خطيبته إجلال .. تبادلوا النظرات . . علت الابتسامة وجوههم .



38

هل يرون ما يراه . قابلوه بترحاب ، والبشاشة تغمر وجوههم . في قرار نفسه يعتقد أنهم لم يدركوا حقيقة ما رأي . اشتد عود الشتلات ، ومدت في الأرض . هواء البحر، وريحِ الصحراء ، رخاء بالنسبة لها . تتمايل بثقة ومرح . وتستوي حينًا ، شاخصةً إلى سماء لبنية صافية .

دقق في جنين الزهر . خيل إليه أنه رأي جنين التبرعم ، أو هامته . لا يستطيع أن يلمس ، ويتحقق . رأي في التبرعم الدقيق جدًا جدًا ، الثمر القادم. الاستدارة الناعمة، في أحجام مختلفة . الغور الصغير المستدير في قمة الثمرة ، أملس ، مائل إلى البياض . لون الثمرة الأحمر القاني، مائل إلى الأبيض الخمري ، وإلى أصفر الليمون البنزهير المشبع بالاخضرار ، وإلى أحمر القطيفة الفاتح والداكن ، والزغب الخفيف ، الدقيق ، كزغب الشفة العليا لعذراء شقراء . يستشعر ملمس النواة الحمراء المنداة ، المجزعة في تجسيم بارز ، والملتحمة بجسد الثمرة، عند نزعها تتخلف بقايا على بعض حوافها . لا .. خوخ سيناء مختلف. تمسك الحبة ، تضغط عليها بالسبابة والإبهام ، تنزلق النواة بسهولة ، مثل انزلاق نواة مشمشة مستوية . ومع الضغطة ، ينبثق عصير حلو ، سكري بمرارة، مستحبة ، ومزازة تجعل النفس لا تجزع ، مهما تناول الإنسان من الثمر. هل هذا ، ما جعل باعة الفاكهة الأخري ينادون عليها ، أنها مثل الخوخ شراب الورد .

لن ينسكب العصير بسهولة فيما بعد ، ولن يتسبب في إحراج من يأكل أمام أحد، لتساقطه من جانبي الفم ، ولن يبقع الملابس في غفلة منه . هذه

السيولة التى تسبب سرعة العطب للثمرة ، وتجعل تخزينه ، ونقله إلى محافظة أخرى متعذرا ، حتى لو حفظ فى ثلاجة .

آه .. لو نجحت هذه الزرعة .. وحمد الله أن الزارع هنا ليس مدينًا لأحد ، مثل الفلاح في الوادي . يستدين من «القومسيونجي» شتاءً ، ويرد الدين خوخًا فى الصيف، بثمن بخس ، ويضطر للاستدانة ثانية ، من أجل المحصول القادم ، ويظل فى دائرة «القومسيونجي» ، التى يصعب الفكاك منها .

استقل حمدي عربته الجيب ، من ناحية أغوار رفح ، فى اتجاه العريش. فى كل غور ينزل ويتأكد ، وكلما وجد الريح رخاءً ، والأعواد تتمايل معها، اهتزت أعطافه. واستشعر فى فمه ، طعم الخوخ السكري المزز .

اقتربت العربة من الشيخ زويد . لاحت له بيوتها المنخفضة، على يمين الطريق المسفلت متناثرة ، إلى ما قبل شاطئ البحر بقليل . تتصاعد الأبنية وتنخفض ، تبعا لربى الرمال المقامة عليها . لفت نظره غور قريب. تحسس الأعواد برفق . بداية تزهير .. أكيد .. ريح هينة من هواء البحر المالح ، مختلطة بهواء الصحراء الجاف ، داعبت وجهه وذراعيه ، فأحس بانتعاش ورغبة فى الانطلاق .

واشتد به الشوق ، ليري ثمرات الخوخ .. ويتحسس بيديه ملمسها القطيفي .. لكم ود أن يمسك وجه صفية الخمري ، ذا الزغب الخفيف، براحتيه ، ويقبلها قبلة طويلة ، يودعها حنانه ، ويستشعر ترياق فمها على لسانه . أتراه يكون مسكرًا مثل شراب الخوخ. وهل تعتريه مزة حين تشتعل رغبتها .

نهض الأصحاب فجأة للذهاب إلى السينما . ولم يرغب حمدي في الذهاب ، انتبه فجأة أنه سيتحمل حساب المشروبات . وأعلنت صفية أنها لا تريد أن تتأخر . وجدا نفسيهما وحدهما ، وكان مكانهما منعزلا

بين الأشجار . تبادلا النظرات وابتسما . كان ، خشية أن تصده ، في انتظار إشارة أو علامة . تكرر تبادل النظرات ، فقال وهو يكاد يغيب عما حوله :

- عيناك جميلتان .

اشتعلت وجنتاها ، وجاء صوتها ناعمًا ، منهيًا :

- « يا سلام»..!

كاد أن يفقد توازنه ، وحار فى ردها . بالتأكيد ، تعرف صدق مشاعره تجاهها . نهضت وقد ازداد احمرار وجهها ، فلم يملك سوي مجاراتها ، وهو يردد فى نفسه. حلوة كشجرة الخوخ ، ولكن لا يستطيع الإنسان أن يستظل بها مثل شجرة التوت أو البرتقال .

عندما قدر أنها وصلت إلى بيتها ، فكر أن يتلفن لها ، لعلهما فى الأسلاك يعبران عن نفسيهما أفضل .. عازه الحماس ، وتساءل .. وماذا عساي أقول لها . وكان ماحز فى نفسه ، عجزه عن التصرف . لا يدري حقا كيف يسلك معها . نزع ملابسه، ووضع نفسه تحت الدش ، وكلما فكر فى وقف إسالة الماء والخروج ، انتظر لا يدري لماذا.. وتذكر عندما كانوا يجمعون الخوخ ، وينفضونه بقطعة من القماش لتخليصه من وبره اللاسع ، فيعلق بهم . ولا تجدي أية محاولة لإزالته ، سوي خلع الملابس كلها ، ووضع جسده تحت الدش ، وكلما فكر فى الخروج انتظر ، خشية، أن يكون بعضه مازال عالقًا برأسه ورقبته ، فلا يستطيع الجلوس مستقرا ، كمن ووضع فى قفاه مسحوق (بودرة) العفريت .

لم يكد يستقر ، حتى حضرت مفتشة من الجهاز المركزي للمحاسبات.

هل هي دسيسة ، لشغله عن تجاربه ، وإذلاله ، أم حضرت بظروفها .

رفع رأسه ، وهو لا يعرف ، ماذا يقول عن دفاتر يجهل ماهيتها ، ولم يسدد خاناتها، وقال :

- أهلاً .. وسهلاً .

حين رآها ، لا يدري ما الذي حدث له ، وأية نشوة هزت كيانه . وجه صبوح، مشرب بحمرة ، لا طويلة ولا قصيرة ، فخذاها من حز الفستان عليهما ، عندما جلست، أبانا عن سخائهما . قدماها الأبيضان ، وأصابعهما الصغيرة ، الطالة من حذاء صيفي ، بأظافر دقيقة غير مطلية ، مست حواف شجونه .

صدرها راسخ ، دون تزيد ، فلقته سمراء بلون الظل ، عيناها واسعتان، دعجاوان.

أحس ، ولا يدري كيف ، كأنه يعرفها من زمن ، وأن شيئًا ينبعث منها ، لا يدريه يشده لتأمل جسدها ، والتطلع إلى وجهها .

أرته بطاقتها الشخصية ، ليتأكد أنها عضوة بالجهاز . تطلع إلى البطاقة، ولم يطالع شيئًا . نحى يدها الممدودة بالبطاقة بهدوء . وهو يفعل ، ارتعشت يدها ، وفي لحظة خاطفة ، لمح انكسارًا فى عينيها ، اعترته الدهشة ، وأدرك أنها تعاني مثله ، ولم يكد يدرك ، ولم تكد تدرك أنه يدرك ، حتى استأذنت لدقيقة .

خرجت من الحجرة ، وظل فى انتظارها ، تعاوده الذكرى.. والحنين.. وهي لاتظهر . وكم سأل نفسه .. كيف حدث هذا مع إنسانة لم أرها من قبل ، وكيف أحسست بهذه الرغبة الطاغية .. وأنها تريدني ، وأنها تخصني .. وليس هذا بالضبط.. إحساس بالحميمية .. وكيف تولدت نفس الأحاسيس عندها ، وإلا ما اختفت هكذا ، وبسرعة ، ولم تعد أبدا. هل أدركت أنها لو استمرت فى عملها ، لن تستطيع الصمود، ففضلت الهرب . لماذا هربت يا سيدتي ، وأنا الإنسان الوحيد المتمم لك . وأين أجدك ، وأنت المرأة الوحيدة ، التى عشقتها ، وأردتها ، وأحسست أنني سأذوب فيها، وبها ، في لحظة كشف باهرة، مفاجئة ، لحظة كدت فيها أمتلك الحياة كلها .

أكيد ، ثقتك بنفسك ، جعلتك تقدمين بطاقتك الشخصية ، ليتني تيقنت من اسمك وعنوانك ، وحالتك الاجتماعية ، وهل كنت أعلم .. ؟!

لماذا ، الأنثي الوحيدة ، التى أردتها وأرادتني ، دون تفكير ، أو تلعثم فى لحظة خاطفة ، لا أراها ثانية . لحظة خاطفة ، كانت تعني التحقق كله، والحب كله ، والعشق كله ، والجنس ، برغبة نابعة من الأعماق ، رغبة المسام للمسام ، رغبة امتزاج الأنفاس بالأنفاس، رغبة الانجذاب العفوي، الصادق ، النقي . أين تكمن أنثاى الآن .. تري .. هل سر انجذابي لسمية أن نظرتها قريبة من نظرتها .. لكن الأخرى صريحة .. واضحة.. أما سمية فحيية بعض الشيء. نفس الحجم تقريبا ، واقتراب الملامح .. لحد ما.. هل سأعشق فيها تلك الحبيبة .. وكيف لي أن أحضن بصحيح ، وأقبل بصحيح ، وأحب بصحيح .

صار بخطوات متمهلة ، وقد شمله شعور بالأسي ، لا يفلح معه أي عزاء. فجأة سمع طائرًا يبح بصوت مشروخ . التفت إلى مصدر الصوت.. طائر قادم من ناحية الشاطئ .. استعاد بحة صوت «هناء الصافي» فى الخمسينات ، تبث حنينها المفعم بالشجن، من إذاعة فلسطين بالقاهرة : طير الطاير من عنا (عندنا) من عند الأهل.. خبرني يا طاير .. وحياتك يا طاير .. كيف حال الزرع بموطنا .. كيف حال الأهل .

اقترب الطائر ، بان جسمه الأبيض في حجم بطة كبيرة وظهر جناحاه المفرودان كمروحة بيضاء ، شابها شريط أسود ، قبل نهايته حز أبيض رفيع، رجلاه طويلتان رفيعتان ، يميل اللون في أسفلهما إلى الأحمر البصلى . هبط بحذاء الماء ، أرسل بحته ثانية ، ولما لم يجبه أحد ، مد رقبته الطويلة ، خبط الماء بمنقاره ، وأخذ يعبه .

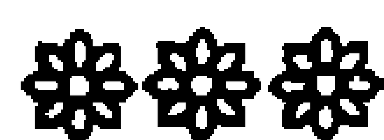
هل يطفئ الماء، المالح غليلك.

سرعان ما قذف الماء .

يالي من غبى ، كان يصفي الطحالب الدقيقة في فمه ، لعله يسد جوعته.

سرعان ما رفرف بجناحيه ، وطار فى اتجاه الجنوب . هل إلى بحيرة البردويل.. ليغتسل ، ويصيب شيئًا من الراحة . أم إلى الملاحات بالقرب من بور فؤاد ، بعد رحلة للبحث عن غذاء ، لصغاره ، الذين تركهم فى عش ، آمن من الجوارح ، وسط مياه ضحلة ، آسنة ، سبخة ، لزجة ، مليئة بالبقع الملحية ، البيضاء ، والحمراء ، عاقت الدبابات الإسرائيلية عن التقدم لاحتلال بور فؤاد عام 67 . غيبت سحابات بيضاء الطائر عن عينيه . تراءى له منظر الملاحات فى البكور ، وطيور البشاروش خارجة وسط الضباب ، وقد علقت بأجنحة بعضها ذرات الملح الحمراء ، كأنها طيور النار ، خرجت لتوها من الجحيم ، وعلقت بأجنحة بعض آخر ذرات الملح البيضاء ، كأنها بعثت من عدم البحيرات الملحية ، حيث لا تجرؤ طيور أخري على الاقتراب منها. هل لهذا احتفى بها أسلافنا ، وطالعناها على آثارهم . لماذا أوقفت وزارة التربية والتعليم رحلات طلبة الثانوية العامة إلى الأقصر وأسوان .

لمح الطائر يحوم فى الأفق ، كأنما يروم اختراقه ، وبانت السماء زرقاء صافية .



39

خرج أفراد الرحلة من الحصن ، وسألت تلميذة :

- هل الساتر الرملي رمل .. ؟!

ضحك الأولاد وصخبوا .

هدأهم صفوت بيديه ، راجيًا ألا يسخروا من زميلتهم ، وقال :

- لا .. ليس رملا . قاعدة خرسانية ، فوقها قضبان سكة حديدية ، عليها عربات قُطر ، ملأوها بالدبش والتراب ، وفوقها طبقة من الرمال أو الطفلة ، روعى أن تكون هشة ، حتى يصعب تسلقها . وارتفاع الساتر، يزيد على خمسة عشر متراً، وعليه تجهيزات ، تسمح بصعود الدبابات ، والسد محاط بأسلاك شائكة مكهربة .

وسأل أحد التلاميذ :

- كم حصنًا فى خط بارليف .. ؟

رد صفوت :

- خمسة وعشرون حصنًا ، أو قلعة . كل حصن يتكون من ملجأين، كل ملجأ عبارة عن عربة سكة حديدية ، مدفونة في الأرض ، وعليها أكوام من الرمال يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين مترًا ، وحول الحصن بثت الألغام . وفى الداخل قاعة للسينما وأخرى للتليفزيون ، وبالحصن ثلاجة، وحمامات مياه باردة وساخنة .

ذات ليلة فاجأهم قائد السرية ، وأخذ من كل فصيلة فردًا ، وأمام باب أحد الملاجئ، نزلوا عدة درجات . دفع القائد الباب وصاح :

- انزلوا.

إزاء الظلام والرهبة ، ترددوا . قال :
- خائفون . . !
تخطى الباب ، وسلط كشافًا فى أرجاء الملجأ . وقفوا مصعوقين . رقاب حزتها سكاكين ، أو سناكى بنادق . بطون مبقورة بطلقات الرصاص. خيوط دماء متجلطة على الأجساد وعلى الأرض . عيون تحجرت على نظرات فزعة .
تسلل القائد بإحدي يديه ، تحت رقبة أحدهم ، ورفع سلسلة ، بها قطعة معدنية بيضاوية ، قربها من كشافه ، وقال :
- مصريون .
مشى بضع خطوات ، وفتح باباً جانبياً ، وسلط كشافه . معلبات كثيرة ، لحوم ، مربات ، فول مدمس ، علب بسكوت .
- حملوا
ترددت خطواتهم .. يستوعبون ما حدث.. فى أحيان قليلة، بعد أن يسقط الحصن فى أيدي قواتنا ، يسترده الإسرائيليون.
- هيا .
أطاعوا ببطء ، فتعيينهم نفد تقريباً، وأثناء الخروج تحاشوا النظر ، أو الملامسة. وفى السرية أمرهم القائد أن يستعدوا لجولة ثانية . شبع الجنود لأول مرة ، من مدة ، أما من ذهبوا مع القائد ، فكانت أنفسهم مصدودة .
اقترب القائد ، من صفوت ، أقدمهم رتبة ، وقال :
- لا تكن أحمق.. ألا تود العودة لزوجتك.
- لم أتزوج .
- لخطيبتك .
- لم أخطب .
- لأهلك .

دمعت عيناه .

- كل.. حتى يأكل زملاؤك .

تطلع صفوت إلى الأولاد والبنات ، لا يكفون عن الأسئلة ، وخشى أن يتأخر عن موعده مع حمدية ، وإن شابه الفتور . ماذا عساه يقول لها . وجد وظيفة معاون فى روضة أطفال . وعندما ألمحوا أنه لابد أن ينتظر بعد انصراف العاملين ، لأن بعض الآباء يتأخرون عن موعد أطفالهم ، أدرك أنه فى الحقيقة مساعد فراش . يكاد يسمع صوت حمدية : اقبل حتى يأتى الأحسن . بعض الأولاد خرجوا من أحد ممرات الحصن ، وبأيديهم أحذية قديمة ، وبعض الملابس المتهرئة ، والتساؤل فى عيونهم. تفحص صفوت ما يحملون ، طمس الزمن والإهمال معالمها ، ولم يستطع أن يقطع هل هى لنا أم للإسرائيليين .

وكل ما رآه الحلفاء المنتصرون فى معسكر « أوشيفتز » النازي ، أحذية ونظارات وملابس مهملة ، ممكن أن تكون لأي ناس ، لكن أمريكا المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية ، أجبرت ألمانيا المهزومة ، على دفع تعويضات لإسرائيل ، بزعم أن هذه الأشياء تخص يهودًا ، تم إعدامهم فى غرف الغاز ، وقد اعترفت حكومة بولندا فيما بعد ، أن هذه الغرف التى يشاهدها السياح ، بنيت عام 48 بعد انتهاء الحرب بعدة سنوات ، كما دفعت ألمانيا تعويضات لإسرائيل ، عن أعمال السخرة التى فرضها النازيون على يهود أوروبا ، مع أنهم ليسوا مواطنين إسرائيليين ، وكيف يكونون وإسرائيل لم يكن لها وجود وقتها.

واستطاعت إسرائيل بهذه الأموال ، البناء فى فلسطين .. مدت خطوط السكك الحديدية ، وسفلتت الشوارع ، وأنشأت المدن والمطارات والموانئ ، وأكملت ما بدأه الفلاحون المصريون فى الحرب العالمية الأولى.

كان البريطانيون، الذين يحتلون مصر، يهجمون ليلا على القري، ويأخذون الفلاحين، وفى النهار يخطفونهم من الأسواق والشوارع ويقيدون كل خمسين فلاحًا من أقدامهم في حبل طويل، يسيرون في طابور إذا وقف أحد تعطلوا جميعًا، وإذا سقط أحد سقط الباقون. ويقتادونهم إلى مراكز الشرطة، حيث ينتظرهم ضابط بريطاني، يشحنهم في القطار إلى سيناء وفلسطين، لرصف الطرق ومد خطوط السكك الحديدية وأعمال الحفر، ونقل ذخائر ومعدات الجيش البريطاني بالجمال. وكان البريطانيون يجبرون الفلاحين الأميين والعمال على ختم طلب بالتطوع، ومن يرفض، يضرب ويجلد حتى يفعل. وفي بعض المراكز كان يقيم صانع أختام على الباب، ليصنع ختمًا لمن لا ختم له. ومات الآلاف من أصل مليون وسبعين ألف رجل، تم تسخيرهم للعمل فى سيناء وفلسطين، والعراق وخلف خطوط القتال فى الجبهة الغربية فى فرنسا وفى جزيرة «موردروس» بالبحر المتوسط، برصاص وقنابل الألمان والأتراك، ومن الجوع والمرض، حيث كانوا يتركون عرايا، دون ملابس أو خيام، فقط ما يستر عوراتهم ولم يتقاض الفرد فى أغلب الأحيان أي أجر، وإذا أعطوه، لم يكن يزيد على سبعة قروش فى اليوم فى أحسن الأحوال.

كانوا مستجدين، وعُينوا حرسًا على البوابة، وقال القدامى:

- أية عربة تمر من البوابة، بها رتب عالية، لابد أن تعظموا

مرت عربة، ضربوا سلام سلاح، دون أن يجرؤ أحدهم على النظر، والتحقق ممن بداخلها. وعلى مقربة، كان القدامي يمسكون بطونهم، وهم يلتوون من كثرة الضحك. وصاح أحدهم:

- عربة زبالة يا بهائم.

سأل أحد التلاميذ، عن مواسير النابالم.

ضحك صفوت، وقال:

- مواسير النابلم .

اقترح أحدهم ، أن تعبر وحدة صاعقة ، وتقطع المواسير الموصلة إلى القناة ، من خزانات النابالم على الضفة الشرقية ، حتى لا تشتعل فور وقوع الحرب ، وتحيل سطح القناة إلى جحيم . ولكن هذه العملية ، قد تُكشف، ويمكنهم إصلاحها بسهولة.

اتفق على سد فوهات المواسير فى الماء ، بالأسمنت . لكن الأسمنت سريع الشك لم يكن متوافرًا فى مصر ، فاستوردوا كمية بسرعة من أوربا . وبقى مشكل.. الأسمنت فى حاجة إلى شبكة حديدية ، حتى يتماسك . لو تصرفوا مثلما يفعل البناؤون فى الخرسانة المسلحة فى إقامة البيوت ، سيستغرق ذلك وقتًا ، وهم يريدون العمل والانتهاء عشية الحرب ، دون أن يشعر بهم أحد .

وجاءت الفكرة منٍ أحد الجنود . البقالون فى الريف يعلقون على حيطان محالهم سلالاً منسوجة من الأسلاك ، يحفظون فيها البيض ، المعروض للبيع . وهذه السلال فى حجم فوهات مواسير النابالم .

اقترب وقت العصر . لا يصح تركها تنتظر . عزمه القائمون على الرحلة، ليستريح معهم فى أحد المقاهي ، وشرب شيئًا مرطبًا. تعلل بموعد له في المنصورة، فأخبروه أنهم يستطيعون توصيله فى طريقهم إلى دمياط . استأذن ليغير ملابسه . وفي البيت تناول لقمة كيفما اتفق ، وتناول بنطلونًا وقميصًا مكويين . استعرض ثنية البنطلون، وكان يفضلها حادة كالسيف . لحظته صفية وقالت :

- إلى أين العزم .

رد مداعبا :

- عندي فرح

- مَنْ إن شاء الله

إمعانًا فى المداعبة :

- حمدي .

سهمت برهة ، وقالت :

- يا دمك .

تطلع إلى ساعته . لا وقت ليحلق ذقنه ، وقد تفوته عربة الرحلة ، ويتأخر أكثر ، فتغضب حمدية ، وتفقد روحها المرحة .

كانا يسيران غداة الحرب فى حي الأربعين بالسويس . وأنقاض البيوت في كل مكان .

قالت حمدية :

- الفقراء دائمًا قارفنا ، يضرب زلزال بيوتهم فتقع ، تقوم حرب ، بيوتهم تقع ، لماذا لا يسكنون عمارات حديثة .

تصعب وقال :

- ليس لهم حق

طالعتهما بعض العمارات ، وقد أحدثت الطلقات ، والدانات ، بعض الثقوب فى الحيطان، والشرفات ، لكنها متماسكة ، بخرسانتها المسلحة .

وتساءل صفوت : هل طمع الإسرائيليون فى الاستيلاء على الإسماعيلية ، أو السويس ، لإحداث فرقعة إعلامية، تطغى على ما أحدثه تحطيم مصر لخط بارليف واستيلاؤها عليه ، من أثر فى العالم .

وعندما لم يتحقق لهم ذلك ، وانكشف نشرهم صور الأسرى المصريين عام 67 فى صحف أوروبا وأمريكا ، على أنها صور من حرب 73 ، أشاعوا أنهم حاصروا الجيش الثالث فى سيناء . وتذكر ما رواه له صديق من الصاعقة ، كان ضمن قوات الجيش الثالث غرب القناة . بينما كانت الطائرات الإسرائيلية نشطة على طريق مصر السويس لقطع الإمدادات ، عن بعض قوات الجيش الثالث فى سيناء وعن مدينة السويس ، جمعهم

قائدهم وطلب نقل كميات من الأدوية والمحاليل الطبية للنقاط المتقدمة في سيناء . تسابقوا للمهمة ، فأجرى القرعة ، وكانت من نصيب صديقه. وتألقت عيناه بالبريق وهو يخبره، أنها أعظم رحلة في حياته . شعر بقمة المتعة ، حين اعتلت سيارته المعبر فوق القناة . قصف الطائرات لا ينقطع، ودوي المدافع حوله ، والماء تحته ، والسماء فوقه ، وسيارته ، تكاد تطير..

وسحبت إسرائيل قواتها من الغرب ، بعد وقف إطلاق النار ، دون أن تطلب مصر، ودون أن تنص على ذلك ، اتفاقية الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، ففيم كان عبورهم إلى غرب القناة .. ؟! .

خطا صفوت ليعبر الشارع . وهو يلحظ بعينيه ثنيتي البنطلون ، يتأكد من استقامتهما . مرت أمامه عربة مسرعة ، أحدثت عجلاتها طرطشة من ماء فى مطب . وقف متضايقًا .. رغم علمه ، أن هذه الطرطشة ، لن تلبث أن تجف ، وأن أية حبات من الطين قد تعلق ببنطلونه ، يمكن فركها ، بعد قليل، بسهولة .



40

حين تلقي صفوت مكالمة حمدية التليفونية ، للقاء حمدي ، أشفق على نفسه ، لايريد أن يسمع سخافاته .

ايشي ايشي ضرب البلد ومشي .

رد عليه ، كما النكتة ، بهتاف أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي (التنظيم السياسي الوحيد وقتها) :

- ناصر .. ناصر .

أجابه بلهجة السادات الممطوطة :

- الله يرحمه .

وضحك متهمًا إياه أن به عرقًا ناصريًا ، فرد عليه وأنت بك عرق ساداتي ، وأراد إغاظته :

رفع السادات رأسه من النعش ، وسأل وزير الداخلية :

- كم عدد الحضور في الجنازة .

- 99.9.850 (إشارة إلى نسبة الأصوات ، التي يعلنها وزير الداخلية، في كل مرة ، على استفتاء رئاسة الجمهورية أن الرئيس حصل عليها) .

- ادفن .

دخلوا نقطة في خط بارليف ، وجدوا بعض القتلى ، بينهم صبي صغير، حاروا في أمره. قال أحدهم لعله طالب في مدرسة ، وكان في رحلة لمشاهدة خط بارليف.

- وهل يأتي وحده :

- ادفن

لم يرد أبدًا للأمور أن تصل بينهما إلى هذا الحد ، لكنها دائماً تفلت منه. هل يذهب للقائه والسلام .

أخبرته حمدية أن زميلاً قديمًا له في الزقازيق ، عنده ورشة للحام بالأكسجين، ونظرا لكبر سنه يريد من يطمئن إليه ، ويحل محله إذا غاب.

على قدر ما انبسط ، على قدر ما امتعض . لم يكن يريدها أن تأتى من جهته . الرجل أتعب نفسه ، وحادث شقيقته ، ودبر لك موعدًا، فلماذا لا تكسبه في صفك؟

علموا أن الإسرائيليين ، يبنون مطارًا وقاعدة عسكرية بالقرب من شرم الشيخ . لابد من الاستطلاع . أقلعت طائرتان والشمس فى عيون الإسرائيليين ، بين العصر والمغرب ، وحين عادتا ، كانت الشمس قد تحركت وأصبحت فى عيونهم أيضاً .

لم يستقر على قرار ، فنهض وشغل التليفزيون . كانت الراقصة المصرية نعيمة عاكف ترقص فى مهرجان لرقصات الشعوب فى موسكو ، وفى خلفيتها جدارية فرعونية، حيث راقصة تتمايل على إيقاع من يصفقون على الواحدة ، ولفت انتباهه رشاقة نعيمة ، التى لم يلحظها من قبل في أفلامها .. وكأنها ترقص على إيقاع المصفقين.

كانوا يشاهدون فيلماً عربيًا ، ودخل حمدي ، حين كانت راقصة تتهادى كمهرة تتعاجب بنفسها . جلس دون كلمة ، وعيناه لا ترمشان . وعندما أدرك أن صفوت لحظه ، هرب بعينيه وتوه في الكلام . عجب صفوت من التوافق بين الراقصتين .. هل هي براعة من المصور ، أم من المخرج .. أم هي رهافة نعيمة عاكف؟

كان لابد أن يتم الكوبري في الوقت نفسه الذي يتم فيه إنشاء فتحة فى السد الترابي فى الغرب الذي يستر قواتنا . لو تمت الفتحة قبل الكوبري، قد يعبر منها الإسرائيليون ، لو الكوبري تم قبل الفتحة ، قد يقصفه الإسرائيليون ، ومن الممكن أن يعبروا فوقه .

إذا لم يذهب للقائه ، سيفتح على نفسه فتحة ، لن يستطيع سدها بأي عذر ، ولن يسلم من لسان حمدية .

وكان لابد ألا يعرف العدو أين الفتحات الرئيسية ، وإلا عرف أين سنضع الكباري. عملوا مثتى فتحة تقريبًا ، وسدوها بشكائر من الرمال. وحضر أهالى بلبيس للمساعدة . وكانوا يحضرون الكباري من القاهرة إلى الجبهة ، ثم يعودون بها ثانية ، وهكذا دواليك ليموهوا على عدو معه مخابرات الدول الغربية ، بأقمارها الصناعية واستطلاعها الإلكترونى . فقد سبق للصهاينة خدمتهم . خدموا المخابرات الألمانية فى الحرب العالمية الأولى ، وعندما لاحت الهزيمة ، نقلوا أسرارها إلى بريطانيا ، وحصلوا على وعد من الوزير بلفور بتمكينهم من فلسطين. وحين استقلت مصر والعراق ، وبدأ نفوذ بريطانيا، يضعف فى المنطقة ، نقلوا ولاءهم إلى أمريكا ، التى كانت شركاتها تنقب عن النفط فى الأراضى العربية .

قال حمدي :

- تسرع العرب فى ضخ النفط ، وإسرائيل ما زالت جاسمة فى المرتفعات السورية (الجولان) والضفة الغربية ولم تعد بشيء، بينما كان الناس فى أوربا وأمريكا واليابان يرتعشون من احتمال استمرار وقف الضخ والشتاء على الأبواب .. وكثير من مصانعهم مهدد بالتوقف .

قال عبد السلام فاروق ، وكان حاضرا :

- فعلها كيسنجر ، وضحك على العرب .. ضحك حمدي وقال :

- الأغرب أن الأمريكيين صرحوا أنهم فى طريقهم لإيجاد بدائل للنفط . واسترسل في الضحك بتؤدة .. وقال :

- هل سيستخرجون من الطاقة الشمسية ، أو من طواحين الهواء أليافًا لمصانع النسيج ، وعشرات المواد الكيماوية ، و مواد لصناعة المنظفات، والقار ، ووقودًا لتطير الطائرات ، ولتسير العربات .

غمز عبد السلام فاروق بإحدى عينيه وقال :

- وماذا عن السادات .. ألم يتسرع ..

نظرا إليه مستطلعين ، فاستمر :

- تعجل فى فك حصار باب المندب ..

استرد حمدي نفسه ، وقال :

- آه .. عندك حق .. كان البحر الأحمر قد أصبح بحيرة عربية .. ومراكب إسرائيل، محملة بالبضائع فى المحيط . عاجزة عن الوصول إلى إيلات .

عقب عبد السلام فاروق ، ضاحكًا :

- قصدك قرية أم الرشراش ..

تطلعت العيون فى تساؤل ، فاستمر :

- حتى بعد حرب 48 .

حار صفوت فى أمر حمدي .. ساعة ساداتى .. وساعة لا يعرف له ملة . كانوا يجلسون ساعتها فى نادي الضباط بالإسماعيلية . فجأة هل عليهم شاب فى منتصف العمر . رحب به عبد السلام فاروق مبالغًا ، وهو يقول :

- أقدم لكما كليم السادات .. !

وبينما يتقدم نحوهم ، فوق النجيلة ، حذره عبد السلام من الجناينى، لكن هذا لم يعبأ ، وأولاه ظهره ، فانفع الماء من الباشبوري ، الذي كان يعدله ، فوجد نفسه فجأة، غارقًا بالماء ، وعلا صخبهم ضاحكين .

أخبر صفوت زميله فى الصاعقة ، أنهم فوجئوا بثلاثة جنود يعبرون معهم . كل منهم فوق « طوف» أسفله مضخة ، ومثبت بها ماسورة فى نهايتها باشبوري . وفى الضفة الشرقية ، سددوا خراطيم من المياه القوية ، أسفل السد الرملى فانهار كالحلاوة الطحينية ، كان أحد الضباط مهندسًا فى السد العالي ، وتخلفت عن العمل أكوام من الرمال والحجارة ، فوجد أن أسهل وأسرع وسيلة لإزاحتها من الموقع ، استخدام الماء .

ولم تكد الفتحة تتم ، حتى توالت موجات من الجنود . ورغم رصاص مدافع مزاغل الحصون المنهمر كالمطر ، وقذائف الدبابات ، وقنابل الطائرات ، استمر التدفق . وقطب الزميل جبينه واكتسبت عيناه حدةً : كان لازم لرد شرفنا بعدما حدث فى 67 أن يعطيني العسكري الإسرائيلى ظهره ..

- أنت موعود .

قالها عبد السلام وهو يفسح لصديقه مكانًا ، ويهون عليه ، أن الهواء لن يلبث أن يجفف ملابسه ، واستطرد :

- رائد ناجي خضر ..

عقب حمدي :

- وكليم السادات ..

عاودوا الضحك وألمح أحدهم إلى تصريح بيريز زعيم حزب العمل الإسرائيلى الذي سخر فيه من النبى موسي ، كليم الله ، مما أعطي فرصة للمعارضة الإسرائيلية لمهاجمته .

قال عبد السلام فاروق :

- ألسنا أولى بالدفاع عن النبي موسى .. على الأقل مصري ، ولد وتربي هنا .

سأل ناجي خضر :

- وماذا يبقى لليهود .. ؟!

قال حمدي :

- وهل تظن أن يهود إسرائيل ، أحفاد يهود النبي موسي .. هؤلاء، أولاد ناس من إمارة الخرز الروسية ، اعتنق أميرهم اليهودية في القرن الماضي وتبعته رعيته .

قال عبد السلام مؤكدًا :

- جاءكم كلامي .. نحن أولى بالدفاع عن موسى.

قال حمدي :

- على أية حال .. دعنا من هذا الآن .. خلّينا في كليم السادات .

قال ناجي خضر :

- كنت أقود فصيلة مشاة في الغرب ، بالقرب في منطقة البحيرات، وإذا بالتليفون يرن ، والمتحدث الرئيس السادات . طبعا ارتبكت ، وأخبرته عن وضع المتسللين في الثغرة ، كيفما تبادر إلى ذهني وقتها . أعطاني تعليمات بكيفية مقاومتهم ، نفذتها على الفور ، واتصلت لأبلغ قائد المنطقة ، فوجدت الأمر صدر بنقله . وآخر من القاهرة على وصول. قلت في نفسي .. حتى يعرف القائد الجديد وضع القوات على الطبيعة يلزمه يومان على الأقل ، تكون قد حدثت فيهما أمور ، خاصة والوضع يتطور من دقيقة إلى أخري . وتصرف كل منا على عهدته .. وحين حضر

القائد الجديد ، كانت الأوضاع قد تغيرت ولم يستوعب الموقف ، فنقلوه، وأصبحنا فى انتظار آخر، ونحن نعجب ، لماذا لا يعينون قائدا من هيئة العمليات عندنا ، على الأقل أصابعه فى الصورة .

أحس صفوت بصداع شديد ، وأن رأسه ستنفجر ، فانتبه إلى أن التليفزيون شغال فقام وأغلقه . اقترب موعده مع حمدي ، ولم يزل مترددًا..

لماذا يساعده الآن .. هل أدرك أن شقيقته متعلقة به ، ومن الصعب إبعادها عنه، أم أنه لا يربط بين مساعدته ، ورغبته في الارتباط بحمدية .. هل هذا ممكن .. ربما بالنسبة لغريب .. أم هو .. لا يعتقد .. أم تراه يود مساعدة صديقه الزقازيقي؟

ارتدى ملابسه فى تكاسل .. وغادر بيته فى العرايشية ، يسير على مهل .. ليصل فى موعد تحرك الباص إلى الزقازيق بالضبط ، حتى لا يضطر إلى الحديث معه .. دائمًا رده حاضر .. عندما أبدى له مرة ، ملاحظة ، على استحياء بهذا الشأن ، هز كتفيه وقال :

- أبدًا .. كثير من هذه المعلومات موجودة فى الجرائد اليومية .

ابتاع جريدة ، يشغل نفسه بها فى الباص ، فلا يضطر إلى الالتفات إليه. تعدي المحطة حيث الموعد ، وسار حتى عمارة ذات بواك ، أسفلها مقهى، ليشرب فنجانًا من القهوة ، وطالعته على الحيطان ، صور لرضا لاعب النادي الإسماعيلي الشهير ، وضحك من عبارة تحت إحدي الصور : شهيد الكرة المصرية .

سأل عبد السلام فاروق ذات مرة :

-حقا .. لماذا هذه الشعبية للاعبى كرة القدم..

ولم يكن الرد جاهزًا هذه المرة ، ذوي حمدي ما بين حاجبيه ، وقال بتؤدة :

- يبدو لي .. والله أعلم .. لأن أغلب لاعبيها تربوا فى الحارات الشعبية .. حيث اللعب والشقاوة والترقيص بالكرة .. وحيث تصقل مهارات الموهوب منهم .. وفجأة يجد اللاعب نفسه فى التليفزيون وصوره فى الجرائد .. ويخطب وده أصحاب الحظوة والمال.. وعندما يوجد أحد الفقراء فى الضوء .. فكأنه يرد الاعتبار لأهله من الفقراء ، فكيف لا تتحمس له الأحياء الشعبية .

ابتسم عبد السلام فاروق ، وقال :

- تحليل ماركسي ، لا يخر الماء .. !

ضحك حمدي وقال :

- أنتم تظلمون الماركسية .. ليست أكثر من منهج فى التفكير ، أو طريقة فى النظر إلى الأمور .

بغتة ، بتنمر ، قال عبد السلام فاروق :

- وأين كان هذا المنهج يوم إعفاء الخبراء الروس .. ؟!

انتبه حمدي كمن فوجئ .. تريث وهو يشمله بعينيه ، وقال :

- نعم .. كانت الإشارة واضحة .. لكننا لم نفهمها .. ففي الوقت الذي كان السادات يريدها معركة مصرية مئة فى المئة .. اعتقدنا أنه بإخراجه الخبراء الروس من مصر ، يتخلى عن المعركة .

اعتدل عبد السلام فى جلسته ، ووشي ألق عينيه ، أنه انتزع منه شيئًا ، بينما استطرد حمدي :

- لم نكن وحدنا ..

عاجله عبد السلام :

- لا تتمحك فى الناس .

ضحك حمدي وقال :

- هل نسيت النكتة الشهيرة .. ركب السادات الباص وسأل عن اتجاهه، وحين أخبروه : التحرير ، قفز مسرعًا وهو يقول إنه ذاهب إلى العتبة .

أكمل عبد السلام :

- ميدان العتبة .. ولم يقل العتبة البيضاء ، (عتبة البيت الأبيض فى واشطن) كما أشعتم .

- وهل خاب حدسنا .. ؟! ..

صمت عبد السلام ، فاستطرد حمدي :

- فعل هذا وكيسنجر يلهث بين السعودية والأردن .. خوفًا من فتح الجبهة الأردنية، التى كانت تعني نهاية إسرائيل .. وكانت القوات السعودية قد دخلت الأردن بالفعل والقوات العراقية فى طريقها من الأردن للحدود السورية ..

وعلى فكرة نحن لم نعترض على خروج الخبراء ، ولكن على طريقة إخراجهم ، التي بدت مهينة ، دون كلمة شكر .

وتذكر صفوت ما حدث فى الجبهة فى أواخر حرب الاستنزاف ، حين زحف حائط الصواريخ . . ففي نهاية اليوم الثامن من الزحف ، دخلت طائرات «الشبح» الإسرائيلية المعركة ، وأجهزة التشويش ، وفقدت قوات الدفاع الجوي ربع رجالها تقريبا.. أسرعت القوات الروسية من مشارف القاهرة وسدت بعض الثغرات ، حتى رجعت المبادرة إلى أيدي قواتنا .

وسأل ناجي خضر :

- وهل فهمت أمريكا بجلال قدرها . . ؟!

ضحك حمدي بطريقة صاخبة ، وهو يخبط المنضدة بيديه ، وهم يطلبون منه أن يهدئ اللعب . قال من بين همهماته :

- بدل أن يتفهموا مغزى إنهاء مهمة الخبراء الروس ، طلع علينا كيسنجر ، وكان وقتها مستشارًا للأمن القومي ، بالإضافة إلى وزارة الخارجية ، مصرحًا :

لو كان السادات طلب ثمنا لإخراجهم لأعطيناه . وبدا سعيدا ، معتبرًا أمريكا كسبت نقطة مجانا في سباق النفوذ في منطقة الشرق الأوسط . . ولبس السادات مسوح الأخلاقيين ، ورد أنه تصرف من وحي مبادئه ، دون النظر إلى ثمن أو خلافه.

شرب صفوت قهوته ، ونهض في طريقه إلى محطة الباص . . لاح في ذهنه ماردده عبد السلام فاروق ، يومًا نقلاً عن اللواء جورج ، أنه لولا قاعدة برتغالية في جزر الأزور ، في آخر لحظة ، سمحت لطائرات أمريكا، بالتزود بالوقود ، ما أمكن نجدة إسرائيل ، حيث كانت الطائرات تهبط مباشرة في مطار العريش ، على بعد قليل من الجبهة ، لتزودهم بالدبابات والعتاد الحربي . وتعليق حمدي ، مرة ، أنه يعتبر كسبنا لمعركة 73 ، تجربة (بروفة) لكسب الحرب وعودة فلسطين عربية . قالها بثقة أغاظت صفوت ، وتساءل :

من أين له هذا اليقين . . ؟!



41

حار سعد، كيف يسلك.. ؟!

خال ندا يود عقد القران فى العريش، وندا تود أن يتم ذلك في قريتها بالوظة، إكرامًا لأهلها، ولأمها، التى لن تستطيع الحضور، لو عقدوا فى العريش. أسر بالموضوع إلى الباشمهندس حمدي، واقترح أن يعقد فى العريش، ويزف فى بالوظة:

ضحك حمدي، وقال:

- فرعون حضرتك.. تزف عبر سيناء.. !

- حاولت إقناع الخال، للانتقال إلى بالوظة فرفض.

قال حمدي:

- الخال معذور.

أصبح تقليدًا، عقد القران، فى مسجد العباسي بسوق الخميس منذ الاحتلال الإسرائيلي. فحين تصدع الجامع، أعاد الأهالي بناءه، ضد رغبة الإسرائيليين الذين كانوا يخشون من تجمع الناس فيه، وجعلوا.. كل زيجاتهم تتم فيه.

وكان الأهالي يسارعون، بتزويج من يبلغ مبلغ الشباب، خشية تعرضهم للغواية، فقد انتشرت أفلام الجنس، وانتشر الفيديو، ووصل إرسال التليفزيون الإسرائيلى إلى العريش، وكان يبث فيلمًا جنسيًا ليلة الجمعة من كل أسبوع. أما البنات، فقد فرض عليهن الأهل الملابس السوداء التى تغطي البنت من أساسها إلى رأسها، حتى لا تتعرض لأية معاكسة من جنود الاحتلال.

سأل سعد:

- ماذا أفعل لأرضي الطرفين.. ؟

تفكر حمدي برهة، وقال:

- وماذا عن ندا.. ؟

- اقترحت أن نقيم حفلاً للعرس فى القرية، ونوزع «الشربات»، ولا تتم الدخلة، وفي اليوم التالي، نحضر إلى العريش، ونعقد القران فى المسجد العباسي، ومن استطاع من أهلها فليحضر.

- خير ما اقترحت..

ظل سعد على تقطبية وجهه. قال حمدي:

- ماذا أيضًا..

تردد سعد، وهذا يستوضحه، حتى انطلق البخار المحبوس، فدفع الغطاء، وانهالت الكلمات:

- لا أريدها أن تعملِ.. !

نظر إليه حمدي دهشًا، فاستمر:

- ألم تر كيف نظر لها مفتش الزراعة.. ؟!

- هل أكلها.. ؟

خفت درجة حرارة البخار، وقل اندفاعه:

-أنت يا باشمهندس..

- هذه تعمل.. ومعرضة للحديث مع هذا ونظرات ذاك.

- ألم تلحظ نظراته... ؟

أخذ حمدي كفه اليسري فى يمناه، وقال:

- لنفرض أنها لا تعمل.. ألا تسير فى الشارع.. كيف ستمنع نظرات الناس عنها..

أطرق سعد، ولم يشأ أن يخبره بما دار بينهما، حين طلب منها ترك العمل بعد الزواج، فنظرت إليه من فوق لتحت وقالت وهي تشهق: أعود

للرعى.. ؟!

وفى معرض الحديث قالت: كنت أحس بالسأم. أنظر إلى الفضاء حولي، أتنشق على قطرة ماء، أو قطعة أرض بها عشب. ساعات طوال أفقد فيها روحي، ولا أحس بنفسي، إلا بعد عودتي، والحديث مع أمي وأخي.

قال متحليًا بالصبر: يا بنت الحلال.. إذا لم أكفك مؤنتك لك الكلام.

قالت ليست الحكاية، مؤنا..

غرزت الجرافة. فرش حصيرًا لا يقل طوله عن اثني عشر مترا. سارت الجرافة، واختلط عرقه بالرمل. مهدوا الطرق من مواقع الكتائب، إلى شاطئ القناة، من عشرين إلى أربعة وعشرين كيلو مترًا تقريبًا. ولم يشعر بالراحة إلا بعد انتهاء هذه المحاور، وعندما رأى الدبابات والعربات تسير عليها، زال تعبه.

فجأة جاءه أمر:

– خذ عربة وأحضر التعيين.

ربت بيديه على حديد «الجرافة»، وأحس بظهره ينقصف.

وثب قلبه وهو يمشي بها فوق المعبر، ولم يكن الجنود مصدقين، أنه يستطيع العبور إلى سيناء، استعدل بالعجلتين الأماميتين، وجعلهما فى الوسط، وجعل العجلات الأربعة فى الخلف، تحف بالكاد، بجانبي المعبر، ورفع سكين تسوية الأرض بميل خاص، خشية أن تصطدم بالمعبر، فيسبب مشكلا لمن يعبر بعده.

ذهب إلى منطقة وعرة مطلوب تسويتها، أنزل المحراث فى الأمام، بأسنانه الخمسة، وشرع فى العمل.

سأل حمدي، إذا كان أحضر قش الأرز عندما كان فى المنصورة، فأومأ بالإيجاب، عندئذ طلب من ندا وبعض العاملات، أن يضعنه حول

الشجيرات.

ابتسم سعد.. كان حمدي متوجسًا بالأمس من ريح محملة بسف الرملِ، وتساءل فى استنكار، إذا كانت رياح الخماسين أتت قبل الأوان، مشفقًا أن تقتلع الشجيرات التى زرعت مؤخراً.

وإزاء باله المشغول، لم يستطع أن يذكره بوعده بمكافأة إذا أحضر المطلوب.

خف قصف السويس، وبالقرب من الكيلو 101 وجد زميلين قديمين. ما أن رأياه حتى انفجرا ضاحكين، وهما يشيران إلى قدميه.

خمن ما يدور فى ذهنهما. من سائق دبابة فى انتظار استعاضتها، عندما عطبت، إلى سائق جرافة، عند الحاجة، إلى سائق عربة جيب، لتلبية أي طلب، إلى سائر على قدميه. أشار إليهما، ليستأنفا المسير معه إلى سيناء. طلبا منه أن يجلس معهما قليلا، حتى يصطادوا عربة.

قال سعد فجأة:

- لماذا لم تركبا الباص. رد أحدهما:

- فأل الله ولا فألك.

كان الإسرائيليون قد اصطادوا باصاً، أجلسوا فيه نفرين معهما بطاقتا هوية مصريتين، أفلتا من الشرطة العسكرية، وأذاعا فى مكبر للصوت بالعربية فى مدخل مدينة السويس.

- الجنود الذين يودون المغادرة، عليهم اللحاق بالباص.

ركب بعض الجنود، أخذوهم أسري.

استراحوا قليلاً.. وإذا بطائرات تناور.. تعلو وتنخفض.. وقذائف تنطلق.. والطائرات تتفاداها.. لبست قذيفة في طائرة، وتصاعد دخان، وقفز اثنان بالمظلة. جروا ليشاهدوا الطيارين.. ولأن الرؤية واضحة.. ظنوهما فى مكان قريب.. جروا مدة طويلة.. وكلما ظنوا أنهم وصلوا.. عاودوا الجري.. كانوا يريدون مشاهدة عملية الأسر.. وفكرة تدور فى

أذهانهم.. ربما لم يصل أحد قبلهم فيقومون بالأسر، ويحوزون شهرة، وربما مكافأة.

فوجئوا بجنود كثيرين، من وحدات مختلفة. لمست المظلتان الأرض. نظر سعد لزميليه وضحكوا. مظلتان مصريتان. أصيب الطياران ببعض رضوض وجروح. وسرعان ما اقتحمت سرية طبية المكان، وحملت المصابين. وحتى لا يخرجوا من المولد بلا حمص، أخذ كل منهم قطعة من حرير المظلة كتذكار، ولكم أدهشت سعد نعومتها الفائقة.

تطلع سعد إلى ندا المنهمكة في العمل، يود انتهاز فرصة، ليومئ لها، ويخبرها أنه سيمر عليها عند خالها، بعد انتهاء العمل. لكنها لا تنظر ناحيته... طبعا شايلة منه.. وظلت على عنادها حتى غادرها بالأمس.. كانت تضع حزامًا حول وسطها.. حاول مداعبتها، حتى يصرف عنها. مد يده ليجعلها تخلع الحزام، وكأنه يمد يده في حقل ألغام، وكان الخال على وصول.

كانت غبشة آخر الليل في سيناء، وسرية تزرع حقل ألغام، وسعد يقف على مقربة من عربته، التي أقلتهم. شعاع خافت لاح كومضة خاطفة. تسمروا في أماكنهم، والتساؤل في عيونهم: هل هو أشعة تحت الحمراء. ارتجفت أجسادهم. لو حدد الإسرائيليون مكانهم، طلقة واحدة تفجر الموقع كله.

لم يشأ الإلحاح أكثر من ذلك. وهذه لدهشته خلعت الحزام، كان أحمر عريضًا. وبانت سفرة الصدر حمراء، بخطوط مستطيلة من زهرة الفل صفراء وسماوية. اقترب منها. تعبيرات وجهها جامدة. نهض متعثراً في خطواته، كأن بنطلونه انزلق عنه.

بدا الأسير مذعوراً، مهدل الثياب، وقد انحسر بنطلونه عن وسطه، يمسكه بإحدي يديه، حافياً، ذقنه نابتة.

ظل صامتًا، رافضًا الإجابة عن أي سؤال. لم يسفر التفتيش الظاهري،

عن شيء يدل على حقيقته. لكن سحنته ونظراته، جعلت قائدهم يشك أنه ضابط، وربما ضابط غير عادي. أمر بتفتيش ملابسه الداخلية.. عثروا معه على خريطة، عليها علامات وأسهم، وكلمات بالعبرية. حين انتزعوها منه، تخلي عن هدوئه، وقاوم معرضًا نفسه للقتل، وخطفها وكاد يأكلها، لولا تكاتفهم عليه، وانتزاعها منه.

أمر القائد سعداً بتجهيز عربة، لمهمة عاجلة، وعين اثنين لحراسة خاصة لهذا الأسير، وأمر بإطلاق الرصاص فوراً لو حاول الهرب. وكان بالوحدة أسيران آخران، جهز لهما عربة أخرى.

ونبه القائد، أن تسبق عربة سعد، العربة الأخرى بمسافة، حتى إذا تعرضوا لغارة جوية، لا يضيع الصيد كله.

فجأة لمعت عينا القائد وهو يتأمل الخريطة ثانية. قال:

- هذا طيار.

أخذها منه رئيس العمليات، وتفحصها. قال:

- مواقع صواريخنا في الضفة الغربية.

في صباح السابع من أكتوبر، نشط الطيران الإسرائيلي. ولأول مرة يرى الجنود طائراتهم تتهاوى بتلك الأعداد الكبيرة. قبل ذلك، حين كانت تسقط طائرة، كانوا يهللون، ويصيحون: إسرائيلية. وعندما يتعرفون على علاماتها، تغيم الفرحة، وقد رأوها ميج مصرية. الآن لا يرون العلامة بوضوح فقط، بل يرون قائدها أيضًا.

سلموا الأسري في مركز قيادة اللواء، وتلكأوا قليلا، ليعرفوا هويتهم. لكنهم في القيادة أسرعوا بهم إلى الخطوط الخلفية، ونهروهم لعدم إسراعهم في العودة إلى وحدتهم.

وكادوا ينسون الأمر، لولا أن القائد فاجأهم، فوق التبة التي يحتلونها، بإشارة شكر من قيادة الجيش. اتضح أن الرجل طيار بالفعل. وأن ما ظنوه خريطة. كان بمثابة تعليمات بقصف مواقع صواريخ مصرية، ومطار

متقدم.

واتضح من استجواب الأسير، أن الأمر جزء من خطة إسرائيلية اسمها «الحزام الأسود» وتعني الاستيلاء على جنوب لبنان، وضم أراض أخرى من سوريا، وإنشاء خط حصين فى سهل الأردن، طبعا كانوا سيسمونه خط ديان، أسوة بخط بارليف. والاستيلاء على الضفة الغربية لقناة السويس، وتشغيل القناة لحسابهم وتحويل سيناء إلى مركز للتجارب النووية. وكان توقيت القيام بهذه الضربة هو الثامن من أكتوبر عام 1973 .

ضرب القائد كفًا بكف، وقال:

- سبقناهم بيومين فقط.. !!

تطلع سعد ناحية ندا، ما زالت على غيها.. فليتظاهر بعدم الاهتمام، لعله يجذب نظرها.

لم يلجأ قائد السرية إلى هذا، إلا بعد أن يئس من قائد التبة، الرائد عبدالسلام فاروق. أنبأ الاستطلاع أن الإسرائيليين ينوون شن هجوم مضاد فى أول ضوء. ظهر هذا من احتشاد دباباتهم فى الطريق القادمة من وسط سيناء، فهم، رغم فشل هجماتهم المضادة، لم ييأسوا بعد. والحل هو الاستيلاء على الطريق المؤدية إلى وسط سيناء، واحتلال تباب أمامية، تمكن مدفعيتنا من إجهاض أي تجمع لشن هجمات مضادة. وبهذا يأمنون من الخطر تمامًا . قال قائد السرية:

- يا سيادة الرائد.. الخطر أمام أعيننا.. والطريق تقع فى قطاعي.

مال سعد على جندي الإشارة وهمس:

- متى ترقى

- بعد فتح القنطرة شرق.

أمهلهم قائد التبة، حتى يستأذن، فليست عنده أوامر. كانت حدود رأس كوبري الجيش مرتبطة بمدي بطاريات الدفاع الجوي غرب القناة. ولم

يسل لعاب القوات المصرية فى أي وقت أن تتقدم بضع مئات من الأمتار، لكي تستولي على هيئات ذات أهمية مؤقتة، ربما تركها الإسرائيليون، ليجروا أرجلهم.

زفر قائد السرية، وتمتم:

- رحم الله المقدم. أكان هذا وقته...

ملمحاً إلى استشهاد القائد السابق، عند اقتحامهم مركز قيادة، أقامه الإسرائيليون خلف التبة، وكان من دورين ومجهز بكل الأسلحة والمعدات الإلكترونية للاتصال بالنقط الحصينة. والتبة على ارتفاع أكثر من سبعين متراً عن سطح البحر، وطولها يقرب من ألف وخمسمئة متر وعرضها حوالي خمسمئة متر، وتبعد عن القناة تسعة كيلو مترات.

واتضح من تعبيرات جندي الإشارة، أن قائد التبة، لم يوفق بعد فى الاتصال بقيادة اللواء. صرخ قائد السرية:

- يا أفندم التشكيل الإسرائيلي يقترب، أخذوا مواقع هجومية، وواضح من ترتيب الدبابات أنهم يفكرون فى الصعود إلينا.

- لابد من الترخيص بالضرب.

- نكون الله يرحمنا.

والتفت إليهم ونادي:

- سعد

- أفندم

- استعد بالجرافة

فهم ما يعنيه. يتظاهر بإصلاح الطريق الصاعدة إلى التبة، فيتوهم الإسرائيليون أنها غير صالحة للاستعمال، فيستديرون إلى الطريق الخلفية، حيث الدبابات المصرية فى حفرها. وحيث تطولهم مدافع الجانبين.

قاد سعد الجرافة، وخلفه سارت ثلاث دبابات.

وتأكد أن الإسرائيليين شربوها، من ضرب مدافع دباباتهم العشوائى.

خمنوا إصابتهم بالدهشة، وقد رأوا الدبابات المصرية خلفهم، يساندهم حملة الـ آر - ب - ج، من الجانب الآخر للطريق. وسرعان ما سيطروا على التباب الحاكمة، وصبت المدافع المصرية نيرانها من بعيد. وبات واضحًا تعذر اقتراب الإسرائيليين من تبتهم العالية.

وهلل الجنود:

- الله أكبر. الله أكبر..

وقد رأوا الإسرائيليين يقفزون من فتحة البرج في الدبابات، وبعضهم يرفعون أيديهم استسلاما.

وجاء صوت قائد التبة، يُعلم قائد السرية، أن قيادة اللواء على الخط فماذا يقول:

- قل: أمنَّا الموقع، وتقدمت قواتنا إلى الأمام.

وبينما يتحفظون على الأسري، ويعدون عربة لنقلهم إلى الخلف، ويعينون الحراسة اللازمة، وصلت إشارة من قيادة اللواء، تشكر قائد التبة، على ما قامت به قواته من تأمين لحد اللواء الأيسر.

نظر الجنود لبعضهم، وانفجروا ضاحكين.

ضبطها متلبسة بالنظر ناحيته. دارت ابتسامة والتفتت بسرعة.

بعد قليل، اقترب منها، وقد لحظ ابتعادها عن الزملاء والزميلات. تأمل وجهها بين الشجيرات.. وشيئًا فشيئًا، تخلى عنها حيادها واستجابت لابتسامته، بتحفظ قال:

- سأمر بعد المغرب.

أومأت بذقنها في تثاقل إلى أسفل.

منوا النفس بقضاء، ليلة هادئة. لكن قائد التبة أعاد تنظيم الموقع. أمر بسحب الجرحي من أسفل التبة إلى أعلاها. وعزز المدافع في العالي بمدافع من الوحدة التى يحرسون جانبها الأيسر، حيث لم تتعرض لاشتباك مباشر حتى الآن.

وأمر بالانتباه طوال الليل، مذكراً إياهم، بمقدرة الإسرائيليين على شن هجوم ليلي، وتحديد أهدافهم بدقة، بالأشعة تحت الحمراء.

وبالفعل عاود الإسرائيليون القصف، من مدافع بعيدة المدي، جانباً كبيراً من الليل. وبعد أن اتضح لهم، قدرهم، أن يظلوا فوق هذه التبة، إما أحياءً يحتلونها، أو أمواتاً يرحمهم الله، خلت تصرفاتهم من العصبية، وجنحت إلى الهدوء.

وأفاد جندي الإشارة، أنه ولف جهازه اللاسلكى على ترددات الإسرائيليين، والتقط بعض إشاراتهم. سجلها ولم يفهمها. ولما لم يكن معهم عامل شفرة، أمر قائد التبة أن يبرق بها إلى قيادة اللواء.

بعدها، عمَّ التبة والصحراء، سكون متربص. ومر الضباط وضباط الصف على الجنود فى أماكنهم يطمئنون إلى يقظتهم. وأمر قائد التبة أن يأكلوا، وأن يشربوا من علب العصائر حتى لا يغفو أحدهم.

وحذر ألا ينخدع الجنود بهذا السكون الذي حط فجأة، فربما يدبرون شيئًا، وزيادة فى الحيطة، دفع بجنديين من الاستطلاع، للنزول من التبة، والتقدم على المحور الأمامي، للتيقن من الأمر.

فاجأ سعداً أحدهم، بكوب من الشاى الساخن. وقبل أن يعلق قائد السرية، أسرع صانع الشاى:

- ولا بصيص ضوء.

وأشار إلى حفرة سُدت فتحتها بغطاء من المشمع، أوقد فيها قرصًا أبيض من كحول جاف.

قال القائد بصوت خفيض:

- خلِّ بالك.

سمع جندي الإشارة إشارة تنبيه من جهازه، ترك كوب الشاى الذي لم يكد يصله، مسرعاً، وأسرع إليه.

أصغى قليلا، والتفت إلى قائد السرية:

- قيادة اللواء حلت الشفرة.

أبلغ قائد التبة الذي حضر مسرعًا.

قال جندي الإشارة:

- القائد الإسرائيلي المهاجم، طلب الإذن من قيادته بالكف عن محاولة استرداد التبة، لأنهم - حسب قوله - يرقصون على وقع طبولنا.

احتضن قائد التبة قائد السرية، وأزاح الأخير جانباً من المشمع وقال لمن فى الحفرة:

- وزع شايا على الباقين.

لم يكد ينطق بها، حتى خيل إليهم، أنهم سمعوا حفيف جنازير دبابات. أصغوا وقد امتنعوا عن أية حركة، وعلاهم الوجوم والترقب. قال الرائد عبد السلام فاروق:

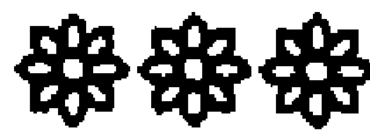
- مالكم.. فليحضروا..

وأشار إلى أماكن المدافع:

- عندنا الطبول.

ضحكوا بهدوء، ولم تزايلهم رهبة الموقف تماماً، إلا بعد أن أتى جندي من الملاحظة، وأفاد أنها دبابات مصرية، تعزز الجانب الأيمن.

تنفسوا بارتياح. وأمر قائد التبة، أن ينام بعضهم، ليستريحوا قليلاً، قبل طلوع الفجر، وشدد على يقظة الساهرين، حتى يستيقظ زملاؤهم.



42

طالع الإشارة بسرعة.

«يرجي الذهاب على وجه السرعة، ناحية قطاع رمانة بالوظة»..

عبر بعينيه السطور بسرعة، وتوقف عند «يرفض السيناوية زرع الأرض بشتلات الموالح». كرمش البرقية في راحة يمناه، وتنهد في راحة. ظن شيئًا حدث من مياه البئر، ناحيتهم، وسبق أن طمأنهم، بنتيجة تحليل مياهها. أرسل في طلب سعد.

هل يتصل بأم سمية، ويعلمها بالوضع، اتقاءً لما قد يتفاقم إليه. نحى الفكرة جانباً. فالمرأة لم تصبح حماته بعد، ولا يود أن يشغلها بمشاكله منذ الآن، بل ولا داعي مستقبلاً، للاستعانة بما لها من اتصالات ومكانة، وعلى أية حال ليس من عاداته أن يشرك الآخرين فيما يعتريه. فإشراك أم سمية، سوف يعني الإفادة، أيضا، من نفوذ قبيلتها من الفواخرية، في سيناء. وتذكر مغالاتهم عند الخطبة. وأسف لأن سعداً، لن يستطيع، أن يرد له في وقت قريب قبضيته في الجمعية، ترى.. هل ستسهل له الأمر، كما فهم من تلميحاتها، وتتغاضى عن الهدايا والمجوهرات، أم هو كلام فض مجالس؟ عليه أن يسلك، كيفما اعتاد، فربما كان رافضو الزراعة، من قبيلة السواركة، المقاسمة لهم في النفوذ، فيتعقد المشكل.

لكنها ربما تزعل، لأنه لم يشركها، أو يعلمها. فلتزعل قليلاً.. وبعدها يكون الأمر واضحاً لها.

ونفي خاطراً، أن تتزعزع ثقتها به.

بالأمس، ساعة العصاري، استأذنت لتلحق باجتماع فى المحافظة وقالت ضاحكة:

- البيت بيتك.

كانا يجلسان متجاورين على الكنبة. تطلعت سمية إلى قدميها فى خفر، وقالت بصوت هامس:

- دقيقة أعمل لك حاجة.

- أنت حاجتي.

ابتسمت، وكانت لم تنهض. مال رأسه على جبهتها، وانتظر.. تمازجت الأنفاس، وقبلها.

أمسك يديها، وتطلع إلى عينيها. افتر ثغرها عن ابتسامة مشجعة. وبان مقدم لسانها متألقاً. لثم شفتيها، وأحس بثدييها فى صدره، طريين، حانيين، فمد إحدى يديه، وبالأخرى ضغط ظهرها.

رفرفت فراشات، وغردت طيور. استشعر نعومة نحرها، ولطشه عبير عرقها. ونبض الجسدان بالحنان، ووشت اللمسات بالمودة والمحبة، وازداد الالتصاق، وشم رائحة ماء الحياة فى أنفاسها، وشمتها فى أنفاسه، واختلط العرق، وتصاعدت الحرارة.

آلاف الابتسامات، والتخيلات، والرغبات المكبوتة، ورؤية الآخر، وصحبة النساء، وصحبة الرجال، ولحظات التشوق، والتطلع، والفضول، والانتظار، وكلاهما يتعاطى الآخر، والذرات تطمح إلى الاندماج، والتداخل، كأنما لتفلت من المحدودية. وفي الصوت غنة، جعلت الطاقة المبأرة، تتدفق، مزيلة الغربة فى الرجل وفي المرأة، ولتمسك بالنفسين معًا، ومزازة حفل بها ريقها، فتشبث بها فى وله، وهي لا تفلته. ويتركز كل شىء فى كل شىء، في بؤرة شديدة الكثافة، كأنها الثقب الأسود في

الفضاء الخارجي، ولا تتحمل البؤرة، ضغط الطاقة الهائلة، فتنفذ، مما يشبه عنق الزجاجة، وتنطلق فيما يشبه لحظة الانفجار العظيم فى الكون، وقد ارتعش الجسدان، وارتجفا، وانبثقت النشوة.

كانت، لم تزل، في حضنه مستكينة، وسعادته غامرة، عندما تسللت العكارة.. انسلت، وجلست فى جانب من الكنبة، منتظرة.

لم يدر، كيف يتصرف. نهض كالمخدر، لا يعرف، هل ينعي نفسه أم يشفق عليها، أم على سمية، كل ما يعلمه، بعد أن هدأت نفسه، أنه لم يصل هكذا من قبل، وأن شوقه ازداد إليها. هل هو شوق إلى شخصها، أم لتذوق عسيلتها. وهل بعد أن علم ما علم، سيكون من الحرارة، بحيث ينعقد سكرها، وتنبثق مزازتها، التى تشبه مزازة المشمش، أو الخوخ، ومتى تنبثق مزازة الفاكهة، هل بعد أن تتسلل الريح بحبوب الحب، وتطير الفراشات بحبوب الحب، وتغرد الطيور، فوق الزهور، مداعبة بمناقيرها، ناثرة حبوب الحب.

هل سيعبق عرق سمية، ثانية، بتلك الرائحة، التى شدته أكثر، وأيقظت ذكورته أكثر، فاحتضنها بصدق ورفق وهيام، ولا يدري إلا ومزازة من ريقها على لسانه وشفتيه، فزاد هياماً على هيام.

لقد ظن وقتها، وقت أن بلغ قمة النشوة، أنه بلغ نهاية المطاف، فما باله الآن، لايري إلا أن هذا هو بداية المطاف.

كان غريباً، أن صفية، التى سبق لها الزواج، لم تمكنه منها، وسمية التى لم تتزوج تفعل. هل هذا ضد طبيعة الأشياء، أم أن هذا هو طبيعة الأشياء.

يحس الآن بالألم، كلما تذكر منظر سمية، ساعة أن تركها.

كانت نظرتها منكسرة، لا، ليست منكسرة، كانت مترقبة، وإن علق بها

ظل انكسار، فبسبب ما قد يظنه عنها، وهي تعرفه. ولم تكن فى نظرتها شبهة ندم. كانت قوية، ومنتظرة.

أين كلامك يا بطل؟ كل إنسان حر فى أفعاله، مادام ليس مرتبطًا، ولا يسيء لأحد، فلماذا تركتها دون كلمة؟

المفاجأة. شوشت الفكر لعدم التوقع. الرغبة فى التفكير بروية. لو كان ما تقوله متأصلاً فى أعماقك، ماتشوشت.

كانت صريحة معك. لم تخدعك. كانت تستطيع الانتظار، حتى تتزوجها، وتفاجأ أن هناك من سار على الدرب قبلك. أتراها أرادت أن تعلمك، لتكون على بينة. أم تري اللحظة أخذتها، فلم تملك نفسها، وحدث ما حدث.

لا يعتقد، مع فتاة قوية مثلها، ذات نظرات صريحة، وبريئة، نعم هذا ما يحسه، رغم كل شئ. فتاة كهذه، تستطيع أن تقف عند حد معين لو أرادت.. وعلى أية حال من يدري.. ؟!

بريئة.. هذا ما يحار منه.. وما يحار فيه أكثر، إحساسه أنه ارتبط بها، ولا يدري كيف. وعصف به الألم، فهي تعرف، أنه علم عنها، ولا تعرف ما يفكر فيه. فيم كان تمنعها في السابق. هل لأنها لم تكن وثقت بحبه، وبرغبته في الاقتران بها؟

وهل تعلم أمها عنها، ولذلك باركت هذا الزواج، رغم فارق السن، أم تراها لاتعلم؟

وجدت امرأتك، فماذا تطمع أكثر من ذلك.. ؟!

كان مارجرجس يستطيع أن يصبح أميرًا، ويخلف أباه فى حكم مقاطعة اللد بفلسطين، أو يصبح فارساً فى الجيشى الروماني، لماذا سلك طريق العذاب، وكان يستطيع الزواج من عروس جميلة ويتمتع بثروة أمه الفلسطينية..؟!

أما لماذا فعلت، مع غيرك، أو كيف، فما أدراك بالظروف،

وكيف تحكم دون بينة، وهل من حقك أن تدين ماضيًا، لم تكن موجوداً به.. ؟!

عجب من نفسه وقد أحس أنه يريدها.

- نحن هنا.

نهض حمدي، كاد يتعثر فى سلك التليفون المدلي فى جانب من مكتبه، تمتم فى سره: السلك ورائى ورائي. ناول سعداً الإشارة. فردها، ومر بعينيه على سطورها. تطلع إلى حمدي الذي قال:

- سعيد طبعا.

رد سعد:

- لا.. والله، كان عندي مثلك مشوار فى رفح.

طالع الورقة ثانية، ليتيقن من المكان.. عند الطريق الفرعية النازلة إلى العمق، بعيداً عن الطريق الساحلية. أسرعا خشية أن يصطدم عمال الزراعة بالأهالى.

طالعتهما بالوظة على البعد، تسبقها واحة من الأشجار المورقة، وإلى يسارها طريق معبدة، غير مرصوفة، قال حمدي:

- أعتقد من هنا.

دون أن يرد، أدار مقود العربة، وأحسا بانحدارها فى منزل. طالعتها أطلال حجرية، بقايا بيوت قديمة. وثمة ما يوحي ببوابة، خلفها كومة من الأحجار. لعلها قلعة تداعت. أتراها بقايا قلعة الفارما أيام الرومان. هل توقف عمرو هنا، وجاءه رسل قبط مصر، مرحبين بدخوله إليها؟

انطقي أيتها الأحجار.. هل دفعهم إلى ذلك عسف الرومان. لماذا لم تكن عندهم نزعة الاستقلال. هل لأنهم كانوا ممنوعين من حمل السلاح، أم أن قوانين الصراع فى هذا العصر؟ حتمت أن تسيطر قوة على العالم القديم، فإذا تراجعت أو انهزمت، حلت محلها القوة البازغة. حانت منه

التفاتة إلى مرآة السائق العاكسة، وفزع.. صورته لا تشى بحقيقته الداخلية التى يشعر بها.

خيوط معقودة وسط الجبهة، جفون ذابلة. شفته السفلى متدلية وشيء ما يعتصر وجهه.

اقتربا من الأرض. رمال على مدى الشوف. شجيرات قزمة على جانبي الطريق. السيناوية فى الأرض، وعمال الزراعة، وهم سيناوية أيضا على الطريق. أتراهم يوالون بعضهم بعضاً أمامنا .

تسابقوا وقد اختلطت الأصوات.

أشار حمدي إلى عماله أن اصمتوا. وجد من الكياسة أن يسمع الآخرين أولاً. من جهة يرضيهم، ومن جهة يكسب ودهم.

اقترب منه رجل ممصوص، أسمر، عيناه ذات جفون حمراء، تساقطت شعيرات من رموشها. وتغير بؤبؤا عينيه من اللون الأسود، إلى أزرق مغشوش. قال:

- خسارة.. الجعيثران.

لحظ حمدي، ولم يكن لفت انتباهه من قبل، نباتاً ارتفاعه شبر أو شبران عن الأرض، أوراقه خشنة، كأنها مشرشرة. استمر الرجل:

- جادت الأرض.. نخربها.

اقترب حمدي من النبات، لحظ نباتاً آخر على حافة جرف.انحني والتقط ورقة منه، قربها من أنفه.

- قيسون.. !

- قليل.

سبلت صفية عينيها، فارتج قلبه. ظن أنها خجلي منه، وأن التسبيل علامة الرضا. ويبدو أنها خمنت ما دار بخلده، فأخبرته أنها تشعر مع مطلع كل صيف بجفونها ذابلة، وتحس برغبة جارفة في حكها. باخت نفسه، واقترح عليها استخدام مرهم من مركبات المايسين، فقالت له إنها

عندما كانت فى الخارج حدثوها عن نبات القيسون، وأن كثيرين جربوه وأتى بنتائج مدهشة.

عندما حضر إلى سيناء سأل عن القيسون. أرشدوه إلى الفوالق الصخرية وسط سيناء، وسيكون محظوظًا لو وجده. أيام الاحتلال الإسرائيلى، أتي خواجات كثيرون، وكلما وجدوا نباتاً برياً، لم يتركوا منه نبتة واحدة.

لانت تقاطيع وجه حمدي وابتسم، قال السيناوي الممصوص:

- لا تؤاخذنا يا باشمهندس..

واصطحبه إلى خص، تظلله أكياب مجدولة من أوراق البردي الجافة، ذات لون بني مصفر، بينما اتسعت ابتسامة حمدي. كان فى طريقه إلى رفح، للقاء أحد العمال الذين يعبرون إلى رفح فلسطين، حيث وعده بإحضار بعض من نبات القيسون، الذي ينمو بكثرة فوق رُبى فلسطين، خاصة عند المجدل، عندما جاءته الإشارة.

أخذ الجميع يثرثرون، فى انتظار الشاى، وحمدي فى حيرة من أمره. السيناوية عندهم حق. النباتات الطبية، نادرة، وربحها مضمون، والأجانب يسعون إليها، ويصدرونها لنا مصنعة، على أساس أنها من اكتشافهم، وندفع فيها دم قلوبنا. هل ستفهم مديرية الزراعة ذلك. أبسط رد عند السيناوية: الأرض واسعة، اتركوا لنا هذه. المديرية ستقول هذه الأرض ضمن المنطقة المعدة لزراعة الموالح، وعلى السيناوية أن يقدموا طلبًا للحصول على أرض أخري، خاصة وهم يسهلون لهم شراء الأرض، بأسعار رخيصة، وبتقسيط ممل.

- ماذا قلت يا باشمهندس.

وناوله كوب الشاي. أخذه بين راحتيه وقال:

- سنجد حلاً.

بالتأكيد. لا يوجد شيء مقدس. لابد أن تفهم الزراعة الوضع. الأرض التى جادت بخيرها دون جهد، نساعدها على ذلك، بدلًا من نزع نباتها.

الأرض ضمن خطة الزراعة. نعدل الخطة. ونجعل السيناوية يقدمون طلبًا لاستغلالها. ألسنا نريدهم أن يستقروا، ها هي الفرصة، وليذهب تخطيطنا المسبق إلى جهنم.

نهض وسلم، وهم يرجونه أن ينتظر، فهذا موعد غداء، وهو يطمئنهم، ويقول إن المرات القادمة كثيرة، أم هم لا يريدونه أن يحضر.

ركب العربة وقد أخذ ما أراده من القيسون والجعيثران، معتزمًا أن يرسل القيسون إلى صفية. تتمحك ثانية. تفكر في سمية وتهدي صفية. وهل محاولتي الوصال مع سمية، تمنع أن تكون صلتي جيدة بصفية.

سار بحذاء الأرض. يقدر مساحتها، وقد اعتزم كتابة مذكرة بالأمر، وضرورة إنشاء بنك للأصول الوراثية للنبات. ألمانيا قننت مئات التركيبات الدوائية من التراث النباتى العربي.

ضحك من نفسه..

قال يعني.. حللت مشكل الأرض.. فذهبت تبحث عن البنك وقلته.

الأرض نما على حدودها نبات التين الشوكي الأحمر، أوراقه خضراء، شوكية، تشبه نبات الصبار . لشد مادميت يداي من هذا الشوك اللعين. كنا فى الساعات الأولى من حرب يونيو. انقطعت خطوط المواصلات السلكية. كلفني قائد الكتيبة مع نفرين آخرين للبحث عن الخطوط المقطوعة وإصلاحها.

لا دراية لي بهذه المهمة. زميلاى مشيا يتبعان الأسلاك المغروسة فى الرمال، وغارات طائرات المستير الإسرائيلية لا تنقطع، وأصوات رشقات الطلقات تسمع في جنبات الصحراء. قلت لنفسى.. لماذا أموت فى مهمة لن أفعل فيها شيئًا. تباطأت حتى اختفيا عن ناظري، وعدت إلى الكتيبة، لم نسمع عنهما شيئًا بعد ذلك. ما ضر لو ذهبت معهما.. ربما مددت يد المساعدة. نظر سعد إليه وقال:

- هل ما زال العزم موجوداً

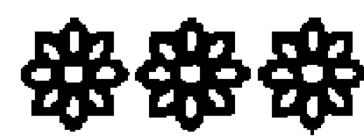
- رفح

نظر إلى ساعته، وهو يردد فى خاطره.. هل استطاع العامل أن يتقصي أمر الآبار عند المجدل كما طلب منه. قال:

- الوقت لا يسمح.

ومتى سيسمح الوقت، ليزور وسط سيناء، ويرى الفوالق الصخرية بنفسه. سمع عن نبات هناك، يصنع منه بروتين، تزيد حلاوته عن حلاوة السكر، ولا خوف على مريض السكر إذا تناوله. كم ستسعد أمه بذلك.

تري.. هل الفوالق وسط سيناء، امتداد للشرخ فى قاع خليج العقبة. تخيل الخريطة ونفي الأمر. لو قدر لهذا الشرخ أن يستمر، سيشطر إسرائيل إلى نصفين طولياً ويعزل الساحل عن الداخل أم هذه أضغاث أحلام. الطبيعة فعلها بطيء. ومن يدريك. قاع البحر الأحمر غير مستقر، ومكمن للزلازل. فى لحظة تجد العالى فى الأسفل. ويتحول الإسرائيليون إلى نفاية وطعام للأسماك، وقد تحتفظ الصخور ببعضهم متحجراً، يقال أن الحيوانات تحس بالزلزال قبل وقوعه. سوف تكون علامة واضحة، عندما لا تحط الطيور المهاجرة من أوربا على سواحلنا.



43

ظل حمدي يتعجل حضور سعد. ولما كان قلقًا، ولم يستقر على وضع، فقد ترجل حتى بيت سعد، في حارة متفرعة من الشارع الرئيسي بالعريش، على يمينه وهو آت من ناحية البحر. بيت من دور واحد. طرق بابه، ولما لم يرد أحد، دفع إحدى ضلفتيه برفق، وخطا إلى فناء واسع، اصطفت عدة حجرات على ثلاثة أضلاع منه، وظهرت من خلفها العمارات الحديثة. صفق بيديه وهو يقول «يا «ساتر»، أطل سعد من إحدي الحجرات، أشار له بإحدى يديه وأسرع إلى دورة مياه في زاوية بعيدة، ليفك ماءه.

اقترح سعد أن يتناولا فطورهما أولا.

- لا وقت لدينا.

فى نفاد صبر:

- إلى أين..

انفجر حمدي ضاحكاً، فهو لم يحدد وجهته بعد. تلقى مكالمة هاتفية في الصباح ليتوجه ناحية بحيرة البردويل، وكان يعتزم الذهاب إلى رفح وفاءً لموعد مع صديقه العامل. إذا فرقع موعده هذه المرة، فربما فقد ثقته به.

قال سعد وهو يدير محرك السيارة:

- اركب وفكر على مهلك.

خرجا من الحارة إلى الشارع، أغلب بناياته عمارات حديثة مرتفعة، وفنادق سياحية، ومحال تجارية تزخر بمختلف المعروضات.. أقمشة مستوردة، وعطور باريسية، ومصنوعات جلدية إيطالية وإنجليزية.. بعضها مضروب ومصنع فى هونج كونج وسنغافورة. ومحال تعرض إلى

جانب أحدث أنواع الشيكولاته، والفاكهة، اللوز السيناوي صغير الحجم، وزيت حبة البركة. وعربات يد محملة ببنطلونات الجينز وقمصان حريمي من النايلون الأحمر الفاقع، وأدوات الزينة، وإعلانات النيون فى الميدان، قد خبا ضوؤها فى شمس النهار.

دخل سعد حارة جانبية، خرج منها إلى الشارع الرئيسي القديم، وهو مواز للآخر. ورغم أنه يفتقر إلى المارة، فقد أحس حمدي بألفة.. ربما لسابق معرفته به حين عسكر مع وحدته بالقرب من المدينة عام 67.

طالعتهم المقاهي البلدية، والعمال يحتسون الشاي ويدخنون البوارى. وأمام واحدة، مقامة فوق مصطبة مثلثة، ركن سعد العربة. لم يعترض حمدي ونزل بهدوء.

صعدا عدة درجات. وجلسا إلى ترابيزة، غير بعيد عنهما تليفزيون أبيض وأسود، يبث أغنياته. تنبه حمدي إلى أن اليوم أحد، وأنهم يبثون مبكرًا برامج اليوم المفتوح.

أحضر سعد لفتين من البسكوت. فك حمدي غلاف واحدة، وهو لم يحسم أمره بعد. نفخ فى غيظ. حجزت الشرطة بعض عمال الزراعة. هل أفقنا من مشاكل الزراعة، حتى نواجه بمشاكل الصيادين. ترى ماذا هناك؟ هل الأمر المعتاد، صيادو دمياط وبورسعيد، خرجوا إلى البحر فى مراكبهم، واقتربوا من البردويل، يصطادون أمهات السمك، أثناء خروجها أو إيابها إلى البحيرة. لا توجد عندهم رحمة.. يصطادون الأمهات، بشباك، من كفرهم، دقيقة الفتحات فتحصد معها الزريعة الصغيرة فيفسد موسم الصيد الغالى. فإن لم يكذبني حدسى بالنسبة للجو، فهذا موسم التكاثر، وفيه تنشط الهجرة والعودة، من وإلى البحيرة.

وصيادو سيناء يعرفون المواعيد. هل تجمهروا عند البحيرة، ووعدتهم الشرطة بالقيام بالواجب. أي واجب.. ومراكب البحر الكبيرة، لن يجدي معها إلا لنش كبير، وسريع، يمكنه المطاردة واللحاق بها.

هل تأزم الموقف، وهم المجربون لوعود حرس الحدود من قبل، أطاحوا بهم، فاحتموا بعمال الزراعة، وجاءت الشرطة فأخذت العاطل مع الباطل. وما ذنبي أنا..؟!

- «ذنبي في حبك أني بحبك»

وهل أحبتني صفية يومًا.. ؟!

تطلع إلى الشارع، حيث الميدان من بعيد، وشرطي ينظم حركة المرور.. وغير بعيد منه مباني المصالح الحكومية ومبنى المحافظة..

فكر في العودة، ليتنسم خبرا جديدا، يساعده على اختيار وجهته. أم يغادر إلى البردويل، ويتوكل على الله. وأخونا المنتظر في رفح.. ؟

ركبا العربة، وسعد يتطلع إليه، فأشار إلى مَنْزل الشارع. في الأسفل، إلى يمينه. وهما يغادران العريش، طالعته مصاطب المقابر، تنخفض وترتفع حسب التباب الرملية. وقد نمت أعشاب قليلة، لم تطغ على لون الرمال، التي بدت مشبعة بنمنمة رمادية، كأن طوابير نمل كثيرة، تزحف ببطء،. وتعجب من كثرة المقابر.

وحين كان سعد على وشك الانحراف يسارًا، إلى الطريق الساحلية، قال حمدي:

- خذ يمينك..

تطلع إليه سعد، ويبدو أن عينيه فضحتاه. ما دام ينوي الذهاب إلى رفح، فما الداعي لهذه اللفة، ألم يكن أوفر لهما أن يأخذا الطريق الظريفة شرق العريش، تحف بها أشجار الزيتون المورقة. كما أن بوسعهما الآن الاتجاه، يمينًا بعد الوصول للطريق الساحلية. أوفر وأسرع.

- الدنيا لن تنهد.. لو تأخرنا ساعة، أو بعض ساعة.

ضغط سعد دواسة الوقود، وانسابت العربة من الطريق الساحلية إلى طريق ضيقة، ملتوية، فكان يضطر لتخفيف السرعة، وعلى مدي البصر من الناحيتين، أرض رملية، مزروعة بأشجار اللوز الكستنائية، قصيرة القامة.

وأشجار المانجو عريضة الأوراق، يانعة الاخضرار، وتلوح أشجار البرقوق على البعد، وتسيج الأراضى أسوجة قصيرة من نبات التين الشوكي لا تكاد تلمح ثمره الأحمر، بين الأوراق الشوكية، وقد لطفت المزروعات من هجير الصحراء.

تنفس حمدي بعمق.. كنا فى عرض نسمة من هذا العبق فى يونيو 67

ولما لم تعد تطالعهما أشجار الزيتون، أحس حمدي فى داخله، أنهما غادرا وادي العريش.. نزلت العربة، صعدت ثانية.. مبان على الطريق.. مدرسة بحذائه.. امرأة أمام مبني من طابق واحد.. وغير بعيد منها أطفال..

آه.. كنا فى عرض صريخ ابن يومين..

فجأة غمرت الأرضٍ مزروعات كثيفة.. من المانجو والخوخ، وصنعت الطبيعة أغواراً متسعة بين التلال الرملية تتسامر فيها أشجار اليوسفي والبرقوق والخوخ.

قالا فى نفس واحد:

- الوادي الأخضر..

بما يعني أنهما على وشك الوصول. وكلما صافحت عينا حمدي أوراق الأشجار اليانعة، تأكدت له عذوبة المياه الجوفية، رغم القرب من البحر المالح، واطمأنت نفسه.

خرجا مِن الطريق الجانبية إلى مفترق، تتعامد عليه الطريق الرئيسية. عرجا شمالاً فى الطريق إلى رفح.. طالعتهما لافتة كبيرة تعلن عن فيلم فى قصر ثقافة العريش، وامرأة ترتدي فستانا بفتحة أعلى الساق، وقد اتكأت بكوعها على حشية مستديرة، وبيدها الأخري تهم بوضع سيجارة بمبسم طويل، فى فمها.

والله أوحشتنا يا «ترسو» سينما عدن على بابه مكتوب بخط رديء «العمريطي مستعد للشكل»، وكنت دائما أتساءل هل هو من

«العمارطة».. تجار الحلوي المشهورين فى المنصورة، أم هو من فرع فقير. كانت تذكرة الدخول باثنين وعشرين مليما.. لماذا ليست بعشرين.. أو بخمسة وعشرين.. المليمان.. لم يكونا متوافرين دائمًا.. نعطى الرجل قرشين ونصفًا، فيعطينا بالباقى صورة ملونة لأحد الممثلين أو المطربين.. وأحيانا كتيبات بها أغان للكحلاوي وشكوكو وليلى مراد. وأحياناً كتيبات بها قصص الحمال والسبع بنات، وأبى زيد الهلالي، وفاطمة بنت بري.

مرة فوجئت بالرجل يعطيني صورة بها ضباط، ومكتوب أسفلها بخط عريض: «مجلس قيادة ثورة يوليو 1952».

نظرت له فضحك وقال:

- دستة ملوك بثلاثة مليمات..؟!

وجد العامل فى انتظاره بالمقهي، فى الشارع المؤدي إلى بوابة الحدود. اعتذر له عن تأخره، حيث لم يسلك الطريق الساحلية المباشرة، ليطمئن على الزراعة فى بعض الأغوار.

أنبأه العامل، أنهم يحفرون آباراً أعمق من المعتاد. قطب حمدي جبينه، ومط شفتيه. قال العامل:

- لاحظ أن أرضهم فى العالي.

رد حمدي

- لا يمنع..

وبعد أن تبادلا الحديث بعض الوقت نهض حمدي، وهو يشكره، ونادي ليدفع الحساب، فزام العامل وأصر على أنهما ضيفاه. ركبا العربة، وحمدي يطلب من سعد أن يسرع..

تري هل انتهي الأمر على خير.. أم احتجزوا عمال الزراعة، حتى يحضر، ليضمنهم، ويكتب تعهداً بعدم عودتهم لذلك مستقبلاً. وهل يستطيع أن يقف حائلاً بين سيناوي وآخر. يضحكون علينا أم على أنفسهم. هذا هو المطلوب.. فلا داعى للفلسفة. ألا تكفي البورسعيدية والدمايطة» الأسماك جهتهم.. أم

هنا الأنواع أفضل.. لعلهم سمعوا عما فعله الإسرائيليون عندما كانوا هنا. كانت طائرات «الشارتر» تحمل يوميا أسماك الدنيس طازجة إلى مطاعم إيطاليا وفرنسا بملايين الدولارات سنويًا. وليتهم يحضرون في موسم الصيد. وبالتأكيد اهتبل صيادو عزبة البرج الفرصة وحضروا بمراكبهم الصغيرة، لعلهم يصيبهم من الحب جانب.

حل النحس بأهل العزبة، بعد أن كان رزقهم وفيراً من السردين الذي كانت تجذبه رائحة طمى النيل عند المصب، وعندما امتنع بعد حجز الماء فى أسوان وترسبه خلف السد العالي، كانوا يرحلون إلى السواحل التركية والليبية، وأحيانًا اليمنية. وكثيراً ما نشرت الجرائد أخبار القبض عليهم.

فجأة انطلق حمدي ضاحكاً. التفت إليه سعد.. وعاود النظر إلى الطريق.

- تراهني.. ؟!

لفت وجهه بسرعة متسائلا.

- سنجد المراكب الكبيرة أقلعت، وقبضوا على صيادي عزبة البرج.

ضحك سعد بتؤدة، كأنه يبتلع شيئًا بين الضحكة والأخري. وتناوب الخبط بيديه على عجلة القيادة. التقط حمدي جريدة، ابتاعها من رفح، مضي على صدورها عدة أيام، مر بسرعة على عناوين الصفحة الأولى، وقلب الصفحات.

«القبض على رئيس نقابة العاملين بالإدارة المحلية»

عدة سطور ورفع رأسه..

محام ويختلس، ويتنزه فى أوربا مع سكرتير النقابة، وعلى حساب العمال.!

أعاد رأسه للجريدة، وقد استوقفه اسم المحامي.

يا خبر.. الذي جمعنا عنده فى مكتبه بالمنصورة، لنسافر إلى بورسعيد أيام حرب 56، وننضم إلى الفدائيين.

لماذا أنت خائف من حل التنظيم. الناس موجودة. ماذا سيجري لها. نظرت إلى صديقى القيادي، وكان أديباً أحببته، وتعجبت للثقة والمرح فى حديثه. ووشت رنة صوته بالفرح لأنه التحق بالتنظيم الطليعي. ولم أستطع أن أفهم، كيف يكون عبد الناصر فى السلطة وينشئ تنظيماً سريًا. وأعلن خلفه الرئيس السادات أنه سيمشي على خُطى عبد الناصر. ومشي عليها فعلا، ولكن بأستيكة.

فرمل سعد فجأة، فاندفع حمدي بجسده إلى الأمام، حتى كادت رأسه تصطدم بزجاج العربة. لمح قطة تقفز بسرعة إلى جانب، فكظم غضبه.

جاء صوت سعد هادئًا:

- اقتربنا

نظر حمدى له بغيظ. وانصرف فكره لما هو مقبل عليه.

لابد مما ليس منه بد. وأخذ يهون على نفسه لقائه مع الشرطة، ومع خفر السواحل وما ينبغي أن يقال.. راجياً ألا يكون الأمر قد تعقد..

جاءني موظف الأمن فى مديرية الزراعة بالعريش وقت العصاري.. عزم نفسه على كوب من الشاي. يا مرحبا. وعند الغروب صعدنا إلى السطح.. ننظر إلى البحر.. ونغسل وجهينا فى أشعة الشمس.

لمح الموظف فى جانب من السطح، ما يشبه المهاد من خرق قديمة، صنعته قطة تتردد على البيت. ولست أدري ما الذي استفزه من ذلك.. فجأة حمله وألقي به من فوق السطح.

نظرت إليه متعجباً.. فردد ببرود أنها بيئة صالحة لاجتذاب الحشرات. أردت أن أصرخ.. ما شأنك.. ساعة وتنصرف، فلماذا تفسد على أمري. ومن فرط غيظي لم أستطع التفوه بكلمة. نزلنا وقد حُرمت متعة استنشاق بعض الهواء النقي. سرعان ما حط الظلام. سمعنا حركة على السلالم. صحنا فى نفس واحد: القطة. عاودت القطة الصعود والهبوط، وأخذت تموء مواءً ممطوطاً، غاضبًا. نظر إلى موظف الأمن وقال: تشتمني.

44

ترجل حمدي في الطريق الساحلية. فندق سياحي عن يمينه، وشمسيات متناثرة قرب الشاطئ الفسيح. والكراسي خالية، إلا من نفر قليل يسرحون في الملكوت، في سويعات ما قبل الغروب. وبيوت متناثرة، غافية، بين أشجار النخيل، على الجانب الآخر من الطريق. والعريش ببيوتها القصيرة خلفه، وذهنه ما زال يلوك ما حدث من عدة أيام. هل يتحدث مع الصيادين، لينشئوا جمعية، تتولي شراء لنش سريع، يمكنه حراسة البحيرة من تعدي صيادي دمياط وبورسعيد. سيتحرون، وإذا عرفوا أنه وراء المشروع، سينقل من هنا، وعلى مشروع الخوخ العفاء. فليكن بشكل غير مباشر. يتحدث مع من يثق به من عمال الزراعة، وهم يتولون الأمر.

استعاد في ذهنه بعض النقاط التي تتردد على ألسنة الصيادين..

تتولي شرطة المسطحات المائية الأمر بدلاً من سلاح الحدود. قد يتعللون بالأمن القومي أو ما شابه، دعك من هذه النقطة. السماح للمراكب الكبيرة بالصيد في أعالي البحار، ويسمحون للصيادين باستخدام محركات عالية. من أين المال.. من أرباح جمعية يساهم فيها الصيادون. آه.. رجعنا للجمعية ثانية. تمثيل الصيادين في مجلس إدارة البحيرة. سينظرون لك شذراً. فلينظروا. قوة دفع مناسبة للمياه من البحر إلى البحيرة للحفاظ على نسبة الملوحة المطلوبة. ممكن. مد الرصيف الغربي من البوغاز الشرقي إلى داخل البحر، وإغلاق الفتحة خلف الرصيف التي أحدثها

النحر. عليك وعلى المحافظة.

كان وقت الضحى، وهو يسير عند أطراف بحيرة البردويل، عندما قالوا له:

- أنت أهل لها يا باشمهندس

مشيرين إلى صلته بالمحافظة بحكم عمله.

- ربنا يسهل

وواصل سيره، يتأمل صفحة الماء الرائق، تداعبه مويجات هينة.

غصت صفحة الماء قرب الشاطئ بالمراكب فى حرب يونيو. وقام الصيادون بتحميلها بالجنود المشردين فى الصحراء، غير مبالين بتحذيرات الإسرائيليين. وطلقات مدافع الفيكرز التى تلاحقهم.

شق صفحة الماء لنشان سريعان، أحدهما معلق فى مقدمته مكبر صوت، يذيع تسجيلاً لطلقات رصاص. والثاني معلق فى أحد جنبيه مكبر صوت يذيع تسجيلاً لاستغاثة طائر عجاج مصاب. وطيور العجاج عاجزة عن تكوين جدارية، تقتحم بها الماء. طارت فرادي، مضطربة.. بعد قليل لمت شملها فى بقعة من الأفق، وإذا ببالونات على هيئة طيور جارحة تلاحقها، ففرت مذعورة إلى عرض البحر.

وضحك حمدي.. لن تستطيع الطيور أن تحط على الشاطئ، أو بالقرب من الملاحات، فقد وضعوا لها مواد حريفة. وبدت طيور البشاروش، وخلفها طيور العجاج، كأنها اتشحت بالسواد، تتماوج على غير هدي، وقد غادرتها النشوة، التى كانت تلوح منها، وهي تنقض على أسماك الدنيس الفاخرة. وتهادت على صفحة الماء مراكب الصيادين، بلون واحد. كانت جمعيات تجار الأسماك، قد حددت لونًا لمراكب العرايشية، وآخر لمراكب البدو. فكثيرا ما وقعت بينهما المشاجرات.

ترى.. هل هذا سبب ترقيته المفاجأة؟ أخبره صديق بمديرية الزراعة

بالدقهلية، أنه مرشح لتولي منصب مدير إدارة، وكل ما عليه أن يقدم طلبًا لإلغاء انتدابه والحضور فورًا. لماذا الآن.. وقد اشتكى مراراً بأحقيته بالمنصب، منذ حصل على الدرجة الأولى من عدة سنوات. وحدت لون المراكب، وغداً تنشئ جمعية لثلاثة آلاف صياد، يملكون ثماني مائة مركب، يبرطعون فوق بحيرة مساحتها ما يقرب من مئة وسبعين ألف فدان.

- يا ليل ويالا ويالا لا.

تطلع إلى المركب المقترب، وتمتم فى نفسه: من السواركة. لماذا لا يغني الفواخرية نفس الأغنية.. ؟! حانت نظرة منه نحو البيوت المتناثرة، وتساءل عن بيت محمد عايش. زادت كثافة النخيل بالقرب من الطريق، وخلفها الرمال مترامية، حافلة بالتباب والمهاد. وقد نمت فى غير مكان نباتات وحشاش برية. عبقت أنفاسه بأريج. إذا لم تخنه الذاكرة، فهو الجعيثران.

فكر أن يعود، ليتكلم مع خال ندا عن تدابير الخطوبة وعقد القران. لم يشعر بميل إلى ذلك. كان الكدر ما زال عالقاً بنفسه من حمأة سعد، كان العايدي بين المقبوض عليهم، وأجلوا الإفراج عنه لمزيد من التحريات كما قالوا. لم يسترح لنظرات سعد متهما إياه بالتقصير ورده عليه حين علق:

- كان مستريحاً فى المقهي، ما الذي أتى به.. ؟

- أنت الذي تقول ذلك..؟!

وماذا عليه لو أخذ بعضًا من زهور الجعيثران لأم سمية، التى تشكو من مغص فى أحد جنبيها، وتخشي أن تصاب بفشل كلوي.

وبأي وجه يقابل سمية.. ؟!

كان قد ألمح لها أنه متضايق، من حملقة الرواد فى جسدها، ومن نظراتهم غير المريحة.

- وافقت على خطبتي وأنت تعرف طبيعة عملي.

لم يجد في نفسه الجرأة، لأن يطلب منها التخلي عنه، ومن مدة وجيزة تألقت عيناها بالفرح وهى تخبره بترقيتها إلى رئيسة قسم الاستقبال، وأنها اختارت زميلات للعمل معها ترتاح لهن، وحدثتهن بضرورة معاملة المصريين المترددين، نفس معاملة الأجانب الباشة والودودة.

في البداية ظن أن العبور وشيك وأحس بالخطر على نفسه وعلى زرعه، ولما طال الأمر، انتقل بزرعته إلى الصالحية. وبعد أن ترعرعت، أخذ من نتاجها شتلات جديدة، واقترب ثانية من شط القناة، حيث البيئة مناسبة، رملية، وليس بها شيء من طمي النيل. بعد الحرب طالت المفاوضات، وحين استردت مصر سيناء، كانت الشتلات التي استنبتها فيها، من الناتج الثالث. ورغم اطمئنانه، كان متوجساً ألا تصح التوليفة في التربة الجديدة. وعندما صحت.. شعشعت أعطافه.

هل لهذا فزع عندما رأى وجهه في مرآة السيارة، لا يعبر عما يمور بداخله.

وأخذته الحمية، ونوى عمل بحث عن الأصول الوراثية للنبات. مقاومة الأمراض، تحمل الجفاف، والملوحة، ورصد صفات الخوخ الثمرية ومواعيد نضجها.

واكتشف أن المحلي من أنواع السلطاني والفرك والحجازي والمادوي والشامي والنيلي، يفوق الأجنبي من حيث النكهة والمذاق.

واقترحت سمية عمل جدول بالأنواع مبكرة النضج ومتوسطة النضج، وأضاف هو: ورصد تنوع اللب من برتقالي إلى أبيض وأحمر، وعلاقة ذلك، إذا كانت هناك علاقة بقوة نمو الشجرة، ونتاجها العالي. وسمي لها ثلاثة عشر نوعًا تعتبر من أجودها وأنه لابد من تطعيمها على أصل التيماجارد والأوكيناوا.

لفتت سمية نظره أنه لابد من زرعها كأمهات. و لم يملك نفسه من

الضحك وهو يسمعها تقول:

- ومتابعة نموها الخضري والزهري.

وأضاف:

- وعمل بصمات وراثية لهذه السلالات.

طبع قبلة على شفتيها، استسلمت فضغط بشدة. فلفصت محتجة:

- ماذا؟

- بصمة.

انحنى يقطف بعض زهور الجعيثران. لو قابلته سمية بوجه مربد. سيزعم أنه لم يأت من أجلها. جاء ليرى ماذا صنعت أمها فيما أثاره معها بشأن تصاريح الصيد من البحيرة، حيث يؤجر الواحد بأربعة آلاف جنيه ويباع بثمانية وعشرين ألف جنيه.. هذا فى الوقت الذي يتم فيه تحصيل رسوم عن كل كيلو سمك يستخرج من البحيرة.. وتساءل.. كيف زادت الديون على الصيادين من خمسة آلاف جنيه غداة الاحتلال الإسرائيلي.. إلى أربعين ألف جنيه الآن؟ ولماذا انخفض نتاج البحيرة للتصدير إلى ما قيمته ثلاثون مليون دولار سنويًا، أقل مما كان يصدر الإسرائيليون بعشرة ملايين على الأقل؟

تطلعت إليه أم سمية، وقالت:

- كان الإسرائيليون ينزحون البحيرة.

فكر أن يسأل أم سمية مساعدته فى الحصول على شقة فى المساكن الشعبية بالمساعيد، لكنه نحى الفكرة جانبًا، خشية أن تظنه يحاول الابتعاد عنها من أولها. وعجب من نفسه لماذا لم يفكر فى هذا من قبل، وكانت العمارات، خالية لا تجد من يسكنها، والآن بعد أن نبهته حمدية، رجا أن يكون الحظ من نصيبه.

ومع أن حمدية اقترحت ذلك، فقد رفضت، أن تنتقل مع أمها للعيش

معه فى العريش، إذا تأزم الموقف بالنسبه لشقتهما.
تركها حزينًا، كاسف البال، وقد تفهم تلميحات حمدية عن الأم، رجلها والقبر، وما يعنيه ذلك من مشقة لو قضيت بعيداً عن المنصورة.
مشى فى شارع بورسعيد، والمساء على وصول.. دار ابن لقمان إلى يساره.. أزعجه ازدحام الشارع المؤدي إلى كوبري طلخا الجديد.. كان فى المدرسة الابتدائية عند بناء الكوبري.. لم يكن الشارع مفتوحًا، كانت مدرسة التربية النسوية أمام موقع الكوبري.. وكان ما يسير فيه الآن شارعًا جانبيًا، تحيط به البيوت القديمة ذات الأبواب الخشبية الكبيرة. دار القاضى ابن لقمان.. هدموا الصف المواجه لها لتصبح الطريق ذات اتجاهين.. وهدمت المدرسة لينساب المرور إلى الكوبري..
وقامت فى باقى دار القاضي، عمارة كبيرة، جاورتها أخريات، ذخرت بمحال بيع الأدوات الصحية والأحذية والمشمعات والأقمشة، ولم يحتفظوا إلا بالحجرة، التى يحضر السياح من فرنسا لمشاهدتها، الأمر الذي أثار دهشته وهو صغير، فليس فى الحجرة التى قضى فيها لويس ملكهم، فترة أسره، سوي كنبة عادية، كان ينام عليها، وخزانة خشبية مثبتة فى أحد الحيطان، ليس لها عمق، وبها ضلفتان جرارتان، وثمة شباك صغير يطل على فسحة صغيره بعد مدخل البيت، تغلقه عصفورة خشبية، وباب الحجرة أصغر من باب البيت، الخشبى الكبير، ويغلق مثله بمصاريع خشبية. وللحجرة شباك يطل على الشارع، مكون من مربعات خشبية، كعقلات القصب، قصيرة، ملفوفة، تصل العقلة بالأخرى كرات خشبية، وخلفها ضلفتان مغلقتان. وتظهر عروق السقف الخشبية، ذات اللون البني الغامق، تتدلي من وسطها مشكاة. وتصعد إلى الحجرة، بسلم خشبى، لا يتجاوز اثنتى عشرة سلمة، إلى جانب منه على الأرض قدر رخامي أبيض مجزع بخطوط سوداء خفيفة، لا يتجاوز ارتفاعه نصف

متر، لشرب الماء، وتحته قاعدة رخامية مجوفة، للاغتسال.

وأطيح بمئذنة جامع الموافي المجاور، وكانت قصيرة، ومن نفس العصر، وغيروا بعض حيطان الجامع، وفي النهاية أجهزوا عليه، وأقاموا آخر ذا طراز مختلف.

واقتطعت قطعة أرض من باحة أمامه، وأصبح متعذرًا الدخول من بابه الرئيسي الذي كان ينبسط أمامه ميدان الموافي. دخل نصف الميدان فى الشارع. ونصفه الآخر قامت به محال خردوات، وازدحمت الأرض بعربات بيع مناديل الرأس الملونة والمزدانة بالترتر، والجوارب والرفائع النسائية، وأدوات الزينة.

وشق الشارع سوق التجار، الشهير بسوق الخواجات إلى نصفين. وإذا أردت دخول الجامع من بابه الخلفي، عليك أن تعرج من سوق التجار الشرقي، حيث محال بيع الأقمشة والخردوات على جنبيه، وسقفه مغطي بأقمشة قديمة، لا تسمح بسقوط الشمس والمطر، ويحتك المارة ببعضهم من الضيق والتعرج، ومن تفاديهم للملابس المعلقة على شماعات فى مقدمة المحال. وتدخل يمينًا فى إحدي الحارات المبلطة بمربعات من حجارة البازلت القمحية، تلك التى جعلت سنابك خيل فرسان لويس تتزحلق، ويحاول راكبوها الهرب، فيجدون الحارات مسدودة، وسرعان ما تنهال عليهم النساء والأطفال والشيوخ والرجال، بمخارط الملوخية وأغطية الحلل النحاسية، وأيدي الهاونات، وسكاكين الجزارين، وكل ما تطوله أيديهم.

وفي هذه الحارة، ستعوقك عن السير، بضاعة التجار المرصوصة، تزحم الطريق.

عرج يساراً فى شارع السكة الجديدة، ليلتقط عربة أجرة، تذهب به إلى محطة الباص إلى العريش. خلفه مسجد الصالح أيوب، بخطوطه

العريضة، بعرض حيطانه، طوبية وبيضاء كالحة. وقامت خلف مئذنته، عمارة كبيرة، ذات شبابيك زرقاء، فأصبحت تتبينها بصعوبة، وكنت تراها سامقةً من أول السكة الجديدة، من ناحية المحطة، والسماء خلفها، بلونها اللبني الخفيف، تسبح فيها نتف قطنية، ترق وتنتشر.، وكلما اقتربت، لاحت لك المئذنة بحجارتها الجيرية متماسة دون مونة وظهرت شرفاتها الثلاثة. الأولي، مقسمة إلى شريفات وهمية، بين واحدة وأخري ما يقرب من متر ونصف، وفي عنق المئذنة مقرنصات محفورة في الحجر، تعلوها الشرفتان الأخريان، كل منهما مسورة بخطين من الحجارة، بينهما زخارف من الحجارة نفسها في الفراغ، ويسمق عامود المئذنة، متوجاً بمسلة صغيرة، مخروطية، فوقها هلال، وكلاهما أخضر داكن.

ركب عربة، استجاب سائقها لإشارته، وأخذ يردد في خاطره، بيت الشعر الذي طالعه مراراً عندما كان يزور بيت القاضي، وهو صغير..

دار ابن لقمان على حالها.. والقيد باق والطواشي صبيح

ترك الطريق، وعرج يساراً. انحني على النبات، مرر أوراقه المشرشرة بين راحتيه. عيدانه تشبه عيدان البازلاء. وأخذ يتشمم النبات. الجعيثران بالتأكيد، أو ابن عم له. عل أية حال زهرته ليست غريبة عليه.

رفع رأسه، لاح له البيت على البعد.. محمد عايش.. لماذا لم يفكر فيه وهو سيناوي مثلهم، وسيتفهم الموقف بسرعة، والأهم ثقته به. وهل سيفوت الجهات الأمنية الربط بينهما، لو شمت خبرًا بما قد يحدث.

انتفض فجأة، وقد سمع حفيفا. لمح ما يفلت سريعاً بين عيدان النبات، المنتشر على الرمال الرطبة.

تمتم، غير مصدق:

- أبو مريرة..؟!

بالتأكيد هو، فظهره مرصع بخطوط سوداء عريضة، بينها خط برتقالي،

وبطنه الزاحفة تظهر حوافها الصفراء. قدر طوله بما يزيد على نصف متر، وهو لا يخفي إعجابه بجماله. لكن آه.. من هذا الجمال. مد يده محاذراً، من لدغته، التي لا علاج لها في هذا الهو، ليأخذ بعض الزهرات لأم سمية. مرر زهرة على خده، مستريحاً لملمسها وقال في نفسه: جمال مؤذٍ وجمال شافٍ. ترى.. هل علم محمد عايش بما حدث، فيوفر عليه نصف الطريق.. أم يتعين عليه أن يخبره عن تجمهر الصيادين؟ كانوا يتصايحون؟ ومكبرات الصوت تحثهم على الانصراف، مع وعد بالإفراج حالاً، عن المحتجزين. وأن مشكلهم في طريقه للحل.

استمرت مكبرات الصوت تزعق دون ملل، واشتد القيظ والغيظ.

ظل الإسرائيليون يذيعون دون ملل «أنت تذيع بياناً ونحن نذيع بياناً أن الطائرات الأمريكية ضربت طائراتنا على الأرض صباح الخامس من يونيو» حتى تعبت أعصابنا.

وهل هذا حقًا صوت ناصر يحادث الملك حسين «وإذا لم يكن فكيف نشكك في صحة التسجيل، ونتساءل.. أمكنهم توليفه.. ومع استمرار الإذاعة، غادرتنا عصبيتنا، وأخذ كل منا، عندما يقابل زميلاً، يبادره:

- أنت تذيع بياناً، وأنا أذيع بياناً..

ثم ننطلق ضاحكين، وقد غابت نظراتنا في المجهول.

سمع الحفيف ثانية، وكان يسير بين النخيل، والأرض معشوشبة. اللعين.. يبحث عن مكان رطب بالقرب من جذور نخلة.. أم هو يجد في أثري..

بالقرب منه مدق مرتفع عن الأرض، أسلم له أن يمشي عليه. أغلب الظن كان شريط السكة الحديدية للعريش يمر فوقه.

عندما رأيناه، تجمعنا حوله في دهشة، وقد أعلنت للتو دولة إسرائيل في فلسطين.

كان أبيض البشرة، فارعاً، عيناه ضيقتان وفي اخضرار الفيروز. يضع

حمله من الأقمشة عن كتفيه، أمام عتبة أحد البيوت، وتتجمع النسوة حوله. وباله طويل، سواء في تعريفهن بنوعية ومتانة أقمشته، أو في مداعبتنا وعدم نهرنا، عندما نلتف حوله، وأحياناً نتبعه ونشاكسه.

وكنا عندما نراه قادماً، نسرع لإخبار أمهاتنا بوصول «سمعان كتف» كما أطلقناعليه.. هل سخرية منه أم من أمهاتنا اللاتى فضلنه عن صاحب محل الأقمشة الشهير سمعان صيدناوي.

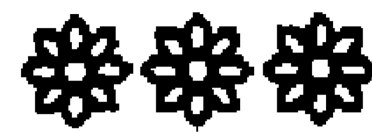
ولمح السؤال على وجوهنا: لماذا لم يسافر.

جلس وقد غادرته بشاشته، وبدا نافد الصبر، وقال:

- لم تكن القدس بعيدة عني.. آخذ قطار العاشرة إلا ربعاً من محطة القاهرة.

ترك المدق، وخطا على الأرض المعشوشبة، في الطريق إلى بيت محمد عايش، وبالمرة يكلمه في أمر سمية. الحفيف ثانية. كان المظنون أن أبا مريرة اختفي، وأنه لا يظهر إلا في فلسطين.. لكن ها هو يعاود الظهور. ربما كثرة الحركة وإعداد الأرض للزراعة، تقضيان عليه. أم أن الرطوبة التي كسبتها الأرض من الزراعة، ومساحات الظل الناتجة عن التشجير، تجعلانه يلبد هنا.

تابعه بناظريه، يظهر ويختفي، ثم توارى وراء جذع نخلة مبتورة.



45

- ما قولك يا بنت الحلال..
- ...
- لا يصح تركه وحيدا يوم فرحه
- أمى مريضة ولا تتحمل مشاق السفر
-عربة ستأخذها، من الباب للباب
- الطريق طويلة
- نستريح قليلا فى الإسماعيلية
زامت حمدية، تبحث عما تقوله، قال صفوت:
- وبالمرة تشجعين صفية على الحضور
عادت تعافر ثانية:
- لن نأخذ راحتنا عند أناس أغراب
- أصبحوا أهلنا الآن..
وأشار إلى باب الشرفة، مستئذنا ليفتحه.
- الشمس

تركته لتعد الشاى، نهض لمواربته، ملتمسًا نسمة هواء. عشيت عينيه أشعة الشمس، كأن القرص متربص خلف الباب.

اعترض حمدي على موعد تطوير الهجوم. قال عبد السلام فاروق:

- لم يكن هناك خيار أمامنا، أوقف الإسرائيليون اندفاع السوريين فى المرتفعات السورية المحتلة، وكان لابد من التخفيف عنهم، خاصة ونحن نشعر بالامتنان لهم. ففي الساعة الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر، كانت الشمس فى عين العدو الإسرائيلي، أمامنا وكانت فى عين السوريين

أيضا، تحملوا، لتكون جبال سيناء مكشوفة أمامنا، حيث فى الصباح يغرق الضباب كل شيء.

قال حمدي:

- لكن تطوير الهجوم مكن الإسرائيليين من التسلل إلى الغرب، بعد دفع قواتنا الاحتياطية من الغرب إلى الشرق.

ضحك عبد السلام فاروق وقال:

- أثير هذا الكلام مرة فى حضور اللواء جورج، فقال أن الأمر ليس هكذا بالضبط..

لقد قامت الطائرات الأمريكية من طراز س 7 على ارتفاع وصل إلى خمسة وعشرين كيلو مترًا، وبسرعة وصلت إلى ثلاثة أضعاف سرعة الصوت، بثلاث طلعات، آخرها بعد ظهر السبت الثالث عشر من أكتوبر، وقدمت صورة كاملة لأوضاع القوات المصرية ثلاث مرات. وليس هذا فقط. وأخرج قصاصة من أحد جيوبه.. قامت أمريكا بعمل جسر جوي من 228 طائرة نفذت 569 طلعة ونقلت 22497 ألف طن من الأسلحة والذخيرة والمعدات خلال الفترة من الثالث عشر إلى الرابع والعشرين من أكتوبر، وهي الفترة التى حدث فيها التسلل.

وفي بداية إقامة الجسر، تمسك جيمس شليزنجر وزير الدفاع الأمريكي، بضرورة أن تصل الطائرات إلى إسرائيل فى الظلام، وأن تفرغ حمولتها قبل طلوع النهار. والتزم السفير الإسرائيلي فى واشنطن سمحا دينتز بذلك. وفي الساعات الأولي من صباح أول يوم بعد الاتفاق تحركت الطائرات الأمريكية شرقًا. لكن عاصفة أدت إلى تأخير الطائرات، وهبوطها، في صباح اليوم التالي، وعليها علامات الجيش الأمريكي. ولم يستطع الأمريكيون أن ينكروا أنهم شاركوا فيما حدث. ففرحة الإسرائيليين بوصول الإمدادات، والتى جعلت نصف سكان تل أفيف (أبيب) يلتفون حول مكان هبوطها ويصفقون، لم تمكنهم من ذلك.

ضحك حمدي.. فعاجله عبد السلام:

- ماذا.. ؟

- تذكرت تصريح السادات: نحن لا نحارب إسرائيل.. بل نحارب أمريكا

- وفيم الضحك؟

- لأنه صرح مرة: أنا لن أحارب أمريكا

وعاود تساؤله:

- ألم يكن ممكنا تحريك حائط الصواريخ إلى سيناء؟.

- أنشئ فعلا مقر لقيادة الصواريخ فى الشرق، وسرعان ما تم تدميره بصواريخ ليست فى حوزة الجيش الإسرائيلي، ولم يزود بها الجيش الأمريكي، وبعد الحرب قال الأمريكيون للمصريين فى أحد اللقاءات: فى صفوف القوات الإسرائيلية يهود أمريكيون، ويعرفون تقنية هذه الصواريخ.

- ولماذا لم يستخدموا الصواريخ التى في حوزتهم.. ؟!

ضحك عبد السلام فاروق، وقال:

- اخترعنا طريقة جديدة لصيدها.. نضع فى مجالها جريد النخل، وأحيانا نشعل النار.. فتنجذب.. كما تنجذب لعادم الطائرات.. وعلى أية حال لم يفيدوا كثيرا من تسللهم.

- يا شيخ.. !

- اللهم إلا أخذهم فلاحي الجناين أسري.. ليبادلوهم بأسراهم لدينا.

استمر الفلاحون تحت القصف اليومي، وفي مرمي الأسلحة الخفيفة يزرعون منطقة الجناين والشط. كفر عامر، الدفرسوار، أبو خليفة، وحتى الكاب والتينة شمالا، وكان الإسرائيليون مغتاظين منهم.. فالجنود الذين مكثوا فى الجبهة ما يقرب من ست سنوات، عندما يرون من يزرع ويقلع

جوارهم.. تطمئن نفوسهم.. لذلك ساقوا الفلاحين إلى عربات نقل، وهم يضربونهم..

نظر إليه حمدي، دهشًا، فأمن على دهشته بقوله:

- يعنى سيادتك كنت معرضا..

شرب الشاى، اقترب منها، وقد جلست غير بعيدة عنه، وأذناه تحاولان التقاط أية حركة للأم. مد إحدى يديه، ليحيط خصرها. انفلتت فى خفة تحمل الصينية.

إلام ستظل حصينة.. ؟!

كانت الملاجئ حديدية، مكسوة بخرسانة مسلحة، تعلوها طبقات من قضبان السكك الحديدية، بالتبادل مع فلنكات خشبية وشكائر رملية، ثم طبقات من الحجارة الجيرية، أو الصخرية، متخذةً شكلا هرميًا، داخل شبكة من سلك حظائر الأرانب القوي وضعت ضمن الكسوة. كل ذلك بغرض امتصاص الموجات الانفجارية لجميع أنواع القنابل، حتى زنة ألف رطل، ولضمان انفجار الطابات ذات التأخير قبل أن تصل إلى الكسوة الرئيسية للملجأ. وتصل بين الملاجئ ومرابض النيران طرقات مكسية بألواح من صاج متعرج وزوايا حديدية، وشكائر رملية. ودشم النيران من الخرسانة المسلحة بسمك يصل إلى نصف متر، وبها مزاغل تسمح بتغطية جميع الاتجاهات بنيران متشابكة، تحقق التعاون بين الدشم. والملاجئ مزودة بالمطابخ وأدوات الترفيه من تليفزيون وفيديو..

وقال صفوت فى نفسه.. اثنان وعشرون موقعاً..احتوت واحداً وثلاثين نقطة.. بعمق وصل إلى ثلاثمئة متر، تسيطر على المحاور الرئيسية بطول قناة السويس، وأبراج مزودة بأجهزة استطلاع ألكترونية للرؤية الليلية وأجهزة لإدارة نيران المدفعية وتوجيه الطائرات..

من أقام خط بارليف.. لم يكن يفكر فى دفاع مؤقت عن أرض احتلها،

وسوف يتركها ذات يوم، ولكنه فكر أنه سيبقي إلى الأبد، يرجح ذلك تجهيزهم حجارة تعادل حجارة الهرم الأكبر، ألقوها فى البحيرات المرة، وتسللوا فوقها.. فهل كان إحضار هذه الحجارة، من أجل التسلل فى حالة الزنقة، كما حدث، أم من أجل العبور فى حالة تنفيذ خطة الحزام الأسود..؟!. وطفت فى ذهنه مقولة لضابط التوجيه المعنوي.. كان تحتمس الثالث يضع مجموعة من المراكب فوق عربات تجرها الثيران لاستخدامها فى عبور المجارى المائية التى ستقابله فى الشام..

وتذكر قول كليم السادات:

حين ذهبت للعبور، وجدت اثني عشر قاربًا من اثنين وثمانين قارباً، المفروض أن أعبر بهم.

الجنود المجدفون تحمسوا، وانضموا للمقاتلين، وتركوا القوارب. ماذا أفعل.. لابد أن ألحق بالنسق الأول بأسلحتى الثقيلة. المشاية التى تم نصبها لا تتحمل الدبابات الثقيلة. لابد من فرد الكباري. نزلت إلى الماء أتدبر وسيلة.وجدت سائقًا من شركة قناة السويس يسير بقاطرة بحرية، ذاهبًا إلى السويس. استنجدت به. عاونني الرجل فى فرد الكباري رغم الطائرات الإسرائيلية المحومة. وحتى لا أخل ببرنامج العبور، دفعت بعربات برمائية وعوامات عليها جنود معهم صواريخ «ستريلا» المحمولة على الكتف، لتملأ السماء كطيور شيطانية جارحة، ومدافع «شيلكا» 23 مللي تبصق النار فى خرطوم طويل رهيب بسرعة أربع آلاف طلقة فى الدقيقة. وبالفعل نجحت فى تعطيل الدبابات الإسرائيلية عدة ساعات حتى تم فرد الكوبري. وحين عبرت دباباتنا ومدفعيتنا المضادة للدبابات، سمحت للرجل بالانصراف وهو يتصبب عرقاً.

وتنفست فى راحة، وقد انتظم طابور الدبابات. وإذا بواحدة تسقط فى الماء. لو انتظرنا النجدة، سيموتون داخلها من الاختناق. أحضر أحد الضباط خرطوم هواء من عربة «زل» وأوصله بفتحة الدبابة، وظل يدفع الهواء إلى

داخلها، حتى لا يتسرب الماء فيغرقون. ولما كانوا تحت سطح الماء بعدة أمتار، فلن يستطيعوا دفع غطاء البرج لأن ضغط الماء شديد. وتمالكنا أنفسنا ثانية، حين أبصرنا دبابات النجدة ومعها ونش، وانتشلت الدبابة.

أطلت حمدية برأسها وقالت:

- تتغدى معنا اليوم..

لم يشأ أن تعاود غضبها، فأومأ برأسه موافقًا. وسرعان ما صكت مسامعهما،

أصوات تحليق طائرات، تطلع إليها.

- من مطار شاوة القريب.

- محمومة..

- ربما غارات إسرائيلية على جنوب لبنان.. أو اصطدام بالفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة.

عملت الطائرات المصرية مظلة دائمة فوق مطاراتنا، وكانت أطقم إصلاح المطارات جاهزة لأي عمل. وفي أيام الثالث والعشرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين من سبتمبر عام ثلاثة وسبعين، قامت الطائرات المصرية بطلعات بأعداد كبيرة فى الجو. وأخرجت إسرائيل كل طائرأتها، خوفا من المفاجأة. وعندما انطلقت طائراتنا فى الثانية وخمس دقائق يوم السادس من أكتوبر لتدمير مراكز القيادة الإسرائيلية فى سيناء، لم تتحرك طائرة إسرائيلية واحدة.

أغلقت الباب، وجلست بالقرب منه.

- ماما.

- نائمة

وغابا فى قبلة طال إليها الشوق.

نقرات على الباب.. انتفضت فى حضنه. وجاء صوت الأم:

- ألن تحضري الغداء..

تبادلا النظرات.. قامت على مضض.. ووشت نظراته برغبته فيها وليس فى أي غداء. وقفزت إلى ذهنه ذكرى أول مرة تلامسا فيها في آخر مكان يتوقع أن يلامس فيه فتاة. فى حصن الرصيف.. حيث مدفع أبى جاموس.. الحصن محاط بالماء من ثلاث جهات ولا يربطه بالبر سوى رصيف صغير.. ومن هنا استمد اسمه. نأى بها عن الرحلة فى ممر جانبي.. ولم يكد يحيطها بذراعيه حتى انسلت هاربة. لكنه كان قد أحس ليونة جسدها وحرارته.. ومن لحظتها عشش إحساسه بها فى كيانه.

ضابط إسرائيلي، يرتدي نظارة سوداء، لف العلم الإسرائيلي وسلمه لضابط مصري، ثم قدم التحية وسلم نفسه ومن معه من جنود للوحدة المصرية. نجحت نصف كتيبة من الصاعقة فى عبور الموانع المائية، وظهر الثلاثاء التاسع من أكتوبر، كان العشرات من جنودها يرابطون فوق الحصن، يغنون ويرقصون، فى انتظار استسلام الجنود الإسرائيليين الذين احتموا به، وقد أغلقوا أبوابه الحصينة.

ووضح من الإشارات التى أرسلها قائد الحصن لقيادته، والتقطها المصريون، نفاد الذخيرة لديه والطعام والدواء. ووعدته قيادته بإرسال طائرات لفك الحصار. وضحك المصريون وهم يعلمون استحالة اقتراب الطائرات الإسرائيلية من خط القناة، وكانت القيادة الإسرائيلية قد أرسلت تحذيرا في وقت سابق لطائراتها بعدم الاقتراب من القناة لمسافة خمسة عشر كيلو مترًا.

لحظ المصريون زورقين من زوارق الطوربيد من الفرقة 707، قادمين لإنقاذ الحصن. وعندما تأكدا من سيطرة قواتنا على المنطقة، عادا ووقفا جنوب رأس سدر.

وسرعان ما جاءت أربعة زوارق مطاطية، تحمل جنودًا من نفس الفرقة، فى اتجاه الحصن بمحاذاة الشاطئ. وأثناء اتصال قائدهم برئيس المخابرات البحرية الإسرائيلية يخبره عن سير العملية، التقط المصريون الإشارة،

لسيطرتهم على رادارات المنطقة، وانتظرهم رجال الصاعقة أمام الحصن. ولم تكد الزوارق تقترب، حتى انهال الرصاص من كل جانب. ابتعدت القوارب قليلا، ظنًا أنها طلقات عابرة. وعندما اشتدت، وأصبحت أكثر تحديداً، أدرك القائد الإسرائيلي، أن المصريين كشفوا العملية. عاد فورا من حيث أتى وأرسل رئيس المخابرات البحرية رسالة لقائد حصن الرصيف:

«استسلم فوراً للمصريين، وسنخطر الصليب الأحمر ليشرف على عملية سقوط الحصن».

وضحك صفوت في خاطره.. آخر شخص توقعت أن يأتيني بعمل هو حمدي.. لم تبق إلا الشقة.. فمن أية جهة لا أتوقعها سوف تأتي.. وأحس الآن.. وقد فارقته حمدية منذ لحظة.. تاركة الباب مواربا، أنه يريدها الآن أكثر من أي وقت مضي.. لكن يا تري.. هل ستوافق.. لو عثر على شقة فى الزقازيق أو الإسماعيلية، وتنقل عملها.. وهي المعتزة بالمنصورة. واستعاد حمأتها.. عندما مروا بالقرب من المعبر الذي استشهد عنده أحمد حمدي.. لم يكد يذكر اسمه.. حتى سارعت وبعض زملاء الرحلة، قائلين في زهو:

– من المنصورة.

أتم الضابط المهندس أحمد حمدي مد المعبر. لحظ عبوات فى الماء، فى الطريق إليه. ركب طوفًا وأسرع لإبطال مفعولها. جاءت الطائرات محمومة لقصف المعبر.

حذره الضباط والجنود دون جدوى. انفجرت عبوة، وأصابته شظية. طالبهم بإخلاء المعبر، حتى تهدأ الغارات.

–الجنود وضباط الصف أولاً، يليهم صغار الضباط، ثم القادة.

اشتدت عليه الإصابة، فأسرع أحد الجنود لنجدته. اعترضه أحد القادة، وصمم فى حزم على منع باقي الضباط، وتقدم غير مبالٍ بالنيران.. حمله، وهو يلفظ الروح، وتردد برهة.. هل يذهب ناحية الغربِ، أم ناحية

الشرق. لم يطل تردده، وذهب إلى الشرق.

ونجح طيار مصري فى إصابة إحدى طائرات الشبح المغيرة، ورأوا قائدها يقفز بالمظلة، قبل أن تنفجر، وبعد لحظات قفز الطيار المصري لنفاد الوقود. التقى الاثنان على الأرض. حمي الطيار المصري الإسرائيلى من غضب من أحاطوا بهما. وسرعان ما حضرت هليكوبتر مصرية نقلتهما إلى المستشفي.

دخلت الأم، حتى لا تتركه وحيداً، لحين انتهاء حمدية، ولم يكن فى حالة نفسية، تسمح له بالتبسط فى الحديث مع امرأة عجوز. قالت الأم:

- فتحوا باب التقديم فى المساكن الشعبية، كلفت قريباً لي يعمل فى مجلس المدينة باستخراج ورقة أن البيت آيل للسقوط، فقد أخبروني أن نسبة كبيرة مخصصة لهذه الحالات.

- هكذا.

واستمرت الأم:

- حمدية بسلامتها مكسوفة، تروح تستلم الورقة من الإدارة الهندسية.

عصته الكلمات. تطلع إلى وجهها وود لو يقبلها فى جبينها.

خيل إليه أنه سمع تزييقا.. نظر إلى السقف.. عروق خشبية مقوسة إلى أسفل.. لو كان السقف من الأسمنت لانهار من زمن..

انتبه إلى ضحكة حمدية وقد واربت الباب، مشيرة له أن الطعام سيكون جاهزاً بعد قليل..

حدث عطل فى ياى الحركة فى المدفع.. أبلغ الورشة وقائد الفصيلة.. لكنه لم يستطع أن ينام.. ربما طلبوا منه التحرك.. فكيف يعمل بهذا المدفع..كان الوقت ليلا.. أحضر المدفع، ورغم عدم خبرته، فك الجزء الخاص بالياى، ومد يده ليكشف سر عدم رجوع الياى. عامود طويل فى أسطوانة، تحبك عليه. خلعه وأحضر مبرداً وبرده.. ما زال يعاكس. خلعه

ثانية، وبرده، حتى سهل حركته. جرب المدفع، وأعطي تمامًا لضابط الفصيلة، الذي أبدي دهشته.

- حتى لا يكون موتي مجانًا.

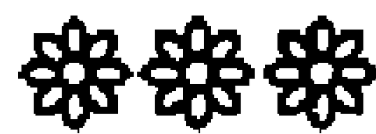
كانوا وقتها فى تدريب على الماء فى بحيرة الفيوم. يأخذونهم من الجبهة للراحة. لم يكونوا يريدون هذه الراحة التى تعني مشروعات. محاضرات نظرية، وسحب على الماء.. أحياناً إلى حوالي خمسة وعشرين كيلو مترًا. ويأتي محكمون من الجيش لمشاهدة التجربة على الطبيعة. مرة فى منطقة سحب إلى أسفل غرزت دبابة. تر كوها وأنجزوا المهمة. أحضروا دبابة جر فغرزت هى الأخري. معهم فى الدبابات ألواح سميكة من شجر الكافور، وضعوها تحت الجنزير، وأحضروا من بعض الدبابات حبالاً من الصلب كانت معهم. طول كل حبل حوالى ستة أمتار، أوصلوها ببعضها بعضا. أوقفوا دبابة ثقيلة على الطريق أوصلوا بها الحبل. قامت على السرعة الأولى، ثم نقلت بسرعة إلى الثانية. قفز لوح خشب بقوة تزيد على خمسمئة حصان، اصطدم بحبل الصلب فقطعه، وكاد أن يهوي عليهم، لولا تحركهم بسرعة.

كان المحكمون يثنون عليهم، ويطلبون المزيد، وأعلموهم أن الإسرائيليين يقومون بتدريبات لصد الهجوم فى بحيرة طبرية.

وقفت حمدية بالباب، تشير له أن ينهض، فأومأ لها أن تأتي..

ظن بحصوله على العمل أن مشاكله انتهت وإذا بها تبدأ. وضحك من نفسه، حين ظن أن الحرب انتهت بالنسبة له فور انتهاء مهمتهم فى مضيق سدر، وإذا بها تبدأ، وتنهال التكليفات عليهم فى طريق العودة.

ضحكت حمدية، وفتحت الباب على اتساعه.



46

ذهب حمدي إلى سعد فى شقته الجديدة بحى المساعيد ليبارك له حصوله عليها. وجد ندا هناك، وقد فرشت على كنبة فى المدخل، ملابس مطرزة باليد، وشيلانا وأغطيةً. تناول قطعة من الملابس. أخذته دقة التطريز، منمنمة بالخرز والخيط الملونين.

قالت ندا:

- أمى تجهز هذه الملابس، منذ طفولتي.

- تعيشين وتُذوبين.

وهما يغادران، قال سعد:

- يعنى لو كنت قدمت معى على شقة

- حمار.

ضحك سعد، وأردف:

- ملحوقة.

وهما فى الطريق، ظل حمدى صامتًا.

- وراءك شيء.

- لمحت ذبابة فاكهة.

- رشة من رشك

- لو أفلتت واحدة، سوف تقرفنا بعد ذلك. خطرها فى تعدد أجيالها، وما تسببه من وخزات للثمر، تؤدي إلى تلفه، وسقوطه. وتنمو الفطريات مسببة العفن، ولم نكد نبدأ.

قال سعد ضاحكاً:

-اعمل محطة إنذار مبكر.

- ويشغلها الأمريكان..

اكتشف القمر الصناعي الأمريكي، تحركات غير عادية على الجبهة المصرية، قبل الحرب بيومين، وأنذروا الإسرائيليين. ونفذ ديان خطة التعبئة. وكان يجمع عشرين ألف جندي كل عدة ساعات، عن طريق نداء، بالشفرة في الإذاعة والتليفريون ومكبرات الصوت فى الميادين العامة: 92 - -107 115 - 124 - -125 146.

ومع ذلك، وثب الجيش المصري وثبةً هائلة بطول قناة السويس، وتشبث بالأرض.

ولم يأخذ السوريون برأي الفريق أحمد إسماعيل، وزير الدفاع المصري، بالوثب والتشبث، وعندما يستقر الوضع، يقومون بوثبة أخرى، وهكذا. واندفعوا فى المرتفعات السورية المحتلة، ليصلوا بسرعة إلى بحيرة طبرية، حيث السهل القريب، وحيث عرض إسرائيل لا يتجاوز ثلاثين كيلو مترا، ويمكن فصل شمالها عن جنوبها، ولو بطلقات المدافع. وأثناء اندفاعهم تركوا جيوباً خلفهم، لم يُصَفوها. وحين أوقف اندفاعهم، تعبتهم هذه الجيوب أيما تعب.

نظر إليه حمدي، وقال متنهدا:

- من الآن فصاعدا، علينا ألا نغفل لحظة واحدة.

وقال سعد:

- تقابلنى عربات الأمريكيين العاملين فى المحطة، بسرعة ملعونة على الطريق، ولولا يقظتى لدهمتنى.

ابتسم حمدي، وقد طن فى رأسه الحوار الذي كان يدور عبر القناة.

- يا ديدي.

- نعم.

- ملعون أبوك.

تُكرر يومياً، إلى أن صحا ديدي مرة مبكراً:

- يا جمعة

- من ينادي

- ديدي

- ملعون أبوك

وفي صباح السادس من أكتوبر، نوي جمعة أن يهنئ ديدي بعيد كيبور، وهو عيد التكفير عن سيئاتهم، قبل استقبال العام الجديد. لكن الأوامر صدرت فى الصباح بالتزام الصمت. وبدا جمعة متضايقًا. ولما دوت المدافع المصرية بعد الظهر، استعاد مرحه وقال:

- كفرنا عن سيئاتهم.

كان الوقت بعد العصر، وقبل أن يدلفا إلى المقهي، اقترح حمدي أن يذهبا إلى المخزن ليتفقدا رشاشات المبيد.

- لن نجد أحداً الآن.

- تَول ذلك غداً، مبكراً.

- هل نسيت الإشارة، بتوصيل بعثة حاخامات غدًا إلى وسط سيناء، للبحث عن قتلاهم.

- البحث سيعطلنا.

-لا أفهم اهتمامهم الزائد بأناس شبعوا موتاً.

- يعتقد اليهود أنهم لن يبعثوا، ما لم تنقل رفاتهم إلى مقابرهم وتتلي عليها الصلوات.

ضحك سعد، وقال:

- ولماذا نساعد على بعثهم.

رد حمدي بسرعة:

- ليقرفونا فى الآخرة.

ضايقتهم الطائرات الإسرائيلية كثيرا، فى مواقعهم بالقرب من القناة.

فى التاسع والعشرين من يونيو عام 70 بدأ زحف كمائن الصواريخ. قامت مجموعة بأعمال المناورة المكانية، تغير مواقعها كل يوم. وقامت مجموعة على حافة منطقة الأمان حول القاهرة فى خط مواز لقناة السويس. بعد تثبيت هذا الخط، تقدمت المجموعة الثانية حوالى عشرين كيلو مترًا باتجاه الجبهة، وفي نهاية اليوم التالي، فكت المجموعة الأولى معدات محطاتها، وتقدمت بعد المجموعة الثانية بعشرين كيلو مترًا، وهكذا تبادليا، حتى اقتربت من حافة القناة.

وبعد حلول مساء السابع من يوليو، مر قائد قوات الدفاع الجوي، ليتفقد القوات، وأحوال التشغيل، وليرفع الروح المعنوية. قال له نقيب:

– لا يمكن لعدد من أطقم الصواريخ القليلة، أن تقابل طائرات إسرائيل كلها،ومن ورائها الإمدادات الإمريكية من سلاح وتكنولوجيا وطيارين وفنيين.. إن القتال فى هذه الحالة انتحار.

بعد عدة أيام حاولت إسرائيل، نطح جدار الصواريخ، فتساقطت طائراتها.

ومع أن حرب أكتوبر بدأت وخلف الجيش المصري خطان فقط من الأسلحة والذخيرة، بينما كانت خلف الجيش الإسرائيلى ستة خطوط من الأسلحة والذخيرة، إلا أنه وقت «الثغرة» كان لدي القوات الإسرائيلية المتسللة أربعمئة دبابة ولدينا ثمانيمئة دبابة، تحاصرها، وعندنا صاروخ ونصف لكل دبابة.

وقال الرئيس السادات لكسينجر:

– ليس أمامي قناة سويس لأعبرها، ولا خط بارليف لأنسفه (تكلف خمسة مليارات دولار، وشارك فى إنشائه خبراء أمريكيون وألمان). أنا عبرت ونسفت. أمامي التسلل، وسأصفيه فى لمح البصر.

رد كيسنجر:

- ساعتها سيضربك البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية).

وقال حمدي:

- أخشى إن وجدنا رشاشات صالحة ألا نجد المبيد اللازم. وليس هذا ما يقلقني على أية حال. ما يقلقني تلويث التربة، وأخشي على النحل.

كان حمدي قد أحضر طرداً من النحل، ليساعد في تلقيح زهور الفواكه، وأخبره اختصاصي نحل أنهم أحضروا ملكات نحل أمريكية، نتاجها عال.

راقب حمدي النحل وهم يشم رائحة العشب وشجر الفاكهة، ليرى مدي تآلفه معها. وحين لحظ كثرة أعداد النحل، خمن أن من خرج للاستكشاف، والتعرف على معالم البيئة قد سمح للشغالات بالخروج للعمل.

ونصحه الاختصاصي أن يكون النحل يتيمًا، فإذا لم يكن، عليه أن ييتمه من ملكته، حتى يتقبل الملكة الجديدة.

وضع حمدي الملكة الأمريكية في قفص صغير، بالقرب من الخلية لتعتادها النحل قبل أن تدخل إلى الخلية، وراعى أن يكون النحل مشغولاً، ليتقبلها حتى ينهي عمله.

- بنا نرى النحل.

اقتربا من غور قريب، بين أشجاره خلية النحل.

رفع حمدي الغطاء. تأمل الخلية والتفت إلى سعد دهشاً.

- ماذا ؟

- تجاهل النحل الملكة الجديدة، وخرجت ملكة من أحد أقراص الشمع، تقود الخلية، والجميع في طاعتها.



47

لاحت العريش، بمبانيها ذات الدور والدورين، كعلب بيضاء، متناثرة بين أشجار النخيل، وقد تمايل جريدها. تراءت ندا لسعد، فتغلغلت نسمة رقيقة بين حناياه، وتلهف لإخبارها أنه أحضر القطن، وبعض الملاءات وأغطية الفراش، من نسيج المحلة الكبري.

والعربة نصف النقل تنزل الطريق، والسائق يهدئ السرعة، أفلتت من سعد:

- آخ..!
- خير..
- نسيت حافظة الأوراق فى المحطة..
- بها شيء مهم

تفكر سعد قليلا..

- أبداً.. باستثناء البطاقة..

حين عودتى، سأوصى عامل المقصف أن يحفظها لك، إذا كان قد عثر عليها. فكر سعد أن يعود مع السائق، بعد إفراغ حمولته، لكن إحساسه بالإرهاق، جعله يعدل عن الفكرة.

كان عائداً للخلف في مأمورية، يوم 22 أكتوبر، وهو يوم لا ينساه. قالوا: وقف إطلاق نار. واستمر الإطلاق بقوة، أكثر من ذي قبل، كأن كل جانب يفعل ما في وسعه، قبل أن يتوقف فعلا. طلب منه الجنود أن يحمل رسائلهم، وأعطوه ثمن تسجيلها بعد أن جمعوه ممن معهم، فلم يكن تبقي مع أغلبهم نقود، فقبل العمليات توقف صرف المرتبات، حتى لا يستغلها الإسرائيليون، إذا ما عثروا عليها فى ملابس أحد الموتى، في التسلل بين

صفوفهم.

هل ينجح فى الوصول إلى السويس؟

تسلل الإسرائيليون من الثغرة، وساروا فى طريق الجناين. كان يتقدمهم بمسافة بسيطة، وأخبره جنودنا في بعض المواقع التى مر بها، أن قوة إسرائيلية تسللت من الجنوب عند السخنة، وهدفهم أن تتقابل القوتان، فيتم عزل السويس عن قوات الجيش الثالث في سيناء.

غذا السير بالعربة، حتى يتمكن من تسجيل الرسائل وقضاء مأموريته فى توصيل مظروف خاص، مغلق بالشمع الأحمر، لمركز تابع لقيادة الجيش الثالث، بالمدينة.

اقترب من السواتر الترابية على شاطئ القناة فى مواجهة السويس. كان جنود من الجيش الثالث، ينشئون سواتر جديدة لتعزيز الموجودة، بعد أن احتلوها. وتنفس سعد براحة، عندما انطلقت مدافع الجيش الثالث، موقفةً تلاقي القوتين الإسرائيليتين، لتحتفظ بممر يصل السويس بسيناء، وسط حوض الدرس.

سلم المظروف، وسجل الرسائل، وأسرع عائدًا. أشار له طبيب ضابط، فأركبه معه.

أثناء السير، تعرف على جندي من وحدته. ناداه، فرفض أن يركب. هدأه.. صعد.. جموع كثيرة من الأهالي تهرول.. وسمعوا حركة دبابات.. وحومت الطائرات المغيرة. قفز الجندي من العربة، وسعد يلاحقه:

– عيب يا دفعة.

وارى العربة فى منطقة الجناين، وسارا بحذاء القناة، سعد يود الوصول إلى وحدته فى سيناء، والطبيب يود الوصول إلى كبريت.

كان سعد قد أحضر جوالين، بهما فلفل وطماطم، فاكهة الجنود الذين ملوا التعيين الجاف، وبعض الخبز، فقد عافت نفوسهم البسكوت. أنزلهما من العربة، هو جوال، والطبيب جوال. لبدا بجوار ترعة فى جانب من الطريق. مرت بهما عربة مسرعة، بها نساء وأطفال، فعرفا أن الإسرائيليين

قريبون. عادا إلى السويس، وقد تخليا عن الجوالين. عبرا خطوط السكة الحديدية، ودلفا إلى حي الأربعين. قابلا جنوداً كثيرين، أغلب الظن كانوا في مهام وقُطعت عليهم الطريق. انضما إليهم. كانت معهم أسلحة خفيفة وقنابل يدوية. انبطحوا فى أجناب الشوارع، وقذفوا الدبابات الإسرائيلية بالقنابل. وتسببت غارات الطائرات في وقوع المساكن القديمة فوقهم. بحث بعضهم عن الشوارع الضيقة،التى لا تستطيع الدبابات أن تمر منها، وتمترسوا مطلين على الشوارع الواسعة. جاءهم بعض الجنود ممن عطبت دباباتهم ومعداتهم، وأخبروا أن الإسرائيليين قطعوا طريق السويس القاهرة، قبل هجومهم على السويس، فحمدوا الله على ذلك، فلو تركت الطريق مفتوحة، ما انضم إليهم هؤلاء الجنود. انطلقت دبابة إسرائيلية في الشارع وعادت بسرعة. وسرعان ما بدأ القصف.

وعندما هدأ فوجئوا بالبقر تجري في شوارع السويس. ضحكوا رغم إجهادهم، وقد خمنوا أن الإسرائيليين خشوا استخدامها، مخافة أن يكون المصريون قد حقنوها بمادة سامة. ساقوها من الجناين حتي وصلت إلى أبواب السويس. وكانت فرصة لهم، عاشوا على لحمها أياما.

توقف تقدم الدبابات الإسرائيلية، استدارت إلى الخلف، بعد تدمير بعضها، عطلت الطريق فى مدخل المدينة.

وبينما يستعدون لاستقبال موجة جديدة من الدبابات الإسرائيلية، بعد أن سحبوا دباباتهم المعطلة، فوجئوا بوجود عربات صواريخ أرسلها الجيش الثالث. صاح الناس فى الشوارع:

- الله أكبر.. الله أكبر..

ولاحت الفرحة فى العيون، وقد أدركوا أن الجيش الثالث احتفظ بالممر بينه وبين المدينة. كف الإسرائيليون عن محاولاتهم دخول المدينة.

نام سعد يومها على بسطة سلم، مع أكثر من عشرة أشخاص، غير راغبين فى اقتحام البيت، خوفا عليه من السرقة، ومراعاةً لحرمته.

وتسلل بعض الجنود إلى خطوط الإسرائيليين، وكانوا يحضرونهم أحياء. مرة أحضروا، حدثاً، وقال له جندي معهم يتحدث الإنجليزية:

- يا بني.. لا نتعامل مع أطفال.

واستطاع بعضهم إحضار أجولة من الدقيق.. كيف أفلتت رغم شدة القصف.هل تركوا هذا المخزن عمدًا، ليستنفدوا الماء القليل، الباقي معهم في عجنه..

سحابة من القلق غشت الوجوه.. الخبز مقدور عليه.. أما الماء.. وإذا بموجات من الأهالي، تجوب الشوارع، وهتافاتهم تتعالي:

- الله أكبر.. الله أكبر.

استطلع سعد الخبر، فرد عليهم بعضهم بسرعة:

- بئر الأربعين.

ولما كان غريباً عن المدينة، فلم يفهم. عرج إلى أحد المقاهي. وجد صاحبه مستبشرًا، يصنع الشاى، ويوزعه على رواده مجاناً. لمح الجندي الذي تحدث بالإنجليزية، سأله، فرد بسؤال:

- الدفعة من أين.. ؟

- من الصعيد

- غريبة..

نظر إليه مستطلعًا، فقال:

- أربعون صعيدياً، فروا من الفرنسيين عندما غزوا مصر بقيادة نابليون، وجاءوا إلى هنا. وجدوا الفرنسيين يحاصرون بئر عجرود، وكانت تشرب منها السويس وقتها. اشتركوا مع الأهالى فى فك الحصار عنها، وها هي نفس البئر تعود. حين هدأ الجو، شرع سعد فى العودة إلى سيناء. سمعوا زيطة بالقرب من القناة. كويتي من لواء اليرموك ألقي بنفسه فى الماء، يسبح باتجاه البحيرات المرة، لينال من الإسرائيليين، قفز وراءه بعض المصريين. أخرجوه وهدأوه.

وصلت قوة من الكويت، لتحل محل قوتهم، التي كان مقرراً عودتها على دفعات. وسأل هذا الجندي زميلا له إذا كان يود أن يبلغ أهله بشيء لأنه سيغادر فى اليوم التالى. شنت الطائرات الإسرائيلية غارة على الموقع. وتم ترحيله فى اليوم التالى، لكن فى تابوت.

أوقف عربة بها بعض الجنود، ودلهم على طريق أسفلتى، كانوا قد غطوه بالرمال، حتى لا يستخدمه الإسرائيليون. كان نصيب.الفرد كوب ماء وكوب دقيق، يجتمعون معا، كل خمسة أو ستة أفراد، يحضرون إحدى فلنكات السكة الحديدية، من أحد حصون خط بارليف، يكسرونها، ويشعلونها، ويضعون فوقها قطعة من الصاج، لإنضاج الخبز، وتسخين ما معهم من معلبات الأرزوالخضراوات باللحم. وعندما كانوا يقرفون من المعلبات، يشككون في رواية سعد عن جوال الخضراوات، ويتهمونه ببيعه للإسرائيليين.

ورغم الهدوء الظاهرى فى الجبهة، كان التوتر يشملهم، متوقعين، أن يندلع القتال بين لحظة وأخري، لتصفية قوات الثغرة.

سافر الرئيس الجزائري هواري بومدين إلى موسكو، وعقد صفقة بتمويل من السعودية، لشراء خمسمئة دبابة، سرعان ما دعمت حصار القوات الإسرائيلية فى الغرب، دون الحاجة إلى سحب دبابات مصرية من الشرق. ووضعت الخطة لتصفية الثغرة، ولم يبق إلا صدور الأمر بذلك، وغلق الفجوة بين الجيشين الثانى والثالث قبالة البحيرات المرة، التى عبروا منها، وهى لا تتعدي أربعة عشر كيلو مترًا، مما يقطع خطوط مواصلاتهم وتموينهم الطويلة عبر سيناء إلى قواتهم فى الغرب، ويحكم الحصار حولهم.

وبينما هم في انتظار الأمر بذلك، وصل هنري كيسنجر مساءً إلى إسرائيل قادمًا من مصر، ومعه مسودة اتفاق فك الاشتباك، وطلب ديان وزير الدفاع الإسرائيلي، مهلة، وأن يعدل فقرة، كي يبدو الأمر أن مجلس

الوزراء الإسرائيلي، اجتمع وناقش، أفهمه كيسنجر أنه يود الانتهاء من هذه الاتفاقية بسرعة. طلب ديان الانتظار حتى الصباح، كى يبدو منظرهم مقبولاً أمام الناس فى إسرائيل، فكان له ما أراد.

وقفت العربة أمام بيت ندا. عزم سعد علي السائق بشدة، أن يستريح، ويتناول لقمة، لكنه اعتذر بضيق وقته، ونظراً للإلحاح، اكتفى بكوب من الشاى. وعند انصرافه، ذكره سعد بالحافظة، وهو يعجب، كيف نسيها.

كانا فى العربة، فى انتظار العبارة، لتقلهما إلى الضفة الشرقية، وأمامهما صف كبير من العربات عند المعبر، بالقرب من الصالحية. وحتى يلحق بهما الدور فى العبور، ذهبا إلى مقصف المعبر، ليرطبا حلقيهما بمشروب مثلج، فجأة تجمع رواد المقصف، من راكبى عربات الأجرة والخاصة، حول بعض السياح الإسرائيليين، وأحد المصريين يصيح غاضبا.

عندما صعد السياح إلى الباص، احتل صبي إسرائيلى مقعد صبى مصري. حاول هذا أن يجلس فى مقعده دون فائدة. دفع الصبى المصري، الإسرائيلى، وجلس. زاحمه الإسرائيلي، دون جدوي، فقد تربس المصري ولم يتزحزح.

صاح الصبي الإسرائيلي مغيظًا:

- خمسة يونيو.

رد الصبي المصري:

- ستة أكتوبر.

بكى الصبي الإسرائيلي.

وبدلاً، أن يُجلس أهل الصبى الإسرائيلي، الولد معهم، كما كان قبل التوقف، نزلوا إلى المقصف، وطلبوا الشرطة ليأخذوا المقعد من الصبى المصري.

رفض الصبي، ورفض أبواه، وسبوا السياح الإسرائيليين، وهاجوا على الشرطي، الذي أراد مراضاة الإسرائيليين. وحين وجد الشرطى الدفة دارت ناحيته، أراد أن يقصر الموضوع، فصاح فى المصريين:

- خلاص.. قال خمسة يونيو.. ورد عليه ستة أكتوبر.. انتهينا.

-لم ننته..

أطلقت العبارة صفارتها بتنغيم، أسرعوا جميعًا إلى العربات، للحاق بها. كررسائق العبارة تنغيمه. وتجاوب معه سائقو العربات:

- ستة أكـــ.. توبر.. ستة أكـــ.. توبر..

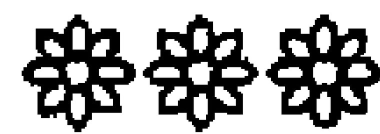
انزلقت العبارة على سطح الماء، وقد اندمجت أبواق العربات فى إيقاع واحد:

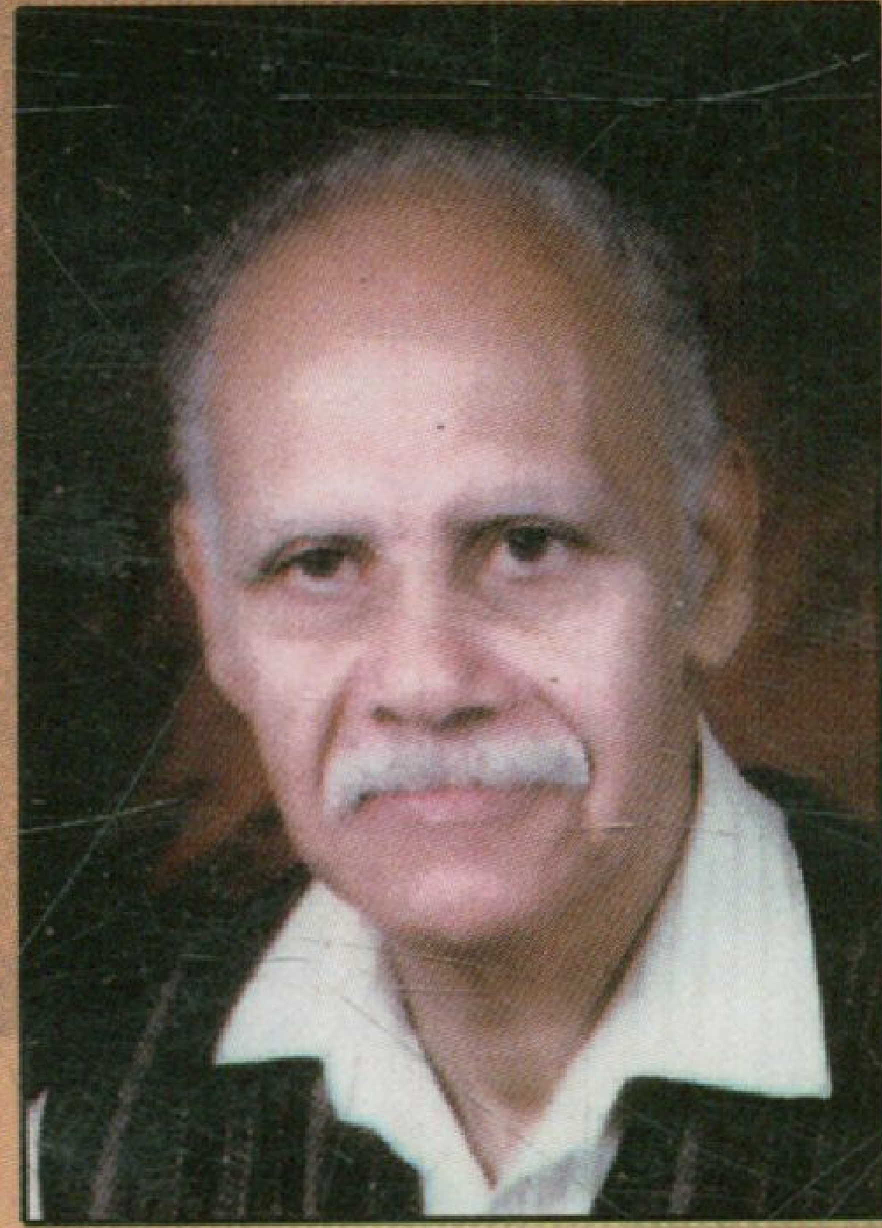
- ستة أكـــ.. توبر.

وتذكر سعد، ما سمعه من الباشمهندس حمدي، أن سائقى العربات فى صغره، كانوا ينغمون بأبواقها: يحيا النحاس.. باشا.

أبطأت السفن المارة فى قناة السويس، من جنسيات مختلفة، من سرعتها، لتسمح للعبارة بالمرور، وهى تطلق صفاراتها بالتحية، بينما انتظم الإيقاع:

- ستة أكـــ.. توبر.





هذه الرواية..

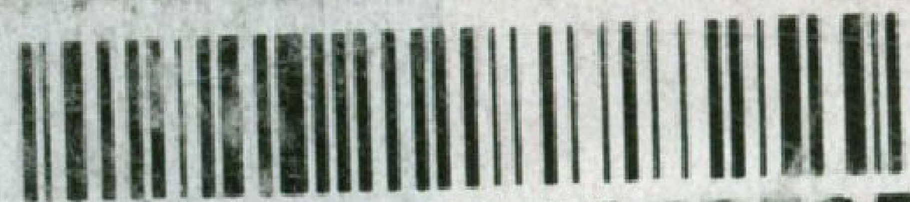
نقدم بإعزاز هذه الرواية التي ينتظرها العرب.. كل العرب منذ عدة عقود لنعيش من خلالها معجزة النصر في السادس من أكتوبر 1973.

إنها أكبر عمل قصصي إنساني شائق يربط بين الحروب السابقة وأعاصير اليوم للروائي الكبير فؤاد حجازي، وهو مشارك وشاهد عيان، مارس نار الحرب، وتمرس بوهج الكلمة.

الرقص على طبول مصرية تغوص في وعي الإنسان وتستجلي خوافيه، وهي قفزة نوعية في رواية الحرب الإنسانية.

الناشر





ISBN 978-977-277-652-3


6222008907134